البيان وفن الخطابة

تأليف الأستاذ
محمد تقي فلسفي

ترجمة
عباس حسين الأسدي

مؤسسة البعثة

البيان وفن الخطابة

هذه مجموعة من المقالات للعلاّمة الفلسفي، الخطيب الشهير، كان قد ألقى بعضها في محاضرات، ثم أعاد النظر فيها شرحاً وتوضيحاً وتنقيحاً، وأعدَّها للنشر.

البيان وفن الخطابة

تأليف:
الأستاذ محمد تقي فلسفي

ترجمة
عباس حسين الأسدي

مؤسسة البعثة
بيروت

جميع الحقوق محفوظة ومسجّلة للناشر

الطبعة الثانية
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

مؤسسة البعثة للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان - بيروت - حارة حريك - بناية هاشم - ص.ب: ٢٤/٨

بسم الله الرحمن الرحيم

على عتبة الكتاب

هو همٌّ ثقيل يجثم على صدر الخطيب الحديث العهد بفن الخطابة أو العتيق بها اذا لم يمسك باطراف كلامه أو يزنه.. أو هي سلسلة متقطعة مشتتة من الأفكار تدور في ذهن المستمع فيبذل جهداً اضافياً لربطها أو يترك الحبل على غاربه وينطلق مفكراً في أمور أخرى ، فيفصم عُرى ارتباطه بالمتحدث ، وينعدم بالتالي التأثير المطلوب من الخطبة السياسية أو الدينية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو العسكرية ... وإلى آخره.

اذن: هي حالة سلبية تماماً في العلاقة بين الخطيب والمستمع، تعكّر صفو العلاقة التي بدأت تلتحم خيوطها منذ اللحظة التي نوى فيها السامع طوعاً أن يمنح الوقت والجوارح للخطيب، مروراً بترجمة النية إلى عمل، وعندئذ تفرز النتيجة سلباً أم ايجاباً.

وإذا كان المدخل إلى هذه المقدمة يرسم في المخيلة صورة قاتمة بعض الشيء، فهو لا يهدف إلى وضع حواجز نفسية أمام عشاق هذا الفن وطالبيه والسالكين اليه، بل هو حثٌّ اليه مقرون بتأمل ودعوة غير عاطفية للتوغل فيه وخوض بحاره الواسعة بوسعة الشعوب والأمم التي يحركها، في فترات من التاريخ، رجلٌ واحدٌ ويقلب ظهر المجن ويسجل على صفحاته دوراً فريداً للخطيب الفذ الذكي الفطن اليقظ العارف الواعي، وهذه خصال تدفع عنه أو يدفع هو بها الكثير من المواقف التي تستدعي علاجاً آنياً أو مرحلياً أثناء الإلقاء، الاّ أنها لا تُغني البتة عن الأخذ بالنصيحة واكتساب التجربة ومطالعة الرأي، ليرقى بها الخطيب إلى معالي الكمال بعد أن يطعّمها بتجربة ذاتية تنتبه إلى الخطأ وتقف على موارد الشبهة.

وتأكيداً لعامل التحفيز، حريّ بي أن أُشير هنا إلى الضرورة الحياتية الخالدة للخطابة بمعناها العام في صيرورة التكوينات العالمية الجديدة، وتغيير القديم، وقلب الموازين.وما يقال عن دفن الخطابة مع الخطيب عند موته لأنها تتناغم مع نغمة الخطيب وتلتهب مع مشاعر الجمهور المستمع، هو قول فيه الكثير من التجنّي، لأن البصمات التي يتركها الخطيب على المجرى العام للحياة قد لا يتركها غيره، وفي التاريخ شواهد بارزة أسماها أصوات الأنبياء والرسل التي انطلقت مُبشرة بتعاليم السماء ولم تتوقّف يوماً حتى ختمها العالم الجديد الذي صنعه رسول الله محمد(ص) بعد فترة مظلمة، فتكلّم و[لَم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أصدق لفظاً، ولا أعدل وزناً،ولا أجمل مذهباً،ولا أكرم مطلباً،ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مزجاً، ولا أفصح عن معناه، ولا أبين في فحواه، من كلام النبي(ص)].

وكانت العرب قبل الإسلام تتفاخر بالخطابة وتحض وتحذّر وترغب وتنفر، وبعد الإسلام أصبحت أداة مهمة في نشر تعاليم الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورصّعت بآيات القرآن الكريم فَعلاَ شأنها وارتفعت منزلتها وازداد تأثيرها، وسارت على وتائر متعددة تفعل فعلها وتترك أثرها إلى عصرنا هذا حتى فجرت ثورة ثانية مُسْتَلْهَمَة من الأولى، كانت للكلمة المسموعة والخطابة فيها دور كبير جداً حتى أرستها على ساحل الانتصار وشاطىء الأمان.

ولعلَّ التجارب السياسية المعاصرة الأخرى ماثلة أمام الأبصار توضح قدرة الخطيب على تحريك الشارع وإثارة الجمهور أو إسكانه وتهدئته، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تُحصى وأكشف من أن تُضرب والتواريخ القديمة والحديثة لغير قومنا ولملتنا هي الأخرى حافلة بالأمثلة، فذاك هو تاريخ اليونان منذ عهد هوميروس وخطبائه كـ (برقليس وازدكرات واشين وديموستين)، وهذه هي الثورة الفرنسية التي قيل عنها انها خرّجَت في عشر سنوات من الخطباء عدداً كبيراً لم يسبق به عهد، وكان للبلاغة فيها من التأثير ما لم يعرف له نظير.

اما الآثار المكتوبة والتأليفات المدوَّنة في هذا الفن باللغة العربية فاتصور

ندرتها، لأن الكتّاب والمؤلفين من علماء وفقهاء الدين والسياسة والاقتصاد والاجتماع والتاريخ و... قد عالجوا الموضوع بوفرة واقتصدوا عند مهارة إلقائه، فتناولوا الفقه والسياسة والاقتصاد والاجتماع والحديث والتفسير وخاضوا فيها تاركين طريقة ابلاغها إلى الجمهور وكيفية تبليغها إلى السامع إلى تجارب المجرّبين أو نُخبة من المُحبين لهذا اللون من العلم أو نُدرة من المتخصصين به، لكن اعتماد التقسيمات الموضوعية في كتب الاختصاص تساعد السالك في هذا الطريق ـ طريق الخطابة ـ من تجاوز هذه العقبة وتفتح أمامه آفاقاً واسعة تضخ اليه زخماً كبيراً للتقدم واجتياز العقبات، فيمكن على سبيل المثال مراجعة الكتب الطبية لمعرفة حالات الحنجرة والصوت وتعديله، واقتناء الكتب النفسية لدراسة حالات المجالس وحضّارها أو معالجة بعض المواقف الحرجة أو الوقوف على أهميّة الاشارات ومستوى الصوت على المستمع ومطالعة المصادر الرياضية لاختيار الوقفة الصحيحة، ومتابعة كل ما يتعلق بهذا الفن من معلومات عامّة.

وهذا الكتاب

تجارب عملية طويلة لواحد من كبار الخطباء الإسلاميين عرفته المنابر، واكتسبت ـ ولا زالت ـ منه الملايين التي حضرت مجالسه وانتفعت من مواعظه ونصائحه، قد رتّبها في كتاب بعد الحاح أهل العلم والفضل ـ كما ذكر في مقدمته ـ لينتهل منها الظمآن والمترع لأنها حصيلة عمر طويل، والعاقل من جمع تجارب غيره إلى تجاربه، والتجربة أكبر برهان،فكيف بها اذا خالطها العلم والبرهان نفسه المُستلهم من مصادر نقيّة خالصة، وهذا الكتاب هو نتاج الاثنين معاً

في النصف من شهر شعبان المكرم/١٤١١للهجرة

عباس الأسدي

مقدّمة المؤلف

يا كميل: ما من حركة الاّ وأنت محتاج فيها إلى معرفة.

يعتبر فن البيان والخطابة للخطباء والمتحدّثين في غاية الأهمية، ينبغي لهم تعلّمه وهضمه ومن ثم تطبيقه عملياً على منبر الخطابة، لينفُذ كلامهم إلى المستمعين ويترك فيهم أكبر الأثر وأفضله.

وقد عالجتُ هذا الموضوع في أبعاده المختلفة على مراحل عديدة لخطباء العاصمة وطلبة الحوزة العلمية وطلاب جامعة الإمام الصادق(ع) وتلامذة منظمة الإعلام الاسلامي وشرحت لهم بعض النقاط الفنيّة اللازمة، فطلب مني بعض السادة الخطباء والطلبة وعدد من أئمة الجمعة والجماعة أن أُلْملِم المواضيع التي طرحتها وتلك التي لم تسع الفرصة لتناولها في الدروس الآنف ذكرها، وأصَنِّفُها في كتاب يسهل على الراغبين اقتناؤه.

واستجابة لتوصية السادة وتنفيذاً لطلبهم هذا، قمت بتأليف هذا الكتاب الذي نأمل أن ينال قبول أصحاب الرأي والفكر، وهو يحتوي على معلومات نافعة للخطباء مهما كان اختصاصهم ووجهتهم الخطابية، بيد أن الهدف الرئيسي لكتابة هذه المجموعة هو إرشاد السادة الوعّاظ والخطباء الإسلاميين لبعض المواقف والنقاط الفنية في الكلام لو رُوعيت أثناء الإلقاء لأصغى المستمع للخطاب برغبة أشد وتلقاه بقبول حسن.

وما جاء في هذا الكتاب من قضايا فنيّة حول الخطابة قُلِّبت من أوجه مختلفة،

انما هي أمور تَنبّه لها المؤلف وخطَّها قلمه، وهذا لا يعني ان الكتاب الذي بين يديك ـ عزيزي القارئ ـ قد حوى كل الملحوظات الفنية في الخطابة، فقد تكون هناك جوانب من فنون الكلام والخطابة قد غابت عن المؤلف وتنبّه لها آخرون ممن خاضوا هذا المجال فدوَّنوها وألَّفوا كتباً في هذا المضمار ليس للسادة المتحدثين والخطباء الإسلاميين غنىً عنها للحصول على معلومات مفيدة أخرى.

محمد تقي فلسفي

الفصل الأوّل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾

القرآن الكريم

حول النطق

بمشيئته الحكيمة، خلق الله عزّ وجلّ الإنسان مفكراً ناطقاً، ووهبه هاتين القوتين (التفكر والتكلم) وأودعه بنحو طبيعي مستلزماتهما، ورفعه بهاتين النعمتين، عن المستوى الحيواني، وميزه عنه.

فالعقل: أحب مخلوق إلى الله الخالق.

والعقل: مخلوق ينفذ الأوامر الإلهية بحذافيرها دون تردد ويطيعها عن طيب خاطر.

عن الإمام الباقر عليه السلام قال: لمّا خلق الله العقل استنطقه ثم قال له: *اقبل، فأقبل. ثم قال له: ادبر، فادبر ثم قال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو احب إليَّ منك*[1]

---

(١) الكافي١: ١٠.

اللسان أيضاً هو من العطايا الإلهية الثمينة للانسان، فقد جاء عزّ وجلّ على ذكر نعمة البيان في كتابه المجيد بعد ذكر خلق الانسان، قال تعالى:

﴿الرَّحْمنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإِنْسانَ عَلَّمَهُ البَيانَ﴾[٢].

قال الراغب الأصفهاني في مفرداته: ان البيان هو الكشف عن الشيء، وهو اعم من النطق،مختص بالانسان ويسمّى ما بُيّن به بياناً وتتسامى أهمية البيان وقدرة التكلّم لدى الانسان لو عرفنا ان الإمام علي عليه السلام عَدَّ الانسان حيواناً بصورة انسان لو سُلبت منه القدرة على الكلام، قال(ع):«*ما الإنسان لو لا اللسان الا صورة مُمَثَّلة أو بهيمة مهملة*»[٣].

إذن: فالإنسان يحمل عن الله تعالى امانة العقل وامانة اللسان، ويحق له ان يفخر بهاتين النعمتين الكبيرتين، ويرى في نفسه الرقي عن الحيوان متى ما احكم سلطان عقله على جميع ميوله وانقاد لاوامره وحرّك لسانه بما يمليه عقله وتحدث بحدود ما يسمح به.

ولا يرقى على الحيوانات بشيء، بل هو احط من اية دابة برية كانت أم بحرية، من لا يستعين بالعقل لتمييز الحق عن الباطل ومعرفة المباح من الممنوع، ولا يهتدي بهدى العقل في العقائد والاخلاق والقول والسلوك والحركات والسكنات، ولا يطيع اوامره.

قال جل من قائل:

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوابِّ عِنْدَ الله الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذين لا يَعْقِلُونَ﴾[٤].

اللسان أيضاً، وبرغم أهميته وقيمته الكبيرة، يصبح عضواً خطيراً مضراً اذا تركه صاحبه حراً لشأنه ولم يجمحه ويسلّم عنانه بيد العقل، وقد يجلب مفاسد لا تعد تؤدي بصاحبه الى الهلكة والانحراف عن جادة الصواب. وهناك الكثير من الروايات

---

(٢) الرحمن: ١ ـ ٤.

(٣) ميزان الحكمة٨: ٤٩٠.

(٤) الانفال: ٢٢.

الواردة بهذا الشأن، نكتفي بذكر احداها.

عن الإمام علي عليه السلام: «*اللسان سبُع ان خُلّيَ عَنْه عَقَرَ*»[٥].

موجـز القـول: ان قوة العقل وقدرة التكلم هماَ عطيتان الهيتان خص بهما الإنسان وجعلهما معياراً لتفوق الإنسان على الحيوان.

فإذا استغل الانسان هاتين النعمتين استغلالاً صحيحاً واستثمرهما على النحو المطلوب، فانه يستطيع ان يُعبّد ارضية تكامله ويطوي مدارج سموّه ورقيّه بمقدار كفاءته واستعداده.

يفكر بقوة العقل، ويحقق في ظواهر الطبيعة، فيقف على أسرار الخلقة ويفتح أمامه مصاريع أبواب العلم. كذلك يغور في وقائع واحداث العالم ويطّلع على عللها ومعاليلها ويكشف النقاب عن اسرارُها.

ويظهـر بقـوة النطق ما اختزن في باطنه من علوم، ويكشف عن مكنوناته الخفية، وينقل للآخرين ما توصل هو اليه وعرفه وفهمه، ويمكن القول: ان اللسان هو بمثابة الجسر الذي يربط العقول ويوصل عليه بضاعة العلم القيّمة الى الأدمغة، ويغني الآخرين بالعلم والمعرفة. وبعبارة أخرى يمكن القول: ان العقل هو جهاز استلام واللسان جهاز إرسال. وقد قال الإمام علي عليه السلام بشأن أهمية العقل واللسان ومنزلتهما: «*للإنسان فضيلتان عقل ومنطق، فبالعقل يستفـيد وبالمنطق يفيد*»[٦].

في هذا الحديث، جاء الإمام علي(ع) على ذكر الفضيلتين المختصتين بالانسان (العقل والمنطق) معاً، وذكرهما إلى جانب احدهما الآخر، ولكن ينبغي الانتباه إلى ان قيمـة نطق الانسان تتوقف على مستوى عقله، والعقل في الحقيقة هو سند الكلام

---

(٥) نهج البلاغة، الكلمة: ٦٠.

(٦) غرر الحكم: ٨٥٣.

وعموده. فوزن كلام المتحدث وقيمة ما يتفوه به يتناسب طردياً مع مستوى علمه ونضج عقله.

فأجوفٌ، هو حديث مَنْ لا يستخدم عقله، ولا يحمل أي وزن أو أهمية هو كلام مَنْ لا يستغل هذه الثروة الثمينة مُطلِقاً لنفسه عنان الجهل، وقد جاءت روايات كثيرة بهذا المعنى عن أئمة الهدى عليهم السلام، ومنها، ان الإمام علي(ع) قال:

«اللسان معيارٌ أرْجَحَهُ العقلُ واطاشَهُ الجهْلُ»[٧] .

الحيوان وقدرة التعلم

وهنا، يلزم بنا ان نؤكّد ان كسب المعلومات ليس وقفاً على الإنسان، فلبعض الحيوانات أيضاً هذه القدرة حيث يعمد المروضون ولأهداف خاصة إلى تدريب الحيوان على بعض الحركات، فيأخذها عنهم ويتعلمها، ويعيد تكرار ما تعلمه عند اللزوم والاشارة.

فعلى سبيل المثال: الكلب، فهو من الحيوانات الذكية المؤهلة للتربية والتعليم، وبإمكانه ان يتلقى تعليمات مدرّبه جيداً وينفذها عند الضرورة.

وفيما مضى كان يُدرَّب هذا الحيوان على الاعمال البسيطة ويطلق عليه الكلب المدرب، بينما اخذ مدربو الكلاب المتمرسون في الوقت الحاضر بتعليم كلاب اصيلة مؤهّلة للتربية ذات خصائص معينة، وتربيتها لاغراض متنوعة، وتدريبها على القيام ببعض الاعمال ومن ثم استخدامها في الاقسام التي جرى تدريبها عليها.

فهناك كلاب تدرب على كشف الجرائم والتعرف على المجرمين، فتوضع تحت تصرف الشرطة بعد فترة التعليم ليُستغل ذكاؤها الخارق واستعدادها المدهش في مكافحة الجرائم والقاء القبض على المجرمين.

وهناك الكلاب التي تدرب على الذهاب إلى السوق والتبضع بما يحتاجه المنزل،

---

(٧) ميزان الحكمة: ٤٩٠.

فيقوم الكلب بأداء هذه المهمة على افضل وجه طبقاً لما تلقاه من تدريب. وهناك اَيضاً اهداف أُخرى تُدرب عليها بعض الكلاب لتقوم بعد حين بتنفيذها بنفسها.

الحَمَامْ اَيضاً هو من الحيوانات التي كانت تدرب فيما مضى على نقل البريد، وكان هذا الطائر حينذاك اسرع وسيلة وافضلها في تبادل الرسائل.

فمثلاً حينما كان الأمر يتطلب من قائد الجيش في جبهات القتال أن يبلغ اركان الجيش في بلاده بنبأ سري وعلى وجه السرعة، أو العكس أي يستلزم ايصال اوامر فورية وسرية من اركان الجيش إلى القائد، فان الحَمَام الزاجل كان الواسطة التي تقوم بهذه المهمة الخطيرة وبالشكل التالي: يدوّن ما يراد كتابته على ورقة صغيرة وبخط ناعم أما باسلوب رمزي أو بنحو صريح، ثم تطوى الورقة وتربط بإحكام بخيط رفيع إلى رجل الطائر، ويترك طليقاً، فيتجه نحو هدفه الذي يعرفه ليصله بعد فترة قصيرة نسبياً، ويحط في النقطة التي دُرِّب على الهبوط فيها، فتُأخذ الورقة إلى الجهة المسؤولة.

ويوماً قال المأمون العباسي إلى احد خواصه ومقرّبيه: انك تعلم ما اقوم به من نسبة بعض الأشخاص لي وتكريمي لهم، لكنني لا اَرى منهم الوفاء ولا تتحقق نيتي، فما السبب في ذلك؟

فقال: يا اَمير المؤمنين ان من يتخذ الطيور الهوادي لارسال الكتب بها، اذا طلب الطيور سئل عن أُصولها وانسابها، وانت يا أمير المؤمنين تأخذ أقواماً من غير أُصول[٨].

وبإيجاز: فان لبعض الحيوانات القدرة على التعلم، وهي كالإنسان تأخذ عن المربي أو المدرب التعليمات التي يلقنها اياها مع مائز محدودية هذه القدرة ـ قدرة التعلم ـ لدى الحيوان وانحصار استعداده بأطر معينة، بيد ان الاستعداد الإنساني لتلقي العلوم والمعارف واستيعابها لا حدود له، ولهذا ترى اتساع ميدان نشاطه وانفتاح أبواب جديدة امامه كلما تطورت العلوم، واتجه نحو درجة أرقى من العلم، وشرع

---

(٨) مجموعة ورام٢: ٢٨٦.

بتحقيقات جديدة تؤدي به إلى السمو والكمال كلما تسلق مرتبة من العلم والمعرفة.

عجز الحيوان من التعليم

ان الميزة الخاصة بالإنسان دون الحيوان هي خلق الكلام وقدرة التعليم، وكما اشرنا قبل قليل فان باستطاعة الحيوان ان يتعلم بعض الأمور على نطاق محدود ومن ثم يبادر إلى ممارستها عند اللزوم، بيد انه لا يقدر على تعليم الغير على ما تمرس عليه ونقل معلوماته إلى الحيوانات الأخرى من ذات صنفه، ذلك ان الحيوان يفتقد إلى القدرة على خلق الكلام.

لقد ترك انتشار العلم وتوسع المراكز التعليمية بصمات واضحة على حياة الإنسان المعاصر من التقدم الكبير الذي احرزه في مختلف مجالات الحياة، وبلا ريب، فان أحد الاسباب المهمة والمؤثرّة إلى حد كبير في بسط الثقافة وانتشارها هو الدروس التي يمليها المعلمون في الفصول الدراسية على التلاميذ والطلبة بواسطة اللسان وعن طريق النطق والكلام.

ولكي نتدارس في هذا الفصل من الكتاب بعض جوانب الكلام، ومن أجل ان يطّلع القراء الكرام أكثر فأكثر على الأهمية التي تنطوي عليها حركة اللسان، اَرى من الضرورة التطرق باختصار إلى الاختلاف الأساسي بين التكوين الإنساني والتكوين الحيواني من زاوية الكلام معتمدين بذلك على المصادر الدينية والروايات الإسلامية الواردة، ومستفيدين من البحوث العلمية والتجريبية للعلماء، ليقدّر الإنسان هذه العطية الإلهية الكبيرة، ويؤدّي حقّها ببصيرة ووعي، ويقوم بمسؤوليته قولاً وعملاً، ويشكر بارئه على نعمة التكلم.

صوت الحيوان وتكلم الإنسان

يطلق الحيوان اَصواتاً من حنجرته ومن خلالها يُفهِمُ افرادَ نوعه أو صغاره بعض الدلالات التي تكشف عما يريد إيصاله والبوح به، الاّ ان هذه الاصوات التي

تعد بمثابة علائم واشارات تختلف عن الكلام من عدة جوانب:

أولاً: ان اصوات الحيوانات تنشأ عن الوراثة الطبيعية وتتأطر في نطاق الغرائز دون ان تتجاوز الحد المقرر، لكن نطق الانسان ينشأ عن الفكر، ولهذا ينطق بكل مقام مقال، ويوضح افكاره للآخرين باداء كلمات او جملات خاصة.

ثانياً: لكل نوع من الحيوانات صوته الخاص به، ولأنّ صوت الحيوان غريزي وطبيعي، فان نوع الصوت نفسه تطلقه في الماضي والحاضر والمستقبل، كذلك، فان المعنى الذي كانت تفهمه الأجيال الماضية من كل صوت، هو نفسه الذي ستدركه الأجيال القادمة من الصوت نفسه، بينما الانسان الذي يشكل بمجموع افراده نوعاً واحداً تمتلك كل فئة منه لغتها الخاصة بها وتتكلم بلسان الجماعة، لأنّ التكلم يؤدى اختيارياً وعلى اساس الفكر، وقد أختير لكل شيء اسماً وفق الحاجة يلفظ بنسق خاص تتقبّله الجماعة.

ثالثاً: يستطيع الحيوان البوح بما يريد من خلال اصوات عديدة مفطور عليها، وابلاغ صغاره أو مجموعة نوعه بقصده الباطني، وغير هذه الأصوات العديدة لا يمتلك أية وسيلة أخرى تنقل تعابيره ونواياه، وعلى هذا فان الحيوان المُدرَّب الذي تعلم بعض الأمور من مدربه لا يستطيع تعليم الآخرين ونقل ما جرى عليه تدريبه إلى صغاره أو آخرين من نوعه.

فالكلاب التي تعلمت بعض الحركات من مدربها، لا تقدر على تعليم صغارها أو صغار الكلاب الأخرى بما تعلمته.

والطيور التي تعلمت من مدربيها القيام بمهمة ساعي البريد، لا تستطيع ان تلقي الدروس التي تتقنها على بقية الطيور أو على صغارها.

والحيوانات ليست فقط عاجزة عن تعليم صغارها ما اخذته من دروس من مربيها، بل هي قاصرة أيضاً عن بيان الحوادث العسيرة التي تواجهها وتسبب لها نقصاً عضوياً.

فالكلب الذي يُكسر عظم رجله بسيارة مُسرعة اثناء عبوره الشارع لا

يستطيع ان ينقل هذه التجربة المريرة الى صغاره وينصحها بالحذر من عبور الشارع كي لا تصطدم بسيارة وتصاب بالعرج وتفقد بالتالي سلامتها.

الإنسان وقدرة التعليم

يستطيع الإنسان بالكلام من اظهار آرائه وافكاره الباطنية والإفصاح عما في داخله بلسانه واطلاع الآخرين عليه.

فهو يستطيع بيان حبه وبغضه المكتوم ومشاعره الرقيقة وعواطفه نظماً ونثراً، وتوضيحها للآخرين ، واعلام المستمعين بأسراره الخفية.

يستطيع أيضاً التحدث بآرائه السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والاعتقادية المستورة عن علم الآخرين وتعريفهم بها.

فمثلاً لو دخل السلك الدراسي واخذ عن معلّميه ومدرّسيه واَساتذته المعلومات الخاصة بالفرع الدراسي المنتخب، ثم تسلّق المراتب العلمية وتمكّن من هذا الفرع نسبياً، فإنّه سيقدر على اعادة تلك المعلومات على لسانه لو اختار لنفسه مهنة التدريس والتعليم، وتوضيحها لتلامذته، وباختصار: انه سيعلّم الطلاب كل ما تعلمه هو في فترة دراسته، ويسلك بهم طريق الفضيلة والكمال، وهذه الميزة تختص بالإنسان فقط، ولا تتوفر في أي حيوان هذه الفضيلة.

وقد استطاع علماء كل عصر ومن خلال الكلام (وهو الهبة الإلهية الخاصة بالبشر) من تقديم معلوماتهم القيّمة إلى طلابها الذين رفعهم العلم فيما بعد إلى مقام العلماء الاكفاء، فضلاً عن هذا، فقد ألّفوا الكتب بطريق القلم وهو الفرع الثاني لعطّية البيان وله من الأهمية ما للكلام، وادرجوا فيها نظرياتهم وآراءهم، لتصل إلى متناول الاجيال اللاحقة التي ستنتفع هي الأُخرى من علوم السابقين.

التقى المُفَضَّل بن عمرو وهو من اَصحاب الإمام الصادق عليه السلام، يوماً ببعض الماديين وقتئذ قرب قبر الرسول الاكرم(ص)، وسمع اقوالاً في نفي وجود الخالق تعالى، فاغتاظ بشدة ونقل للامام الصادق(ع) ما جرى وهو على هذه الحال،

فوعدهُ الإمام(ع) ان يشرح له بعض الآيات الإلهية في خلق العالم وكائناته، فسُرَّ المفضل، واخذ بكتابة ما يمليه عليه الإمام الصادق، وأطلق على مجموعها في كتب الروايات بتوحيد المُفضَّل.

وفي اَحد الدروس التي كان يلقيها عليه الإمام(ع) تطرق إلى نطق الإنسان وإلى جانب ذلك اَشار الى الكتابة وتحدث عن فوائدهما بإختصار، وقال(ع):

«تأمل يا مفضل ما اَنعم الله تقدّست اَسماؤه به على الإنسان من هذا النطق الذي يعبّر به عما في ضميره وما يخطر بقلبه ونتيجة فكره وبه يفهم عن غيره ما في نفسه ولولا ذلك كان بمنزلة البهائم المهملة التي لا تخبر عن نفسها بشيء ولا تفهم عن مخبر شيئاً وكذلك الكتابة التي بها تُقيَّد اَخبار الماضين للباقين واَخبار الباقين للآتين وبها تخلد الكتب في العلوم والأداب وغيرها»[٩] .

هناك تماثل بين الإنسان والقرد في التكوين الظاهري من جهات عديدة، بيد ان القرد لا يستطيع التفكير ولا يستطيع النطق، لان هاتين الميزتين تختصان بالإنسان دون غيره من المخلوقات ولا تتعلقان بالتشابه الظاهري، بل تنشآن عن التفوق الباطني والمواهب المعنوية التي وضعها الخالق الحكيم في التكوين الإنساني وسلبها عن القرد.

وقد وقف العالم المعاصر إلى حدٍ ما وبأثر تطور العلوم على التمايز الباطني بين الإنسان والحيوان، واكتشف العلماء بعض الأسرار الخفية، وتعرفوا على اوجه الأختلاف بين مخ الإنسان ومخ القرد، الا انه لا زالت هناك الكثير من القضايا المعقدة التي لم يتوصل إليها الإنسان حتى يومنا هذا، وبقيت مجهولة طي الكتمان، وللمزيد من الإطلاع ننقل فيما يلي فقرات قصيرة من بحوث العلماء التي وردت في بعض الكتب العلمية:

«اننا نفكر، نتكلم، نميّز الخير والشر، ونصنع أشياءً جديدة بفكرنا، لكن

---

(٩) بحار الانوار٣: ٨٢.

مخ القرد يفتقد لهذه الميزة، ولا يستطيع مثلنا تأدية الأعمال وفق المنطق.

اننا ـ وإلى الآن ـ لا نعلم اختلاف تركيب مخنا مع القرد كما هو مطلوب، ونجهل ان اربعة مليارات خلية اعصاب في مخ القرد لا تستطيع ان تؤدّي عمل اربعة عشر مليار خلية في مخ الانسان»[١٠].

«يعتقد ان تركيب الحنجرة وكل الجهاز الصوتي ملائم لتكلم لغة ملفوظة ومفهومة وليس هناك أي مانع ميكانيكي في اللسان عند القرد، وعلى هذا فلا بدّ ان تعود عدم قدرته على التكلم الى نقص مخي، ولكن لا يمكن على وجه الدقة تحديد مناطق التكلم التي يفتقد اليها مخ القرد او الأفعال التي تنطوي على نضج اقل من هذه الناحية»[١١].

الاختلاف المهم بين الإنسان والقرود الكبيرة هو الفرق في المخ. ويزن مخ الإنسان في المتوسط ١٣٠٠ غم عند الرجل و ١٢٠٠ غم عند المرأة، بينما يزن مخ الغوريلا الذي يمتلك مخاً أثقل بالنسبة لسائر أنواع القرود ٤٦٣ غراماً. واذا قارنا وزن المخ مع الوزن الكلي للجسم، فان هذا الاختلاف سيصبح أكثر وضوحاً، حيث ان وزن المخ في الإنسان يبلغ ٢٠/١٠٠٠ من وزن الجسم، وفي الغوريلا ٥/١٠٠٠ منه فقط.

وتبلغ مساحة التعرجات في مخ الانسان ٢٢٢٦٠٠ مليمتر مربع وفي القرود الكبيرة ٥٤٦٠٠ مليمتر مربع»[١٢].

«يقول برتراند راسل: ان للحيوانات اصواتاً عديدة تستخدمها للاشارة إلى شيء، الا ان أرقى اصول القرود التي لا ينقصها شيء من ناحية الأعضاء للنطق لم تستطع ان تتكلم حتى مع تدريبات قوية ومتواصلة، ويبدو

---

(١٠) الأصول العامة لعلم النفس: ٧٧.

(١١) كتاب الانسان (جان رستان): ١٥ و٢٦.

(١٢) (ن. م).

ان المخ الانساني المتطور هو ضرورة لقوة التكلم»[١٣].

التماثل الشديد بين القرد والإنسان من ناحية الشكل الظاهري والأجهزة الصوتية دفع بعض علماء النفس الى تربية قرد صغير من أُصول متطورة وطفل انسان في ظروف متساوية، للملاحظة ان كان بالامكان نطق صغير القرد مثلما هو عليه صغير الانسان، لكن النتيجة جاءت سلبية وفشلت التجربة.

«في عام ١٩٣٢ قام عالم نفس امريكي يسمى كلوك بهذه التجربة، ووفر ظروف متساوية لتربية صغيرة دونالد مع انثى شمبانزي تسمى گوا.

وكان عمر دونالد في بداية الاختبار عشرة أَشهر ونصف؛ وسن گوا سبعة أَشهر ونصف، وقد عاش الاثنان معاً مدة تسعة أَشهر، وكان صغير القرد في هذه الفترة حاله حال دونالد ينام على الفراش ويستحم ويرتدي الملابس ويأكل الطعام على المنضدة، وكانت گوا تمارس في الكثير من الاحيان ذات سلوك طفل الإنسان فتسر لرؤية صورتها في المرآة وتلعب الكرة، وتفرح عندما تضغط على ازرار الآلة الكاتبة، وتولد ضباباً بزفيرها على زجاج النافذة، وقد تعلمت گوا تناول الماء في القدح واستخدام الملعقة اسرع من دونالد، بالرغم من كل ذلك لم يكن لگوا صوت طفولي وطبيعي، ولم تتعلم حتى ابسط كلمات اللسان الحقيقي»[١٤].

في توحيد المفضل بن عمرو، اعتبر الإمام الصادق عليه السلام نطق الإنسان في مصاف عقله وذكائه، واستند في ذلك ـ في الحقيقة ـ على الميزة الباطنية والتكوين الداخلي، ولم يتطرق عليه السلام إلى تماثل الحنجرة.

والتركيب الصوتي بين الإنسان والقرد، لهذا قال(ع) بان الفوارق الظاهرية بين القرد والإنسان لم تكن تمنع القرد التحاقه بالانسان لو أعطي مثل ذهن الإنسان

---

(١٣) الامال الجديدة: ٣٢.

(١٤) كتاب الانسان: ٢٨.

وعقله ونطقه. لنتأمل ما قاله الإمام الصادق(ع) في هذا المجال:

«تأمّل خلق القرد وشَبَهَه بالإنسان في كثير من اعضائه أعني الرأس والوجه والمنكبين والصدر وكذلك احشاؤه شبيهة ايضاً باحشاء الانسان وخُصّ مع ذلك بالذهن والفطنة التي بها يفهم من سائسه ما يومئ اليه ويحكي كثيراً مما يرى الإنسان يفعله حتى انه يقرب من خلق الانسان وشمائله في التدبير في خلقه على ما هي عليه ان يكون عبرة للانسان في نفسه فيعلم انه من طينة البهائم وَسِنْخِها اذ كان يقرب من خلقها هذا القرب وانه لولا فضيلة فضّله الله بها في الذهن والعقل والنطق كان كبعض البهائم على ان في جسم القرد فصولاً أخرى يُفرق بينه وبين الإنسان كالخطم والذنب المسدَّل والشعر المجلل للجسم كله وهذا لم يكن مانعاً للقرد ان يُلحَقَ بالانسان لو أعطي مثل ذهن الإنسان وعقله ونطقه. والفصل الفاصل بينه وبين الانسان بالصِّحة هو النقص في العقل والذهن والنطق»[١٥].

وخلاصة الأمر: ان النطق هو من جملة العطايا الإلهية الكبيرة التي منحها للانسان وخصه بها.

«النطق الملفوظ والمفهوم وهو العامل الأساسي للتمييز بين الإنسان والقرد لا تجد له وجوداً في أي نوع من انواع القرود الكبيرة وهذا الامر لوحده يكفي لفصل وتمييز هاتين المجموعتين، لان النطق وسيلة ارتباط الأفراد وانتقال عاداتهم وتقاليدهم ويفصح عن افضل الإستعدادات الفكرية للنوع الإنساني. لا ريب في ان القرود الكبيرة تصدر للاتصال مع بعضها أصوات مختلفة لا تقل اهميتها في ارتباط القرود عن تغييرات الشكل والحركات الجسمية، وحتى انه تسمع منها في بعض الحالات الانفعالية اصوات خاصة تماماً، لكن هذه الأصوات مجرد اصوات تأثرية، وبعبارة أخرى نوع من التكلم الوراثي الكاذب الذي يؤدى دون تقليد الأخرين»[١٦].

---

(١٥) بحار الانوار٣: ٩٧.

(١٦) كتاب الانسان: ٢٠.

يلزم الانتباه هنا ان قدرة النطق، وبالرغم من كونها نعمة الهية عظيمة تختص بالانسان، ورغم ما تحتويه من فوائد جمة في سبيل السمو والتكامل الانساني من حيث نشر المعارف الدينية وتوسيع العلوم الطبيعية والنصائح الحكيمة والتحذيرات الأخوية وحاجات الحياة، فهي قد تصبح مصدراً للكثير من الأضرار المادية والمعنوية ومنشأ لمفاسد لا تصلح، من هنا يتوجب على كل امرءٍ ان يملك لسانه، ويأخذ جانب الصمت ما امكنه ذلك ولا يتفوه بحديث الّا عند الضرورة، وقد وردت بهذا الشأن روايات كثيرة عن الرسول(ص) وأئمّة الهدى(ع)، نثبت بعضها هنا بما يتلاءم وهذا البحث حول النطق والكلام.

قال عُقْبَةُ بنُ عامر: قلت يا رسول الله صلّى الله عليك ما النجاة؟

قال: «*املِك عليك لسانك*»[١٧].

وعن الإمام الباقر عليه السلام قال: «*ان هذا اللسان مفتاح كل خير وشر فينبغي للمؤمن ان يختم على لسانه كما يختم على ذهبه وفضته فان رسول الله صلّى الله عليه واله قال: رحم الله مؤمناً أمسك لسانه من كل شر فان ذلك صدقة منه على نفسه*»[١٨].

وعن الإمام علي عليه السلام: «*ما من شيء احق بطول السجن من اللسان*»[١٩].

وعنه عليه السلام: «*من سكت فسلم كمن تكلم فغنم*»[٢٠].

الكلام والصمت

لكلام الإنسان، ثمة نظرتان يجدر الاهتمام بهما:

---

(١٧) مجموعة ورام١: ١٠٤.

(١٨) تحف العقول: ٢٩٨.

(١٩) ميزان الحكمة٨: ٤٩٩.

(٢٠) الفهرس الموضوعي لغرر الحكم: ١٦٢.

الأولى: الجانب الطبيعي للكلام، وان قوة النطق من عوامل الرقي والتكامل الانساني.

الثانية: الجانب الأخلاقي، فإذا كان الكلام ذميماً مشوهاً بالخطيئة والاثم، فان السكوت سيكون وقاية من الأثم وطريقاً للفلاح والسعادة.

وعلى هذا، فإن الآحاديث الشريفة التي قرنت النطق والبيان بالأهمية ووضعته إلى جانب العقل فإنّما هي تريد بذلك قوة التكلم وخلق هذا العنصر الثمين في الإنسان، أمّا تلك المجموعة من الأحاديث التي اشارت إلى أهمية الصمت والسكوت واعتبرته من عوامل النجاة، فإنّما أرادت بذلك التربية الأخلاقية وصيانة اللسان من الرذيلة والخطيئة.

سُئل الإمام علي بن الحسين عليهما السلام عن الكلام والسكوت أيُّهما أفضل، فقال: «*لكل واحد منهما آفات فإذا سلما من الآفات فالكلام أفضل من السكوت. قيل كيف ذلك يابن رسول الله؟ قال: لان الله عزّ وجلّ ما بعث الأنبياء والأوصياء بالسكوت إنّما بعثهم بالكلام ولا استحقت الجنة بالسكوت ولا استوجب ولاية الله بالسكوت ولا تُوُقِّيَتِ النار بالسكوت إنّما ذلك كله بالكلام ما كنت لأعدل القمر بالشمس انك تصف فضل السكوت بالكلام ولست تصف فضل الكلام بالسكوت*»[٢١].

وبخلاصة: فإن الكلام هو رمز السمو والتكامل، ومن أسباب نشر العلم والثقافة، وقد خلق الله تعالى الانسان وخلق فيه قدرة النطق وجعل في تكوينه مستلزمات الكلام، والكلام هو الرابط بين بني البشر والحافظ لحياتهم الإجتماعية.. والكلام يردم الهوّة بين الأفراد ويحكم الأواصر بين بني الإنسان وبواسطة الكلام نطرح آرائنا ومفاهيمنا ونتحدث لبعضنا البعض عن حاجاتنا الباطنية ونؤدي دورنا الإنساني.

وفي ختام هذا البحث، من الضروري ان نشير الى ان اللسان ورغم كل آثاره الثمينة وفوائده القيّمة، يمكنه ان يولد ارباكات كبيرة ومفاسد لا تصلح.

فيستطيع اللسان مثلاً بالنميمة والفتنة ان يؤدي الى مصرع شخص بريء

---

(٢١) سفينة البحار (كلم): ٤٩٣.

وتشتيت أُسر عديدة، وبث الشقاق بين الآباء والابناء والامهات وبناتهن، ويمكن للّسان ان يحرف مجتمعاً عن مسيره ويسوقه إلى فساد الاخلاق والأعمال ويمهد لسقوطه وانهياره.

فعلى كل انسان تقع مسؤولية مراقبة لسانه، وتجنب الكلام الضار، وعليه ان لا ينسى لحظة ان اللسان قادر على جرّ صاحبه إلى البؤس والشقاء، والذهاب به إلى طريق الرذيلة والفساد الأخلاقي ليجعل منه عنصراً فاسداً منحطاً، ويلقي به في نهاية المطاف الى جهنم وبئس المصير.

كذلك، يلزم جميع الأشخاص مراقبة أنفسهم والحذر لدى الاصغاء للآخرين، وليعلموا ان الاستماع لأحاديث الفاسدين والعناصر الضالة قد يترك في المستمع أثراً سيئاً يحرفه عن صراط الحق والفضيلة، ويقوده إلى طريق الضلال والضياع، ليرحل بالتالي إلى الحياة الآخرة بالشرك والرذيلة.

وهناك الكثير من الروايات والأحاديث الشريفة الواردة تتعلق بالتحذير من اللذين اشرنا اليهما اعلاه، وفيما يلي نكتفي بحديثين شريفين عن الرسول(ص).

قال رجل لرسول الله:اوصني ، فقال:«*احفظ لسانك*» ، ثم قال يا رسول الله اوصني، فقال:«*احفظ لسانك*» ، ثم قال يا رسول الله أوصني، فقال:«*ويحك وهل يكب الناس على مناخرهم في النار الّا حصائد ألسنتهم*»[٢٢] .

هذه الرواية تعلن الخطر للجميع وتؤكّد لهم ان نتاج لسان الإنسان قد يؤدي إلى سقوطه وكبّه على منخريه في النار.

عن النبي صلّى الله عليه وآله:«*من أصغى إلى ناطق فقد عبده فان كان الناطق عن الله عزّ وجلّ فقد عبد الله,فان كان الناطق من ابليس فقد عبد ابليس*»[٢٣] .

---

(٢٢) بحار الانوار٧١: ٣٠٣.

(٢٣) عيون أخبار الرضا١: ٣٠٤.

هذه الرواية تحذّر الناس من الإصغاء إلى أحاديث المنحرفين الفاسدين، وتعتبر هذا النوع من الاستماع المُضِل بانه عبودية للشيطان، ومن يموت على غير عبادة الله لا يشمله يوم القيامة عفو الجبار وغفرانه.

الفصل الثاني

«إنَّ مِنَ الشعر حكمة وانَّ من البيان سحراً».

الرسول الأكرم (ص)

الخطيب ونفوذ الكلام

إنَّ قدرة التكلم في الإنسان هي ميزة طبيعية والهام تكويني وهبة الخالق العظيم للانسـان دون الحيوان، بيد ان الخطابة هي فن يكتسب ويؤخذ بالتعلم، يحث إليه الخطى اصحاب الذوق والاستعداد والرغبة لبلوغ مرحلة عليا من الأدب والبلاغة وارتقاء منابر الخطابة، فيتعلمون رموز هذا الفن ودقائقه، ويتمرسون عليه حتى يصبح فيهم ملكـة ذاتية يستطيعون التحدث إلى الجمهور دون تكلف وعناء، ويوضحون آراءهم وافكارهم له بسهولة تامة.

التكلم ـ وكما وضحنا ـ يسّره الخالق العالم بمشيئته الحكيمة في البناء الإنساني بتوفير وسائله وأسبابه، ووضع كل لوازمه بفطرة الانسان، وقد انتقلت هذه الهبة الإلهية القيّمة بواسطة الوراثة من الأجيال السابقة إلى اللاحقة وهكذا ستستمر، ولهذا يمتلك كل الأطفال بعد الولادة باستثناء عدد محدود جداً كل أعضاء التكلم، ولن تمض مدة حتى يبدأ الصغار بالنطق وإفهام الآخرين بما يُختزن في الباطن.

الناطق وفن الكلام

ثلاثة أمور تلعب دوراً على مستوى كبير من الأهمية والتأثير في نطق المتحدث:

أولاً: شخصيته ومكانته في اذهان الرأي العام، فكلما ازداد حب المجتمع للمتحدث ورغب اليه كلما اهتم الناس بحديثه وأعطوه أُذناً صاغية وكان كلامه أكثر وقعاً وتأثيراً.

ثانياً: موضوع البحث المعلن للمستمعين الذي يريد ان يتناوله المتحدث، حيث تزداد رغبتهم إلى الاستماع بالمقدار الذي يراه الجمهور المخاطب مهماً في معالجة قضاياهم الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية وأمثالها.

ثالثاً: مهارة المتحدث في كيفية القاء الخطاب وتشكيل الكلمات، فالناطق الماهر في التحدث يستطيع ان يُلقي بحثه بشكل جميل يستقطب اَلْبابَ مستمعيه ما استطاع.

فمهارة الإلقاء ليست اقل اهمية من مادة الحديث في بيان الموضوع اِن لم تكن اهم منها، ويحصل ان يوضح. شخص يفتقد لفن الكلام موضوعاً مهماً بشكل لا يترك أثراً يذكر على المستمعين، بل قد يفقد اهميته وقدره لديهم، والعكس صحيح أيضاً، فالمتحدث الماهر يستطيع تجميل كلامه بلطائف الفن وتصويره للمستمع بشكل يسحر لبَّه وينفذ إلى اعماق اعماقه.

عن النبي صلّى الله عليه وآله: «*ان من الشعر حكمة وان من البيان سحراً*»[1].

وعن الإمام علي عليه السلام: «*ربَّ كلامٍ انفذ من سهام*»[2].

لا يفوتنا ان نقول: ان تأثير الفن في إضفاء الجمال لا ينحصر في الخطابة وحسب، بل هو مبدأ أساسي في جميع الأعمال الفنية، والفنان المقتدر يستطيع باستخدام ذوقه الفني ان يترك بصمات جذابة ساحرة على عمله الفني، ويتمكن بلمسة صغيرة من ايجاد تحوّلٍ كبير فيه.

---

(١) تحف العقول: ٥٥.

(٢) غرر الحكم: ٤١٦.

فالرسام المقتدر الماهر في مجال عمله يضع بعض الرتوش على لوحة رسمها تلميذه ويجري عليها بذوقه الرفيع تغييرات طفيفة ويضفي عليها بلمساته الفنية جمالاً، فترتفع قيمتها في عيون المعجبين، وينجذب نحوها المشاهدون.

كذلك، شاعر ماهر كبير بليغ يُجري بعض التغييرات على قصيدة لأحد الشعراء المستجدين، ويُبدِّل بعض أبياتها، ويضع كلمات مكان أُخرى، فتتضاعف تبعاً لذلك قوة القصيدة ومتانتها بأثر هذه التعديلات.

الفرق بين العلم والفن

يمكن تعريف العلم: انه عبارة عن معرفة الحقائق المجهولة للأشياء ووعي عمق موضوعات وقضايا ذلك العلم في المجالات المعنوية والمادية.

والفن: عبارة عن تجسيد تلك الحقائق وتصويرها.

فالحقائق المكتشفة، تعد للخطباء المادة الأساسية للكلام، ومهارة الخطيب بمثابة الصورة التي تطبع بها تلك المادة، حيث يعوضها على المستمعين بشكل جميل فاتن.

وبملاحظة التقدم والتطور الذي يحرزه الإنسان في طريق السمو والتكامل ومعرفة الحقائق العلمية، ينبغي القول: ان الفن ايضاً هو في حالة تطور، وكلما اكتشفت كمية اكبر من المجهولات العلمية كلما اتسع نطاق الفن أيضاً في المجالات المختلفة.

المعرفة والتوعية

الواجب الأساسي الأوّل للخطيب هو: معرفة موضوع البحث الذي يبتغي طرحه في المجلس، أي: ان يعلم ماذا يريد ان يقوله، واية مواضيع يلقيها على المستمعين، وبأي نظم وترتيب.

ان معرفة الخطيب بمادة حديثه وشكل الإلقاء والأداء يمنح كلامه نظماً وترتيباً كما سنوضح فيما بعد، فلا يتشتت تبعاً لذلك ـ فكره ولا يفلت منه زمام حديثه، يبدأ

من حيث ما هو مطلوب ويتوغل في البحث بمقدار ما يقتضي البحث غير مبتعد عن هدفه ويختتمه حيثما استلزم ذلك.

ومن الأجدر بالخطيب ان يُعلِمَ الآخرين كما يعلم هو، ويطلع المستمعين في بداية كلامه على موضوع بحثه، مهما كان هذا الاعلان مقتضباً وقصيراً، فيقول الخطيب الاسلامي في مستهل كلامه مثلاً: يدور موضوع بحثي اليوم حول التوحيد في العبادة.

ومع الاختلاف في معنويات المستمعين واستعداداتهم لاستيعاب البحث، ينطوي هذا الاعلان على عدة فوائد: فالفئة المؤمنة الموحِّدة في العبادة تتهيأ للاصغاء لمعرفة ما اذا كان هناك تقصير في عبوديتها وتوحيدها لترفعه، والجماعة التي تحمل في ذهنها شيئاً عن التوحيد في العبادة دون ان تستوعب معناه تستعد للاستماع جيداً لتقف على هذا الأمر الاعتقادي المهم كما هو مطلوب، واذا وجد بين الحضار بعض المسلمين بالاسم فقط فانهم يعطون اذناً صاغية لفهم معنى التوحيد في العبادة والاطلاع على هذا الأمر المهم، ولو حوى المجلس على غير المسلمين فإن حب الاستطلاع يدفعهم لاستغلال هذه الفرصة لمعرفة ماذا يعنيه التوحيد في الإسلام.

وبخلاصة: يمكن القول ان الاعلان عن فحوى الحديث في بدايته يهيّء فكر المستمع للاصغاء ويوجه انتباهه للاستماع ليتابع الخطيب بدقة ورغبة.

وينبغي الالتفات إلى ان هذا الاعلان يحث المستمع على الاصغاء والمتابعة والاندماج مع الخطيب ما لم يخرج هذا الأخير عن موضوع حديثه وينطلق لتناول قضايا متفرقة أُخرى، لان المتحدث لو فرّط سلسلة كلامه وانحرف عن مسيره، فان المستمع هو الآخر سينفصل عنه ويترك المجلس خارجاً منه أو يترك متابعة الخطيب، ويستقل في باطنه عن المستمعين، وينطلق هو الآخر ليخوض في افكاره وتصوراته الباطنية.

اقناع المستمعين

الـواجب الأساسي الثاني للخطيب هو اقناع المستمعين، بمعنى أن يكون المتحـدث مقتدراً مسيطراً على الموضوع الذي يتناوله بالبحث ليستطيع من اقناع المستمعين بصحته وأصالته، ويجعلهم يسايرونه في الرأي والعقيدة، ويستلزم هذا الأمر المهم ان يعي الخطيب قيمته العلمية ويعرف حدّه، ويختار موضوع البحث بما يناسب كفاءته وقدرته.

الأدلّة العقلية والشرعية

قد تكـون المواضيع التي يبحثها الخطيب الاسلامي خالصة، كأن يريد ان يبحث في الردّ على نظريات الماديين ويبرهن على وجود الخالق، ففي مثل هذه الحالات يتيسر اقناع المستمعين بالادلة العقلية فقط، وفي الحالات التي يتناول فيها الخطيب الإسـلامي قضايا دينية بحتة يقتنع المستمعون المؤمنون بالآيات القرآنية الكريمة واحـاديث الرسول(ص) والأئمّة المعصومين عليهم السلام وفتاوى المجتهدين من العلماء، وقد تنطوي قضايا البحث على بعدين يمكن في اثباتها استخدام العقل وكذلك الكتاب والسنة، والبحث حول التوحيد في العبادة هو من هذا القبيل.

فمن الجـانب العقـلي، يستطيع القول: ان عبادة الصنم وخضوع الإنسان العـاقل لقطعة من الحجر أو الخشب الجماد عمل لا يقبله العقل والمنطق، ويرفضه العقل السليم الحر، وليس هناك من دليل على عبادة الأصنام الّا تقليداً أعمى للآباء الجهلة وانقياداً غبياً لتقاليد باطلة وجاهلية كانت تقوم بها الاقوام السالفة، والعقل لا يوافق هذا السلوك الاحمق.

ومن الجانب الشرعي، يمكنه القول: ان الله عز اسمه قد ذكر منزلة الانسان الشامخة في القرآن الكريم مرات عديدة واشار إلى قيمته السامية وقال تعالى في منتهى الصراحة ان الارض وما فيها قد خلقها لاجل الانسان:

﴿هُوَ الَّذي خَلَقَ لَكُمْ ما في الأَرْضِ جميعاً﴾[٣].

فإلى أي حد يسحق هذا الإنسان الذي رفعه الله وخلقه في احسن تكوين كرامته ويحط من انسانيته وبهين ذاته ويضع نفسه على شفير السقوط لو وقف امام عدة قطع من الحديد او الخشب او الحجارة عابداً لها خاشعاً امامها مضحياً لها ببنيه ومقدماً اياهم قرابين لها، يقول القرآن الكريم حول هذه الفئة:

﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بالله فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ اَوْ تَهْوي بِهِ الرّيحُ في مكانٍ سَحيقٍ﴾[٤].

وهكذا انسان هو احط وأسوأ عند الله من أي وحش كاسر أو حيوان على وجه البسيطة، لانه لم يستخدم عقله الذي وهبه الله اياه في تمييز الحق عن الباطل والصحيح من الخطأ، ويستمر بخطاه الباطلة بالسير في ظلمات الجهل.

بإيجاز: فان الأمر الأساسي الثاني الذي يجب توفره في الخطيب هو اقناع المستمعين، وينبغي بالخطيب الأسلامي ان يلقي بحثه على مسامع الحاضرين ويطرح استدلالاته عليهم بشكل يتقبله المستمعون دون ان يترك مجالاً للشك والترديد، فيأتي بالدليل العقلي إنْ كان موضوع البحث عقلياً، ويقدم الدليل الشرعي لو كان شرعياً، ويستدل بالاثنين معاً إن تطلّب ذلك كسوء عبادة الأصنام.

الترغيب

ثالث نقطة رئيسية يجدر بالخطيب ـ ومهما كان انتماؤه ـ ايلاؤها الاهمية المطلوبة، هي: ترغيب المستمعين بالواجبات التي عليه ان يلقي خطابه أو كلمته حولها، فمثلاً يدعو أمين عام حزب سياسي كبير في البلاد اعضاء حزبه للاجتماع والاستماع الى كلمته، فيلتئم هذا الاجتماع ويبلغ المجتمعين اولاً بهدف كلمته ويقول: لقد عقدنا

---

(٣) البقرة: ٢٩.

(٤) الحج: ٣١.

هذا الاجتماع من أجل طرح منهاج الحزب في المستقبل، ثم يبدأ كلمته ويقول: ان ما أريد أن استعرضه في هذه الكلمة للحاضرين اتخذ بعد مناقشات وتبادل بالآراء ومشاورات عديدة، ويقوم بتوضيح دلائل صحة آرائه ويقنع الحضور بلغة استدلالية محكمة، ثم يقول: ان تطبيق هذا المنهاج الذي تتوقف عليه سعادة البلد ونجاح الحزب يحتاج إلى سعي دؤوب وعمل متواصل، فينبغي بأعضاء الحزب شحذ هممهم وتشمير سواعدهم لبلوغ الهدف، ذلك ان تحقيق النجاح رهين سعي اعضاء الحزب، وبدونه يستحيل تحقيق النصر النهائي والفوز المطلوب للحزب.

الخطيب الاسلامي

الخطيب الإسلامي من جهته يُطلع المستمعين في بداية حديثه عن موضوع بحثه وهو: التوحيد في العبادة (مثلاً)، ثم يأتي بالأدلة العقلية والشرعية، ويقنع الحضّار بها، ويتطرق في كلامه إلى عبادة الهوى والشهوة والمال والمنصب والسلطة وغيرها من العبادات المماثلة ودورها في انحطاط الإنسان وسقوطه، وان التوحيد في العبادة هو الطريق الوحيد للخلاص من جميع هذه العبادات المذِلَّة، ولهذا بدأ الرسول الأكرم(ص) دعوته لانقاذ أُناس العصر الجاهلي، من التوحيد، وخاطبهم: قولوا لا إله إلاّ الله تفلحوا.

تفوهوا بكلمة التوحيد، وأعبدوه وحده، وأهجروا عبادة غيرهَ تعالى لتفلحوا وتنالوا السعادة الابدية والحرية الحقيقية التي تتلائم ومكانة الانسان.

فمن يتذوق عز العبودية لله ويقف على قيمتها الحقيقية لا يخضع بذل العبودية لغير الله ابداً، والذي يعرف ان الله المتعال هو مالكه الحقيقي لا يصبح على الاطلاق مملوكاً لغيره تعالى، وهذا الفخر بالدرجة الاولى للخاصّة والأَولياء الكبار، فالإمام علي عليه السلام يقول:

«*الهي كفى بي عزاً ان أكون لك عبداً وكفى بي فخراً ان تكون لي ربّاً*»[٥] .

ان بعث الرغبة والميل لدى المستمعين لاداء واجبات التوحيد والامتناع عن عبادة الهوى هو ليس أيسر من الاقناع العقلي والشرعي إن لم يكن أعسر منه، لان الإنسان يميل وبنحو طبيعي للاشباع المطلق لهوى النفس وإرضاء رغبات الشرك لديه، وينبغي بالخطيب الإسلامي ان يرجعه من هذا الطريق ويهديه في مسير التوحيد والطاعة المطلقة للباري تعالى، وهذا عمل تعترضه المشاكل والصعاب.

عن الإمام علي عليه السلام قال: «*واعلموا انه ما من طاعة الله شيء الّا يأتي في كره وما من معصية الله شيء الّا يأتي في شهوة*»[٦] .

ولكي يكون لترغيب الخطيب الإسلامي وقعه المؤثر، ويستحث المستمع لانتهاج طريق الحق، عليه أن يبذل سعيه في تعزيز الأسس الإيمانية في المستمع، وتقوية حس حب الله في ضميره، وبث الأمل فيه برضوان الله ورحمته الواسعة، فحب الله والرغبة بالسعادة الابدية يمكنها كبح جماح عبادة الهوى ليدب الضعف في حب الشهوات، وبالتالي يصان الانسان من اخطارها ومضارها.

وينصاع المؤمنون انصياعاً تاماً الى اوامر الحق بأثر من حب الله والرغبة إلى رضوانه تعالى، ويجاهدون في هذا السبيل ويضحون بأثمن ما عندهم لأجله.

ونظراً إلى ان طاعة الهوى والشهوات تجري وفق الرغبة القلبية والجاذبية الطبيعية، فلا ريب في صعوبة كبحها وقهقرتها، ولعل الرواية التالية تشير إلى هذا الأمر:

عن الإمام الصادق عليه السلام: «*ازالة الجبال اهون من ازالة قلب عن موضعه*»[٧] .

هناك الكثير من الخطباء والمتكلمين يستطيعون اقناع المستمعين ببعض

---

(٥) بحار الانوار٧٤: ٤٠٠.

(٦) نهج البلاغة: الخطبة ١٧٥.

(٧) تحف االعقول: ٣٥٨.

القضايا الاسلامية، الاّ انهم يعجزون عن حثهم وتحريكهم بالترغيب، فيتحدثون ـ مثلاً ـ عن ضرورة الدفاع عندما تتعرض دار الإسلام إلى هجوم أجنبي، ويقنعون الناس بالدليل على لزوم مواجهة العدو، لكنهم لا يقدرون على تطويع عُشر المستمعين الذين تتوفر فيهم الشروط المطلوبة لقتال العدو.

وفي مجال الزلازل والسيول ـ كمثال آخر ـ، يستطيع الخطيب ان يبين للمستمعين تفاصيل الحادث وتشريد مئات العوائل بعد تدمير منازلهم وضياع اموالهم، ويقنعهم بالمنطق الإنساني والإسلامي على ضرورة مدّ يد العون مباشرة، الا انه لا يستطيع ان يسخر نسبة واحد بالمائة من أموال الأثرياء لصالح المتضررين.

ومن الطبيعي ان يتفاوت الخطباء من ناحية النزاهة والتقوى والسوابق والشهرة ومعرفة الناس وتأثير الكلام ونفوذه وقابلية التجسيد وسائر مهارات وفنون الخطابة، ورغم ذلك فان من تتوفر فيه الشروط اكثر من غيره قدّ لا يستيطع ان يترك في الناس الأثر المطلوب ويدفعهم للسعي والعمل، وينبغي ان لا يكون هذا سبباً للنكوص واليأس وعاملاً للتراجع والتوقف عن اداء الواجب، بل عليه استخدام متون الآيات والأخبار لتحقيق نجاح اكبر وزيادة تأثير ونفوذ كلامه، فمثلاً يتحدث عن الرحمة الالهية الواسعة لتحفيز الناس على اعمال الخير ويستشهد بروايات تدور حولها.

عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «*من قبل الله منه حسنة واحدة لم يعذبه أبداً ودخل الجنة*»[٨].

هذه الرواية تبعث الأمل في المستمعين، ولكن ولكي لا يفسر الحديث خطأً، يجدر بالخطيب ان يقول مباشرة: ان الإمام الصادق عليه السلام تحدث في هذه الرواية عن قبول العمل، ومن أجل ان نفهم ما قاله الإمام حقاً، علينا ان نعلم: أي عمل ينال رضا الله تعالى، واي صاحب عمل يدخل الجنة ويصان من العذاب الإلهي لقيامه

(٨) مجموعة ورام٢: ٨٦.

بعمل الخير؟

شرط قبول العمل

جاء في الروايات الواردة عن الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام ان إلاخلاص في النية هو شرط قبول العمل عند الله تبارك وتعالى.

عن الإمام علي عليه السلام قال: «*عليك بالاخلاص فانه سبب قبول الاعمال*»[٩] وعنه عليه السلام: «*من لم يصحب الاخلاص عمله لم يقبل*»[١٠].

فالمفروض بالخطيب الإسلامي ان يتحدث عن الرحمة الإلهية الواسعة في بحث التوحيد لترغيب الناس بطاعة الأوامر الإلهية، ويذكر دلائل وشواهد مستقاة من الروايات التي تبشر برحمة الله ليبعث فيهم الأمل، وإلى جانب الأحاديث المُؤَمِّلة يسترعي انتباه المستمعين إلى أهمية خلوص النية كشرط أساسي لقبول العمل، ولكي يُشبع بحثه ويوصله إلى اذهان المستمعين بأفضل صورة، يتطرق بموازاة البحث في الاخلاص في النية إلى خطر الاعمال المشركة والعبادات التي يتخللها الرياء، ويقرأ على مسامعهم نص بعض الأحاديث الواردة، كي لا يغفل المستمعونوهم يأملون بالرحمة الإلهية اللامحدودة عن غضب الله وعذابه، والرواية التالية من جملة الاحاديث التي تناسب المقام:

عن الإمام الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام: ان رسول الله صلّى الله عليه وآله سُئل فيم النجاة غداً، فقال: «*انما النجاة في ان لا تخادعوا الله فيخدعكم ، فقيل له وكيف يخادع الله، قال: يعمل بما أمره ثم يريد به غيره فاتقوا الله واجتنبوا الرياء فانه شرك بالله، ان المرائي يُدعى يوم القيامة بأربعة أسماء يا كافر يا فاجر يا غادر يا خاسر حبط عملك وبطل أجرك*»[١١].

---

(٩) و(١٠) الفهرست الموضوعي لغرر الحكم: ٩٣.

(١١) امالي الصدوق: ٣٤٦.

تصور خاطىء

قد يتبـادر إلى ذهن سائـل: انه ليست هناك حاجة إلى الترغيب والتحفيز العاطفي طالما ان الخطيب الإسلامي يقيم البرهان ويقنع عقول المستمعين بالدليل القـاطع في بحث التوحيد أو غيرها من البحوث الدينية، لأن اقناع العقل يوضح الطريق الصحيح المؤدي إلى السعادة، والمستمع العاقل يسلك بنفسه هذا الطريق ويأخذ بعنان عواطفه ومشاعره نحو ذات الطريق، فيؤدّي ما عليه من واجبات ويعمل بالفرائض ويتجنب الآثام والخطايا.

هذا التصور خاطىء ويجافي الحقيقة، لأن الاهواء والميول وفضلاً عن انها لا تستسلم للعقل الذي ينظر إلى حقائق الأمور، فهي قد تتغلب في بعض الأحيان على قوة العقل لتصبح هذه الأخيرة أسيرة عاجزة في قبضة النفس الأمّارة.

عن الإمام علي عليه السلام قال: «*وكم من عقلٍ اسيرٍ تحت هوىً أميرٍ*»[١٢].

فالإنسـان يستـطيع الانتصار على عدوه الخارجي بالعقل والذكاء، وقتله في ميدان الحرب والتخلص منه والى الأبد، ولكن العدو الداخلي أي هوى النفس له من القوة والقدرة ما يستطيع معها ان يأسر العقل كما يقول الإمام علي عليه السلام.

العقل والشعور

العقل: هو الضوء الساطع الذي ينير درب الحياة، ويميز الصلاح عن الفساد والصراط المستقيم عن الطريق المعوج، ويصون الإنسان من الضلال والسقوط، لكن القوة التي تحرك المرء في هذا الدرب وتدفعه للنشاط في الشؤون المادية والمعنوية هي العواطف والمشاعر.

فلاثبات وجود الله استثمر الانبياء قوة العقل في الناس، واستخدموا العواطف والأحاسيس لأداء التكاليف الإلهية والقيام بالواجبات الدينية.

---

(١٢) نهج البلاغة: الكلمة ٢١١.

والحب في عالم الكائنات الحية من العواطف القوية والمؤثرة جداً، ويؤدى الجانب الأكبر من النشاطات في عالم الإنسان والحيوان بأثرٍ من جذب الحب. فالكائن الحي يدافع عن نفسه بقوة حب الذات، والأُم تربي طفلها وتتحمل الصعاب والمشاكل لحبها اياه، وحب المال والمنصب هو الذي يحرك سوق الدنيا ويبعث فيه الحيوية والحرارة.

وفي التعاليم السماوية، استثمر الأنبياء قوّة الحب لأداء الفرائض وترك المحرمات، فالحب أقام علاقات مستحكمة ومقدسة بين الخالق والمخلوق، ويؤدي المؤمنون القسط الأكبر من واجباتهم الدينية في ظل عاطفة الحب.

وتتجلى أهمية الحب بوضوح بمطالعة الروايات الواردة في كتب العامة والخاصة، وكنموذج لها نثبت هذين الحديثين هنا:

عن النبي صلّى الله عليه وآله: «*هل الدين الّا الحب والبغض في الله*»[١٣].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «*هل الدين الّا الحب*»[١٤].

يحب الإنسان الأب والأم والأخ والأخت والزوجة والأولاد والنفس والمال والبيت والحياة والكسب والعمل، بيد ان المسلم الحق يحب الله ورسوله ودينه الحق اكثر من حبه لما ذكرنا اعلاه، وهو على استعداد للتغاضي عنها وتقديم الواجبات الدينية عليها، وهو أمر لا بد منه، ذلك ان المسلم لو أحب شؤونه الدنيوية اكثر من الله ورسوله وجهاد في سبيله فلن يليق به العز بعد ذلك وعليه انتظار العقاب الدنيوي والأخروي، وعقابه الدنيوي هو تسلط الأجنبي والذل والضعة، والعقاب الأخروي يتمثل في العذاب الأهي، وهذا تحذير وانذار لجميع المسلمين في كل زمان ومكان، قال الله تعالى في كتابه المجيد:

﴿قُلْ إِنْ كانَ اباؤُكُمْ وَاَبْناؤُكُمْ وَاِخْوانُكُمْ وَاَزْواجُكُمْ وَعَشيرَتُكُمْ وَاَمْوالٌ

---

(١٣) تفسير الدر المنثور٢: ١٧.

(١٤) تفسير الصافي: ٨٧.

اقْتَرَفْتُمُوها وَتِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها وَمَساكِنُ تَرْضَوْنَها اَحَبَّ اِلَيْكُمْ مِنَ الله وَرَسُولِهِ وَجِهادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ والله لا يَهْدِي اَلْقَوْمَ الفاسِقِينَ»[١٥].

وبإيجاز: فان هوى النفس والغرائز الجامحة لا تستسلم للعقل والعلم، بل لا بد من كبح جماح الهوى والأحاسيس بإحساس اقوى، والإحساس الأقوى في مدرسة الأنبياء وفي ضمائر المؤمنين هو حب الله والأمل برحمته الواسعة والخوف من عذابه الدائم.

نستنتج: ان على الخطيب وفي المرحلة الأولى أن يعلن هدف بحثه للمستمعين ويعدهم للإصغاء الى المواضيع التي سيطرحها، وفي المرحلة الثانية أن يقنع المستمعين عقلياً وشرعياً ويكسب عن هذا الطريق ثقتهم بصحة أقواله وأصالتها، وفي المرحلة الثالثة ان يحثهم على التحرك والنشاط باستثارة عواطفهم ليحصل على النتيجة المطلوبة والمستهدفة.

وبديهي ان الموضوع الرئيسي في فن الخطابة هو الإقناع والترغيب، فالمستمع يصغي برغبة اشد الى كلام الخطيب اذا ما اعلن عن هدف البحث في الوقت المناسب.

وينبغي بالخطيب لاقناع مستمعيه ان يكون على اطلاع واسع بالدلائل العقلية والدينية لموضوع البحث ليستطيع من التأثير في المستمع وكسب ثقته واعتقاده باقواله.

ولترغيب الناس، عليه ان يطعّم حديثه بالروايات ـ كما اسلفنا ـ ويستثمر حب الناس للرسول (ص) والأئمة(ع)، بالاضافة لذلك عليه أن يُلمَّ بعض الشيء بعلم النفس ليستطيع إثارة عواطف المستمعين.

---

(١٥) التوبة: ٢٤.

الفصل الثالث

«إيّاكَ والكلامَ فيما لا تَعرفُ طريقتهُ ولا تَعلمُ حقيقته».

الامام علي(ع)

الخطابَة والبصيرة

على كل خطيب ان يكـون بصـيراً بالحقل الذي يريد أن يتناوله، ليصغي المستمعـون إلى خطابه بدقة ويتلقوه بقبول حسن على أساس الصلاحية العلمية والكفاءة المعرفية.

وينبغي بالخطيب الإسلامي أيضاً ان يعرف الدين في حدود مستواه، ويستوعب موضوع بحثه استيعاباً جيداً ليستطيع افهام مستمعه.

واما مَنْ لم يهضم موضوع بحثه ولا تصل معلوماته حوله الحد المطلوب، فلا يقدر من إدخاله في ذهن المستمع.

قال الله تعالى في القرآن المجيد مخاطباً بهذا الموضوع رسول الاسلام(ص) وأتباعه المخلصين:

﴿قُلْ هذه سَبيلي اَدْعُوا الى الله عَلى بَصيرَةٍ أنا وَمَنِ اتَّبَعَني﴾[1].

يعتبر الكلام عن علم وبصيرة في الدين الإسلامي المبين والسكوت عن المبهم

---

(١) يوسف: ١٠٨.

والمجهول،حقاً من حقوق الله على العباد.

عن زرارة بن أعين قال:«*سئلت أبا جعفر عليه السلام: ما حق الله على العباد، قال: ان يقولوا ما يعلمون ويقفوا عند ما لا يعلمون*»[٢] .

وقال عز من قائل:

﴿ولا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ اِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ والْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْئولاً﴾[٣].

وفي العلل عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام قال:«*ليس لك ان تتكلم بما شئت لان رسول الله صلّى الله عليه وآله قال: رَحِمَ الله عَبْداً قال خيراً فغنم او صَمَتَ فسلم*»[٤] .

وعن الإمام علي عليه السلام قال:«*إيّاك والكلام فيما لا تعرف طريقته ولا تعلم حقيقته فان قولك يدل على عقلك وعبارتك تُنبيءُ عن معرفتك*»[٥] .

وعنه عليه السلام:«*دع القول فيما لا تعرف*»[٦] .

الكلام دون علم

الخطيب الذي يتناول موضوعاً على منبر الخطابة تنقصه فيه المعرفة والمعلومات الكافية، فانه يلحق ضرراً بكلامه وشخصيته، ويضع نفسه موضع المجابهة للأعراض السلبية التي تنجم عن ذلك، وإحدى النتائج الضارة للحديث بلا علم هي تضاؤل أهمية المتحدث ووزنه واستصغار شأنه.

عن الإمام علي عليه السلام:«*تكلموا تعرفوا فان المرء مخبوء تحت لسانه*»[٧] .

---

(٢) ميزان الحكمة٥: ١٤.

(٣) الاسراء: ٣٦.

(٤) تفسير الصافي: ٣١٥.

(٥) غرر الحكم: ١٥٨.

(٦) فهرست الغرر: ٣٣٣.

(٧) نهج البلاغة: الكلمة ٣٩٢.

ومن الأعراض السيئة الأُخرى لهذه الحالة هي الإشارة الى الخطيب بأصابع الاتهام. فإذا تطرق المتحدث الى عدة مواضيع معظمها على أَساس علمي الاّ واحد منها، فان هذا الأخير قد يشكك المستمعين في كل ما تناوله الخطيب ويتهم بالجهل.

قال الإمام علي عليه السلام: «*لا تقل ما لا تعلم فتُتهم باخبارك بما تعلم*»[٨].

الكلمة الإرتجالية

الخطاب المفتقر للعلمية والمعرفة قد يلقى بصورتين: اما أن يتناول الخطيب موضوعاً للبحث ليس أهلاً له، أو أن يكون اهلاً له، لكنما يفترض به أن يراجع مصادر معلوماته ويطالع مراجعه للاستعداد له، والاّ فانه سيلقي كلمته دون علم.

فالخطاب الإرتجالي: هو ذلك الخطاب الذي يلقيه من هو كفوء به، ويضطر لالقاءه في ظروف خاصة دون ان يتهيأ له.

والرضوخ لإلقاء خطاب اِرتجالي لا يليق الاّ بمن يمتلك خزين فكري كبير فضلاً عن التجارب العملية الكثيرة.. والخطاب الإرتجالي جدير فقط بمن أودع ذاكرته ثراءً فكرياً، فيستطيع في لحظات معدودة من اختيار ما يراه مناسباً من ذاكرته وتنظيمه بما يلائم المجلس ليلقيه على مسامع الحضّار، اما الذي لا يختزن في ذاكرته ما يكفيه ويفتقد السيطرة على الخطابة، فيفترض به ان يمتنع عن الإلقاء الإرتجالي باي وجه من الوجوه، لان الاذعان لمثل هذا الطلب سيوصمه بالعار ويؤدي به إلى الذل والحقارة، وهو يهدف من وراءه الوقوف امام الأضواء وابراز الكفاءة.

عن الإمام العسكري أبي محمد الحسن بن علي عليهما السلام قال: «*ما أقبح بالمؤمن ان تكون له رغبة تُذلّه*»[٩].

---

(٨) غرر الحكم: ٨٢٨.

(٩) تحف العقول: ٤٨٩.

الحديث المتناسب ومستوى المستمع

إلى جانب مراعاة الناحية العلمية في كلمة الخطيب والقائها عن وعي وبصيرة، ينبغي به أيضاً ان يولي الأهمية القصوى في مراعاة مستوى ادراك المستمعين والتحدث بما يلائمهم، لأن الهدف من الخطاب الديني هو إرشاد الناس وهدايتهم الى الطريق الحق ودعوتهم للايمان والاعتقاد بالتعاليم الالهية، وان الأقلية من الجمهور هي التي خاضت غمار العلم والدرس وبلغت مستويات عليا فيه، والغالبية المتبقية يعوزها العلم أو انها قد أمسكت ببداياته فقط.

ولبلوغ الهدف المذكور، على الخطيب ان يأخذ بنظر الإعتبار ما يلي:

أولاً: اختيار مادة البحث بما تتلائم وشأن المجلس ومستوى الحاضرين، وإن لم يراع الخطيب هذه النقطة، فاما ان يظلم مادة البحث او المستمعين.

عن الإمام الصادق أبي عبدالله عليه السلام قال: «*قام عيسى بن مريم خطيباً في بني اسرائيل فقال يا بني اسرائيل لا تُحدّثوا الجهال الحكمة فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم*»[١٠].

ثانياً لا تعني ضرورة معرفة الخطيب الديني وعلمه بموضوع البحث ان يطلق لنفسه العنان بان يتكلم في كل مجلس وامام أي مستمع كل ما يعلمه وتعلمه عن الموضوع، ويضع في متناول المستمعين جميع معلوماته، لان هذا ينافي البلاغة وتقدير الموقف من جهة وقد يؤدي في بعض الحالات إلى الضرر من جهة أُخرى.

فعلى الخطيب ان يزن قبل ان يبدأ بحديثه المستوى العقلي للمستمعين وقوة الإدراك والمرتبة الثقافية والإستيعاب المعنوي والإستعداد الفكري وقدرة التعلم وأُسلوب التفكير ودرجة الصلاحية والكفاءة، ويطرح موضوعه بمراعاة استعداداتهم، لا أن يضع مستواه العلمي معياراً ويتفوّه بما يعلمه، وقد أشار الأئمة الكرام الى هذا المضمون.

---

(١٠) امالي الصدوق: ٢٥٣.

عن الإمام علي عليه السلام«*لا تقل ما لا تعلم بل لا تقل كل ما تعلم*»[١١] .

وعنه عليه السلام:«*ينبغي ان يكون علم الرجل زائداً على نطقه وعقله غالباً على لسانه*»[١٢] .

إنَّ النطق والتحدث بمستوى فهم المستمعين هو على درجة كبيرة من الأهمية بحيث اقترنت مهمة الأنبياء في تبليغ الدين الإلهي بمراعاة هذا الواجب الرئيسي.

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله:«*انا معاشر الأنبياء أُمرنا أن نكلّم النَّاس على قدر عقولهم*»[١٣] .

و: «*ما كلّم رسول الله صلّى الله عليه وآله العباد بكنه عقله*»[١٤] .

فقد كان سلمان وأبو ذر رجلين مؤمنين وصحابيين جليلين، وكان رسول الله(ص) يكن للاثنين حباً وودّاً لكن قوة الإدراك وقدرة الفهم لديهما كانت متفاوتة ومختلفة بحيث جاء في الحديث:

عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال:«*ذُكر التقيّة يوماً عند علي بن الحسين عليهما السلام فقال: والله لو علم أبو ذر ما في قلب سلمان لقتله*»[١٥] .

وكان رسول الله صلّى الله عليه وآله وأمير المؤمنين صلوات الله عليه يحدثان سلمان ما لا يتحمله غيره من مخزون علم الله ومكنونه[١٦].

ولتوضيح الفارق في فهم المستمعين وكيفية اقناعهم وترغيبهم، يمكن ان نأخذ على سبيل المثال مجلساً يحضره الف مسلم للإصغاء إلى موضوع معلن مسبقاً يتناول حياة الإنسان بعد الموت، المستوى العلمي لمعظمهم لا يتعدى المرحلة الابتدائية وخمسة بالمائة فقط منهم في المرحلة المتوسطة، وخمسة عشر بالمائة أميين لا يعرفون شيئاً.

---

(١١) نهج البلاغة: الكلمة ٣٨٢.

(١٢) غرر الحكم: ٨٧٦.

(١٣) و(١٤) الكافي٨: ٢٦٨.

(١٥) و(١٦) سفينة البحار١: ٦٤٦.

الخطيب في هذا المجلس يريد ان يخاطب المستمعين بأن الحياة لا تنتهي بعد الموت بل تبدأ حياة جديدة، وعلى الإنسان أن يقضي دنياه بالعمل الصالح وحب الخير ليتنعّم بالسعادة بعد الموت.

قد يلج الخطيب في هذا التجمع بحثاً فلسفياً، متجاهلاً في ذلك مقتضى المجلس ومتطلباته، ويتحدث عن تجرد النفس ومعناه دون مراعاة مستوى ادراك المستمعين ويورد بعض الأدلة العلمية للفلاسفة حول تجرد النفس وبقائها بعد موت الجسم لاقناع عقول الحاضرين، وأخيراً يحفز المستمعين على القيام بالواجبات الدينية واداء الفرائض الإسلامية، ويذكّر بان الرحمة الإلهية في القيامة ستسع من يطع امر الله في هذه الدنيا ويخلد في الجنة متنعماً، وسيمطره العذاب الإلهي ويستقر في جهنم من يعص الله ويتمرد على أوامره.

من الواضح، ان بحث تجرد النفس وبيان ادلة الفلاسفة في هذا المجلس ليس في مستوى فهم المستمعين، وحديث من هذا القبيل وفضلاً عن انتفاء نفعه في حث المستمعين للايمان بعالم بعد الموت، فهو تضييع لعمر الخطيب والمستمعين ويؤدي إلى ملل وارهاق الحاضرين، بحيث تنتهي طاقة تحمّل البعض وينسلّون واحداً تلو الآخر من المجلس ليعربوا عن عدم رضاهم عن الخطيب.

واذا أطلع الخطيب الإسلامي في هكذا مجلس مستمعيه في بداية كلامه على هدف البحث، ثم قال لهم: ان الدين الإسلامي لا يرى في موت الانسان نهاية له، بل ان الموت ينقل الانسان من عالم الى آخر، وأورد الحديث التالي المروي عن الإمام علي عليه السلام ليقنع المستمعين ويحفزهم:

«ايها الناس إنا خُلقنا واياكم للبقاء لا للفناء ولكنكم من دار إلى دار تُنقلون فتزوَّدوا لما انتم صائرون اليه وخالدون فيه»[١٧].

وبعدها قام الخطيب بشرح الرواية شرحاً مفهوماً وافياً، اذا فعل كل ذلك

---

(١٧) امالي الشيخ الطوسي١: ٢٢٠.

وتجاوز مراحل خطبته. بهذا الاسلوب البسيط فانه سيترك أثراً مفيداً في المستمعين لأن الأحاديث المروية عن الامام علي عليه السلام شأنها شأن كلام الله والرسول تبعث على الإطمئنان ويمكن للجميع فهمها.

القسم الأوّل من الحديث يقنع المستمع بان الموت للإنسان لا يعني نهايته بل هو انتقال من عالم لآخر، والقسم الثاني يحفز المستمع على القيام بالأعمال الصالحة وأداء الواجبات الدينية للتزود لعالم ما بعد الموت.

ونظير الحديث المذكور، هناك حديث مروي عن الإمام الحسن بن علي عليه السلام، وهو يقنع المؤمنين بحياة ما بعد الموت من ناحية، ويدفعهم للتزود للآخرة من ناحية أُخرى:

«يا بن آدم انك لم تزل في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أُمك فخذ مما في يديك لما بين يديك فان المؤمن يتزود والكافر يتمتع»[١٨] .

يتحدث الإمام عليه السلام في هذا الحديث وبعبارة قصيرة [فخذ مما في يديك لما بين يديك] لانصاره واصحابه عن العالم الذي ينتظرهم أي عالم بعد الموت ويقنعهم به ويحثهم على العمل الصالح وهو زاد العالم الآخر.

---

(١٨) بحار الانوار٧٥: ١١٢.

الفصل الرابع

«من أصعَد الى الله خالص
عبادتِه أهبط الله عزّ وجلّ له
أفضل مصلحته».
فاطمة الزهراء(ع)

تقوى الخطيب وإخلاصه

لا شك في ان مراعاة فن الخطابة واستخدام دقائقه ورموزه يضفي على كلام الخطيب رونقاً وجمالاً، ويوطد من أواصر جاذبية كلامه، ويتغلغل الى ضمائر المستمعين، ويترك آثاراً في أعماق وجودهم، بيد ان الأهم من فن إلالقاء هو تقوى المتكلم وانسجام اقواله وافعاله.

اننا نعلم ان العناصر المكونة لحديث الخطيب الإسلامي هي التعاليم الالهية والاحكام الإسلامية، ولم يأت الدين الحق للناس كي يتناوله الخطباء في مجالسهم ويعمل العامة فقط باحكامه ومقرزاته، بل ان دين الله هو منهاج عمل لرسول الله(ص) والأئمّة المعصومين عليهم السلام وتطبيق مفرداته واجب على جميع العلماء والخطباء والشرائح العريضة للمسلمين، وعلى هذا فان الخطيب الإسلامي هو واحد من جمهور المسلمين قبل ان يكون متكلماً اسلامياً، والمسلم الحقيقي هو الذي يطبق الأوامر الإلهية دون نقاش ويتجنب نواهيه ويطيع الذات الإلهية المقدسة طاعة تامة.

والخطيب الإسلامي المتقي الصالح في جميع الاحوال، العامل بما يدعو الناس

للعمـل به، المتجنب لما ينهى عنـه، تترك كلماته أثراً كبيراً بين المؤمنين، وينظر اليه المسلمون الحقيقيون نظرة احترام وتقدير ويطبقون نصائحه عن طيب خاطر ويطيعوه بصـدق، واذا عانى الضعف في فن الخطابة والكلام فان نقاءه وتقواه تعوّض عن ضعفهِ، وصلاحُه واخلاصُه في العمل يفرض نفوذَ كلامه، اما اذا انعكس الأمر، وكان الخطيب يجيد فن الكلام لكنه لا يعمل كما هو مفروض به ان يعمل بأقواله وهي تعاليم الهية، فانه لا يملك مكانة واحتراماً في المجتمع الإسلامي ولا يترك كلامهُ أثراً عميقاً في نفوس الناس، وهذا لا يختص بالخطباء دون الآخرين، بل على جميع المسلمين مراعاة التطابق بين القول والعمل.

حضـر رجل يوماً عند الإمام علي عليه السلام وطلب منه الموعظة، فوعظه الإمام(ع) ببعض ما عليه ان يجتنبه من أمور، ومنها انه نصحه ان لا يكون ممن:

«ينهى ولا ينتهي،ويأمر بما لا يأتي،يحب الصالحين ولا يعمل عملهم،ويبغض المذنبين وهو أحدهم»[١] .

وقد أوصى ائمة اهل البيت عليهم السلام كل من يدعو الى حب اهل البيت والخير والصلاح إلى التمسك بالسلوك الصحيح والأفعال الصالحة، ونهوا عن الدعوة إليهم بالقول دون الفعل، وفيما يلي نذكر بعض الروايات الواردة بهذا الشأن:

عن الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال:*«رحم الله قوماً كانوا سراجاً ومناراً كانوا دعاةً الينا بأعمالهم ومجهود طاقاتهم»*[٢] .

وعن الإمام علي عليه السلام قال:*«عَلّموا النَّاس الخير بِغَيْرِ أَلْسنَتِكُمْ وَكُونُوا دُعَاةً لَهُمْ بِفْعلِكُمْ والْزِمُوا الصِدْقَ وَالْوَرَع»*[٣] .

يرتقي أحـد الـوعـاظ المنبر وأسنانه يعلوها الوسخ ولم تمر عليها الفرشاة، فيتحدث عن الفوائد الصحية والدينية لغسل الأسنان والسواك، ويستشهد بالحديث

---

(١) سفينة البحار٢: وعظ: ٦٧١.

(٢) تحف العقول: ٣٠١.

(٣) تاريخ اليعقوبي: ١٥٢.

التالي ليبين أهميته للمستمعين: «*قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: لولا ان أشقّ على أُمّتي لأمرتهم بالسواك*»[٤]

ولدى حديثه يحرك الخطيب شفتيه فتنكشف أسنانه للمستمعين، فيتبسمون علامة على استهزاءهم بكلام الخطيب لعدم انسجام القول والعمل.

ولم يكن الخطيب بحاجة إلى الاستشهاد بحديث لتحفيز الناس على السواك لو كانت أسنانه نظيفة تتلألأ من بين شفتيه، فالأسنان الناصعة للخطيب هي افضل محفز للمستمع حول السواك وتنظيف الاسنان.

أسلوب الرسول(ص)

من أسباب تقدم الإسلام وانتشاره في صفوف الناس هو الجانب العملي في حياة الرسول صلّى الله عليه وآله والذي كان يتفق وما يدعو اليه، فكان(ص) ينفذ من احكام الدين ما يبلغ به الناس قبل الآخرين، وهذا ما يرفع من ثقة الناس واطمئنانهم ويعزز روابطهم مع الدين الحق.

وكانت علاقة الرسول الأكرم مع المسلمين تتماسك على أساس الحرية، فيلتقي المسلمون بقائدهم دون ادنى شعور بالخوف والرهبة ويتحدثون اليه بحرية، فيسألونه ويتحدثون عما يجول في خاطرهم، وينتقدون بكمال الحرية ويتكلمون بكل صراحة اذا شاهدوا أدنى تفاوت بين قول الرسول(ص) وعمله، أمّا لماذا لم ينقل التاريخ الينا نقد كهذا، فلأنهم لم يلحظوا عليه(ص) أي تخلف وإختلاف بين ما يقول وما يفعل.

والإمام علي عليه السلام يقول وهو كبير تلامذة القرآن الكريم وربيب الرسول(ص) حول انسجام القول والعمل:

«*أيّها الناس والله ما أحثّكم على طاعة الّا وأسبقكم إليها ولا أنهاكم عن معصية الّا وأتناهى قبلكم عنها*»[٥].

---

(٤) سفينة البحار: سوك: ٦٧٤.

(٥) نهج البلاغة: الخطبة ١٧٥.

وعن الإمام علي عليه السلام أيضاً، قال: «*كفى بالمرء غواية ان يأمر الناس بما لا يأتمر به وينهاهم عما لا ينتهي عنه*»[٦].

وعنه عليه السلام قال: «*أحسن المقال ما صدّقه حسن الفعال*[٧]».

وقد جاءت في المصادر الروائية الكثير من هذه الروايات الواردة عن الأئمة عليهم السلام، وهي تشمل جميع العلماء والخطباء والرؤساء ومسؤولي المدارس وكل من يأمر الآخرين وينهاهم، الّا ان المسؤولية الأكبر بهذا الشأن تقع على عاتق الخطباء والمتكلمين الإسلاميين، لانهم في مواجهة مستمرة مع الناس وجهاً لوجه، وعليهم وفقاً لمسؤولياتهم ابلاغ الناس بالتعاليم الدينية وهي مسؤولية تتطلب الأمر والنهي.

فعلى هذه الشريحة ان تراقب أقوالها بدقة وتعمل بما تأمر به وتتنزه عما تنهى عنه، وحينئذ ستستطيع من الحفاظ على نفوذها الديني وعزها الاجتماعي وتتبوأ مقعد الخطابة الإسلامي عن جدارة.

التخلف اللاشعوري

قبل عشرات السنين حينما لم تكن أنابيب مياه الشرب قد مُدّت الى مساكن طهران، كان يوضع في كل منزل خزّان يُملأ بالمياه ويُحتفظ به عند الحاجة. وكانت مياه الشرب في المحلات والمناطق المختلفة تمر في قنوات صغيرة مكشوفة للمارة، وقد شوهد كراراً أنْ قامت بعض النسوة بغسل الملابس القذرة وحتى حفاظات الاطفال الملوثة في هذه القنوات ليجرف الماء الجاري معه فقاعات الصابون ومخلفات الغسيل.

وكان هناك واعظ متعلمٌ عالمٌ رحل عن هذه الدنيا قبل عدة سنوات، أعرفه جيداً وأعرف أخلاقه وسلوكه حيث ما كان يوصي الناس بشيء الّا عمله، وكان حساساً جداً ازاء تصرفات بعض النساء الجاهلات ويعتصر ألماً منها ويذكّر بها في خطبه

---

(٦) فهرست الغرر: ٤٠٨.

(٧) غرر الحكم: ٥٦٠.

ومواعظه. يوماً زارني هذا الواعظ القدير في منزلي، وقال: دعيت ذات مرة إلى مجلس كان يعقـد عصراً في أحد الشوارع الفرعية وكانت توصف من المناطق الراقية في طهران، ومن ميزاتها انه كانت تمر عبر طرفي شارعها الرئيسي قناتان يجري فيهما الماء بإستمرار، وأضاف: رأيت وأنا أتجه نحو المجلس المذكور ذات يوم امرأة تغسل الملابس في قنـاة تلك المنطقة فحز هذا المشهد المؤلم واحتبسته في نفسي، فلما أرتقيت المنبر وألقيت خطبتي حثني إحساس داخلي لاقدم بعض النصائح حول غسل الملابس في مياه القنوات، فقصصت على الحاضرين وكانوا كُثراً ما صادفت في طريقي، ثم قلت: قولـوا لهم ليكن لديكم بعض الإنصاف، لا تلوثوا مياه الشرب، ولا تجعلوا الناس تتناول ماءً وسخاً وتعرضوا سلامتهم للخطر، فلا تغسلوا بعدّ هذا الملابس الوسخة بمياه القنوات.

أنهيت خطبتي ونزلت عن المنبر، وفي الطريق صافحني الكثير، فقفلت راجعاً طاوياً الشوارع الفرعية والأزقة حتى وصلت إلى الشارع الرئيسي وقد سبقني اليه مجموعة من المستمعين فيما سبقت مجموعة أُخرى.

جلست في الشارع جنب القناة لأغسل يدي، واذا بأحد المستمعين يقف فوق رأسي ويكـرّر كلماتي التي ألقيتهـا في المجلس قبـل قليل وبصوت عال ليسمعها الخارجون من المجلس، وقال: ليكن لديك بعض الإنصاف، لا تغسل يديك الوسختين في القناة ولا تلوّث مياه الشرب ولا تجعل الناس تتناول ماءً وسخاً وتعرّض سلامتهم للخطر.

ثم أردف هذا الواعظ القدير قائلاً: لم أكن أعلم قبل ان أستمع الى ما قاله هذا الشخص ان غسل الأيدي في المياه الجارية يؤدي الى تلويثها، وقد ارتكبت هذا الخطأ لا شعورياً، فقد استرعت اقواله انتباه الناس الذين كانوا ينظرون الي نظرات إبتسام ممزوجة بالسخرية، فاستحييت مما فعلت وتثاقلت في قيامي من جنب النهر لحراجة الموقف امام الجمهور. وأخيراً تحاملت على نفسي ونهضت لأنقل إلى المستمعين في اليوم التالي ما جرى واوضح لهم ملابسات ذلك.

وبخلاصة فان الناس تنتظر من أصحاب الأمر والنهي بشكل عام ومن الخطباء الإسلاميين بنحو خاص الإلتزام العملي بما يتفوهون به، وتطبيق الأوامر الصادرة عنهم، اما اذا تجاهلوا هذا الموقف الجماعي ولم يعملوا بالمطلوب، فانهم وفضلاً عن هبوط مكانتهم وتوفر أرضية وضاعتهم، فانهم سيُعتبرون عناصر فاسدة متخلفة عديمة الشعور بالمسؤولية.

ان تأثير كلام الخطيب هو من اكبر علائم شخصيته عند الرأي العام، ويفقد الخطيب الإسلامي نفوذ كلامه ولا يرتب الجمهور أثراً على أوامره ونواهيه ولا تلقى أقواله أُذناً صاغية اذا لم يعمل بما يأمر ولم ينفذ الأوامر الإلهية والتعاليم الدينية.

عن الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: *«ان العالم اذا لم يعمل بعلمه زلّت موعظته عن القلوب كما يزل المطر عن الصفاة»*[٨].

وعن النبي صلّى الله عليه وآله: *«مثل الذي يعلّم الخير ولا يعمل به مثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه»*[٩].

والأعظم من مصائب الدنيا للعالم والخطيب غير العامل هي المصائب التي يلقاها في الآخرة، وقد أخبر عنها رسول الله صلى الله عليه وآله لأبي ذر، قال(ص): *«يا أبا ذر يطّلع قوم من أهل الجنة الى قوم من أهل النار ويقولون ما أدخلكم النار وانما دخلنا الجنة بفضل تعليمكم وتأديبكم، فيقولون انا كنّا نأمركم بالخير ولا نفعله»*[١٠].

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: *«قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: ان اشد الناس ندامة وحسرة رجل دعا عبداً إلى الله تبارك وتعالى فاستجاب له واطاع الله فأدخله الله الجنة وأدخل الداعي النار بترك عمله واتباعه هواه»*[١١].

---

(٨) الكافي١: ٤٤.

(٩) ميزان الحكمة٩: ٥٤.

(١٠) امالي الشيخ الطوسي٢: ١٤٠.

(١١) مشكاة الانوار: ١٤١.

نستنتج: اذا شاء الخطيب الإسلامي أن يخطو في طريق الحق ويبلغ للاسلام بحق وينال في الدنيا فخر نشر التعاليم الإلهية ـ وهي مهمة الأنبياء ـ وفي الآخرة السعـادة الأبدية، فينبغي به أن يثبت منهاج عمله على مبدأين أساسيين:

أولاً: أن يبلغ لدين الله بكمال الإخلاص والصدق كما هو بلا إضافة أو نقصان.

ثانياً: لا يكتفي بالتحدث عن التعاليم الإلهية، بل عليه ان يطبقها في حياته عملياً ويؤديها بإخلاص وتنزّه عن الرياء والنفاق.

وكما يقول الإمام الصادق عليه السلام، فان أفضل الموعظة هي الصادرة عن واعظ يتمتع بميزتين: صدق القول والإخلاص في العمل.

يقول(ع): «*أحسن الموعظة ما لا تجاوز القول حدّ الصدق والعمل حدّ الإخلاص*»[١٢].

ويجب الّا يتبادر إلى الذهن هنا، ان الخطيب ونصائحه الصادقة وعمله بها إلى حد الإخلاص يستطيع لوحده أن يترك أثراً في المستمع ويهديه الى الصراط المستقيم، بل ان هناك شروطاً ينبغي ان تتوفر في المستمع ليتلقى عن الواعظ إرشاداته ويميز صلاحه من فساده ويسلك جادة السعادة والصواب.

فالمستمع الذي يحجر عقله ولا يريد ان يفكّر، والمستمع المأسور لعناده ولا يريد ان يضع العدل نصب عينيه، والمستمع المقيد بنعراته العصبية والعنصرية ولا يريد أن يحطمها وينطلق منها، والمستمع المنغلق على نفسه ولا يريد أن ينعتق ويتحرر، لا تترك فيه أقوال الخطيب المستوفي الشروط أي أثر لينتشله مما هو فيه.

فقد اختار الله سبحانه وتعالى الرسول الأكرم(ص) واعظاً وهادياً تتوفر فيه كل الشروط المطلوبة، لكن نصائحه(ص) لم تترك أثراً في العناصر العنيدة كما أنبأه الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿إِنَّ الَّذين كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ اَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾[١٣].

---

(١٢) مصباح الشريعة: ٤٩.

(١٣) البقرة: ٦.

الأمر الآخر الذي نقلته بعض الروايات وبيّن مسؤولية الخطباء، اذ ينبغي بهم الالتفات له، هو ما قيل عن عَرضِ خطبة الخطيب يوم القيامة عليه والدافع الذي حثه على القائها.

بعبارة أُخرى: ان تخلّف الخطيب عن العمل بما يقول يؤدي به الى مصيبة كبرى يوم القيامة، والعقبة الأُخرى التي ستعترضه هناك،دافع الخطيب في ذكر بعض الفقرات اثناء حديثه.

عن النبي صلّى الله عليه وآله وسلم:«*يا أبا ذر ما من خطيب الّا عُرضت عليه خطبته يوم القيامة وما أراد بها*»[١٤].

فتارة يوضح الخطيب عن حسن نية وبلسان الموعظة التكليف الشرعي للأغنياء في مساعدة الفقراء، ويحفزهم على الانفاق والاحسان هادفاً من وراء ذلك الى حماية المساكين والفقراء.

وتارة يتناول الموضوع ذاته بسوء نية ولسان أثارة يحرّك الفقراء ضد الأغنياء للسطو على أموالهم وسرقتها وارباك النظم في المجتمع، من المؤكد انّ هذين الأسلوبين يختلفان كل الاختلاف عن بعضهما، فالخطاب الأوّل يدعو إلى الإرتقاء بمستوى الفقراء مع الحفاظ على النظم الاجتماعي، بينما الثاني يؤلّب على الإخلال بالنظم وعدم الاستقرار ويبعث على تضييع الأموال وإيجاد الفوضى.

هداية الضالين

ان عمل الخطيب الاسلامي بأقواله وهي خلاصة التعاليم الالهية دلالة على شعوره بالمسؤولية وعلامة على تقواه ونقاء سريرته، الّا ان الاهم من اداء التكاليف الفردية هو هداية الناس الى الصراط المستقيم وانقاذهم من الضلالة، وقد تحمّل الرسل مسؤولية هذه العبادة الكبيرة وبذلوا سعياً متواصلاً حثيثاً في هذا السبيل

(١٤) امالي الشيخ الطوسي٢: ١٤٣.

وحصدوا بنسبة وأُخرى ثمار جهودهم هذه.

فإذا شمر الخطيب عن ساعد الجد للقيام بهذه المهمة الكبيرة وأخذ على عاتقه مسؤولية هداية الناس، وقام بها خالصة لوجه الله، يكون قد أدّى عملاً عظيماً يستحق الثواب الإلهي في الدنيا والآخرة كما جاء في الحديث المروي عن الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام:

قالت فاطمة عليها السلام: «*من أصعد الى الله خالص عبادته أَهبط الله عزّ وجلّ له أَفضل مصلحته*»[١٥].

(١٥) مجموعة ورام٢: ١٠٨.

الفصل الخامس

«أمّا بَعـدُ فإنَّ القُبورَ محلّتُنا
والقيامة موعدنا والله
عارضُنا».

الإمام الحسن بن علي(ع)

الخطيب ومدخل الخطبة

يمكن دراسة مقدمة الخطبة من زاويتين: الأولى، من زاوية الضرورة وعدمها، والثانية، من زاوية الكمية والكيفية التي لا بد وان تراعى، وفيما يلي نوضح باختصار كلا الجانبين:

الجانب الأول

نستطيع تقسيم ضرورة المقدمة وعدمها حسب اختلاف محتوى الخطبة ومراعاة الظروف التي تحيط بالخطيب الى أربعة أقسام:

١ـ لزوم ذكر المقدمة لتوضيح المبحث.

٢ـ لا ضرورة للمقدمة، ولكن ذكرها لا يخلو من فائدة.

٣ـ لا ضرورة لها، وذكرها حشو في الكلام ومنافٍ للبلاغة.

٤ـ لا بد من تجاوز المقدمة لان ذكرها يضر.

أولاً: تتقدم ضرورة المقدمة للخطبة حينما لا يتضح موضوع البحث بالشكل

المطلوب ولا يتوصل المستمع إلى هدف الخطيب بنحو جيد دون ذكرها.

فعلى سبيل المثال، في نية الخطيب أن يتحدث في مجلس ما،حضّاره في مستويات لا ترقى المتوسط،حول التكامل الاختياري للانسان، فيتلو هذه الآية الكريمة:

﴿يا ايُّها الَّذين آمَنُوا اِسْتَجيبُوا لله وَلِلرَّسُولِ اِذا دَعاكُمْ لِما يُحْييكُمْ﴾[1].

لتوضيح الآية يمهد الخطيب لحديثه بمقدمة: للانسان حياتين حيوانية واُخرى إنسانية، حياتنا الحيوانية لا تختلف عن حياة جميع الحيوانات تبدأ بالجبر وتنتهي به. فلا تدب الحياة في أي حشرة أو حيوان بإرادته الذاتية ولا تنتهي بمشيئته، وحياتنا الحيوانية هي حياة جبرية أيضاً شبيهة بحياة سائر الحيوانات.

أما حياتنا الإنسانية فهي لا تخرج عن نطاق ارادتنا، فيستطيع كل منا ان يكون انساناً ويحيى انساناً ويموت انساناً، وكذلك أن يصبح حيواناً ويعيش حيواناً ويموت حيواناً.

إنَّ حياتنا الحيوانية شأنها شأن حياة جميع الحيوانات تتبع جبراً النظام التكويني الذي وضعه الله سبحانه وتعالى بإرادته الحكيمة، الّا ان الله تبارك وتعالى وضع منهاج حياتنا الانسانية بمشيئته في النظام التشريعي واوكل تنفيذه او عدم ذلك الينا وفوضنا فيه، والآية الكريمة التي تليت قبل قليل تشير إلى هذا المفهوم.

يجدر بالخطيب وبمقدمته هذه توضيح موضوع الآية وافهام المستمعين معنى الحياة الانسانية التي تُنال بالإستجابة لدعوة الله والرسول، وحثهم على قبول التعاليم الإلهية وتطبيقها عملياً.

ثانياً: بنية الخطيب أن يتناول في اليوم الأول من شهر رمضان بحث الصوم، وهو بحث لا يستدعي من الخطيب ذكر مقدمة له، بل يستطيع ان يدخله مباشرة ويقرأ بعض الروايات حول الفوائد الدنيوية والأخروية للصوم، ويمكنه تلاوة الآية المتعلقة بفريضة الصوم مستهلاً بها حديثه:

---

(١) الانفال: ٢٤.

﴿يا أَيُّها الذينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْصِيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٢].

يستطيع الخطيب مستنداً على الفقرة الأخيرة من الآية أن يجعل مبحث التقوى مقدمة لكلامه، ويورد بعض الأحاديث حول التقوى ويستنتج ان التقوى هو حس أمتلاك النفس عن الأثم وتجنبه والقرآن الكريم وصف الصوم بأنه أحد الطرق السالكة نحو التقوى.

ثالثاً: يُطلب من الخطيب ان يلقي كلمة دونما هدف خاص، والخطيب بدوره لا يريد أن يتكلم حول قضية معينة، حينئذ لا يحتاج الى التمهيد لحديثه بمقدمة، اذ يختار ما يوافق ذوقه ويناسب عقول المستمعين ويدخل في موضوعه بلا تقديم، وليست المقدمة هنا حاجة منتفية وحسب بل أن ذكرها هنا يجافي بلاغة الخطيب.

روي ان أمير المؤمنين قال للحسن عليه السلام: «*قم فاخطب لأسمع كلامك، فقام وقال: الحمد لله الذي من تكلم سمع كلامه ومن سكت علم ما في نفسه ومن عاش فعليه رزقه ومن مات فإليه معاده وصلّى الله على محمد وآله الطاهرين وسلّم، أمّا بعد فان القبور محلتنا والقيامة موعدنا والله عارضنا وان علياً باب من دخله كان آمناً ومن خرج منه كان كافراً*»[٣].

الإمام علي عليه السلام كان خطيباً لا يرقى اليه أحد، وقد القى الامام الحسن المجتبى بطلب من أبيه(ع) خطبة قصيرة بمضامين عالية دونما مقدمة نالت رضا الإمام علي(ع)، كما جاء في ذيل هذا الحديث وحظيت بثناءه.

رابعاً: لنتصور عدداً هائلاً من الناس بين رجال ونساء وكبار وصغار وشبان وكهول خرج يو م الثالث عشر من شهر فروردين خارج المدينة كما هو سائد[٤]

---

(٢) البقرة: ١٨٣.

(٣) بحار الانوار٧٥: ١١٤.

(٤) ويصادف يوم الثاني من نيسان من كل عام وهو اليوم الثالث عشر من السنة الايرانية الجديدة وفيه تمارس تقاليد وطقوس قديمة حيث يترك الناس بيوتهم متدفقين على الحقول والمزارع ابعاداً للشر [المترجم].

وتجمهر هذا العدد على ارض واسعة، واخذ بعضهم بالقفز وآخرين بلعب كرة القدم ومجموعة تصيح واُخرى تقهقه وثالثة تتنازع، في وضع كهذا، لو أراد أحد رجال الشرطة ان يتحدث إلى الناس وهم على هذا الحال الفوضوي ويمنعهم من ممارسة بعض الأعمال المنافية للنظم العام، فعليه أن يعمل على إسكاتهم في المرحلة الأولى ثم يسترعي انتباههم اليه، ومن الطبيعي يستحيل اسكات هذا العدد بالطرق الطبيعية، وما عليه الاّ استخدام اسلوب آخر لكتم الأصوات لحظات عديدة واستغلالها لإيصال صوته ونداءه بصورة سريعة.

في الظرف المذكور، يهيّء المتحدث مكبراً للصوت، يمسك لاقطته بيد ويطلق عدة رصاصات متعاقبة في الهواء، فيطبق على الناس صمت اثر سماع اصوات الرصاص مستطلعين الأمر، فيستغل المتحدث هذه الفرصة على وجه السرعة ويبلغ نداءه مضغوطاً وبلا مقدمة، ويقول:

انتبهوا، بين صفوفكم ينتشر عدد من رجال الامن الداخلي بملابسهم العادية، فلا تتعرضوا للنساء، وأحذروا أن تلحقوا اذىً بالآخرين، ومن يفعل ذلك يُعتقل فوراً ويودع السجن ويفتتح معه ملف للتحقيق.

وقد يواجه الخطيب الاسلامي في بعض الحالات وضعاً كهذا مليء بالضجيج والفوضى، فلو إستطاع ان يفرض الصمت للحظات عديدة فعليه ان يلقي خطابه ويذكر نصائحه بجمل قصيرة سريعة دون تمهيد ومقدمة، ذلك ان الصمت المؤقت ينتهي الى ضجيج ثانية إنْ اراد ان يورد مقدمة مهما كانت قصيرة في ذلك الجو المشحون، مما ستضيع الفرصة على الخطيب في ذكر عدة عبارات ضرورية.

حديث الرسول(ص) مع الأوس والخزرج

مرّ شاس بن قيس وكان شيخاً قد عسى عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين شديد الحسد لهم،على نفر من اصحاب رسول الله(ص) من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من جماعتهم واُلفتهم وصلاح ذات

بينهم على الاسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فقال:قد اجتمع ملأ بني قيلة يعني الأوس والخزرج بهذه البلاد لا والله ما لنا معهم اذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى شاباً من اليهود وكان معه قال: اعمد فاجلس اليهم ثم ذكرهم يوم بغاث وما كان فيهم وانشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار وكان يوم بغاث يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج، ففعل فتكلم القوم عند ذلك فتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب أوس بن قيظي أحد بني حارثة بن الحارث بن اوس وجبار بن صخر احد بني سلمة، فتقاولا ثم قال احدهما لصاحبه ان شئتم والله رددناها الان جذعة،وغضب الفريقان وقالوا قد فعلنا السلاح السلاح وموعدكم الظاهرة، والظاهرة الحرّة، فخرجوا اليها وتجاور الناس فانضمت الأوس بعضها الى بعض على دعوتهم التي كانوا عليها في الجاهلية، فبلغ ذلك رسول الله(ص) فخرج اليهم فيمن معه من المهاجرين من اصحابه حتى جاءهم، فقال: «*يا معشر المسلمين الله الله أبِدَعْوى الجاهلية وانا بين اظهركم بعد ان هداكم الله تعالى الى الاسلام واكرمكم به وقطع عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألّف بينكم،ترجعون الى ما كنتم عليه كفاراً.. فعرف القوم انها نزعة من الشيطان وكيد من عدوهم فالقوا السلاح من ايديهم وبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً ثم انصرفوا مع رسول الله(ص) سامعين مطيعين واطفأ الله عنهم كيد عدوهم وعدو الله شاس بن قيس*»[٥] .

وصل الرسول الكريم(ص)، والأوس والخزرج في ذروة الهياج وقد استعدوا للقتال، وفور ان واجههم(ص)، ذَكَرَ لفظ الجلالة مرتين لتحذيرهم وبدأ حديثه معهم دون مقدمة، والقى فيهم خطبة قصيرة ومؤثرة بحيث تغلغلت كلماتها إلى اعماقهم واثّرت فيها أيّما تأثير، جعلتهم يلقون السلاح من ايديهم، ويعانقون بعضهم بعضاً وأعينهم تفيض من الدمع، ويندمون على ما بدر منهم.

---

(٥) أسد الغابة١. أوس: ١٤٩.

خطبة زينب في الكوفة

من النماذج التاريخية الأخرى التي تلا فيها الخطيب خطبته دون مقدمة وكان لها وقعها المؤثر، هي الخطبة التي ألقتها العقيلة زينب عليها السلام من محمل أَسْرِها في الكوفة يوم الثاني عشر من شهر محرم.

يومها، كان للكوفة وضعٌ عجيبٌ على ما يجري من همس وضجيج ، فالجيش الفاتح قد عاد من جبهة القتال في كربلاء وهو يعلن النصر بصرخاته الممتزجة بالسرور والفرح، والناس من صغير وكبير وشاب وفتى وامرأة ورجل ومن كل الاعمار قد احتشدت تهمهم مع بعضها لا يفهم السامع منها الاّ كلاماً متداخلاً يملأ الجو المحيط، فيما ارتفعت أصوات البكاء الى أعنان السماء من بعض رجال ونساء الكوفة على مصرع الامام الحسين، ويصيخ السمع من بين الجمع صراخ بعض الاطفال وأصوات أجراس الجمال وصهيل الخيول.

هل يستطيع الخطيب ومهما بلغت فصاحته وقدرته وبلاغته في مثل هذا الوضع المضطرب والجو الفوضوي المشحون ان يسكّنه ويهدّىء الأمور ويطلب من الناس التزام الصمت والاصغاء لما يريد ان يقول؟ كلا، انه لامر مستحيل الحدوث بالطرق والاساليب الطبيعية. الا ان زينب عليها السلام تمكنت من ذلك بقوتها المعنوية وسلطتها الروحية، تلك القوة والسلطة التي منحها تبارك وتعالى لخاصته وأولياءه لاستخدامها عند الضرورات.

فلم ترفع هذه السيدة العظيمة الشأن صوتها لاسكات الناس ولم توظف طاقة هائلة من اجل ذلك، بل أجمع المؤرخون ومن دوّن هذه الفترة المهمة من التاريخ، على انها امرت الناس بالصمت باشارة واحدة، فسكت الجميع:

«وقد اشارت الى الناس أن انصتوا، فارتدت الانفاس وسكنت الاجراس» [٦].

فارتداد النفس صمت جبري والسكوت صمت اختياري، وبعبارة أوضح: قد

---

(٦) الدمعة الساكبة: ٣٢٢.

لا يتكلم الشخص بإرادته واختياره فيطبق شفاهه ويلتزم الصمت، وقد يضطر الى التوقف عن الكلام لعارضٍ يعترضه كأنْ يدخل عند الأكل قليل من الطعام الى قصبة الرئة ويختل التنفس، فالعرب تطلق على الحالة الأولى السكوت، والثانية رد النفس.

واشارة زينب عليها السلام فعلت فعلها في الناس واوحت اليهم بالسكوت اللاطبيعي اي رد النفس، فلاذ الجميع بالصمت وسكنوا، وتوقف الرعاة عن المسير وسكنت الاجراس.

فارتدت الانفاس وسكنت الاجراس.

حينئذ بدأت زينب عليها السلام بالكلام، واي كلام؟ كلام اقرب الى كلام الامام علي(ع)، حتى تصوره الناس انّه هو:

فكأنّها نطقت من لسان أمير المؤمنين.

وباختصار شديد أثنت هذه المرأة الكبيرة وحمدت الله ونطقت بالصلاة على محمد وآله، وقالت:

«الحمد لله والصلوة على أبي محمد وآله الطيبين الأخيار»[٧] .

الملفت للنظر، ان زينب(ع) وبعد الحمد لله عرفّت نفسها بأنّها إبنة رسول الله(ص) وهو أبوها لما ارادت ان تصلّى عليه، وقالت: والصلوة على أبي محمد، بمعنى: ايها الناس انتبهوا، فان من يتكلم اليكم الآن هو ابن رسول الاسلام محمد بن عبدالله، وهذه الالتفاتة أنارت عقول الجاهلين وشدت من انتباههم. ثم بدأت خطبتها دون مقدمة، وخاطبت اهل الكوفة بكل قسوة،إنتقدتهم بشدة، وقالت:

«يا أهل الكوفة ،يا أهل الختل والغدر، أتبكون؟ فلا رقأت الدمعة ولا هدأت الرنة»[٨] .

بعد ذلك تحدثت عليها السلام بتفصيل عن خيانتهم لوعودهم التي انتهت

---

(٧) و(٨) بحار الانوار٤٥: ١٠٨.

بمقتل سيد الشهداء، وعددت اصناف الظلم الذي ارتكبوه، فانقلب الوضع في الكوفة بأثر هذه الخطبة الملهبة رأساً على عقب، وبكى الجميع ولطموا رؤوسهم ووجوههم من شدة الندم والألم:

فضج الناس بالبكاء والحنين والنوح ونشرت النساء شعورهن ووضعن التراب على رؤوسهن وخمشن وجوههن وضربن خدودهن ودعون بالويل والثبور، وبكى الرجال ونتفوا لحاهم فلم ير باكية ولا باكٍ اكثر من ذلك اليوم[٩].

اذن: نستنتج مما ذكر حول القسم الأول من مدخل الخطبة، ان ضرورة مقدمة الخطبة من عدمها في الخطابات الاسلامية تتوزع على اربع صور حسب اختلاف اوضاع المجالس والتجمعات وظروفها المحيطة بها، وقد وضحنا لكل صورة منها بمثال، وما على الخطيب والمتحدث الاسلامي الّا ان يحتفظ في ذهنه بالصور المذكورة ويعمل بها حسب ما تواجهه من حالات.

الجانب الثاني

الموضوع الرئيسي الثاني حول مقدمة الخطبة هو: مراعاة كيفيتها وكميتها، وهـذان المبدءان ـ كما سنأتي على شرحهما ـ يعتبران من القضايا الأساسية في فن الخطابة. فإذا لم يعر الخطيب لهما الأهمية المطلوبة، وألقى على مسامع الناس كلاماً غير موزون كمدخل الى الخطبة دون مراعاة كيفيته وكميته فانه سيترك أثراً سلبياً عند الحضور، ويقلل في أعينهم من وزن الخطيب وقيمته، ويعيق تغلغل كلامه ونفوذه إلى اعماقهم.

كيفية المقدمة

عنـدما يرى الخطيب ضرورة في الأتيان بمقدمة لتوضيح موضوع البحث،

---

(٩) الدمعة الساكبة: ٣٢٣.

فعليه أن يخطط لها ويسبكها بشكل تمهد الطريق امام المستمعين لفهم ما يتلوها، وتعينهم على استيعاب هدف البحث والموضوع الأساسي للخطبة.

بعبارة ثانية: ان مقدمة الخطبة هي بمثابة جسر يربط افكار المستمعين بقلب الموضوع ويقربه الى الأذهان.

اذ يريد الخطيب ان يطوي مستمعوه الجسر الرابط ويصغون بدقة الى مقدمة الخطبة لتتهيأ افكارهم، ويفهموا محتوى البحث ويستوعبوه بصورة افضل حينما يتناوله بالشرح.

ومن الواضح ان مقدمة كهذه يجب ان تتلاءم مع صلب البحث، وعلى هذا لو تكلم الخطيب بكلام كمقدمة لخطبته لا توضح ما يتلوها، ولا تفيد المستمع في انارة الطريق لفهم المبحث الاساسي، فلا يمكن ان نتلقاها بوصفها مقدمة للخطبة ومدخل صحيح لها.

فمثلاً لو أراد الخطيب تنظيم مقدمة تمهد الطريق امام المستمع لفهم الآية الكريمة: ﴿يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا اسْتَجيبُوا لله وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لما يُحْييكُمْ﴾[١٠].

فيمكنه ـ كما وضحنا فيما سلف ـ ان يفكك حياة البشر الحيوانية عن حياته الانسانية، ويقول: ان الحياة الحيوانية للبشر تماثل حياة جميع الحيوانات، وتقوم على اساس النظام التكويني الالهي الحكيم وتتحقق بالجبر، من هنا لم يطلب الله تبارك وتعالى من أي حيوان بري أو بحري وكذلك من الانسان من ناحية بعده الحيواني الاستجابة لدعوة إحيائه، الا ان الآية الكريمة طلبت من المؤمنين ومن زاوية حياتهم الانسانية،الاستجابة لدعوة الله والرسول لما يحييهم.

ان كلمة (استجيبوا) التي ذكرتها الآية توحي الى ارادة المستجيب واختياره، بمعنى: يستطيع الانسان ان يستجيب لدعوة الله والرسول ويؤمن ويحيي حياته الانسانية، ويستطيع ان يلوي عنقه عن قبول دعوة الله والرسول ويمكث في الكفر

---

(١٠) الانفال: ٢٤.

ولا ينال الحياة الانسانية.

وهنـاك العديد من الآيات القرآنية التي فوضت الإنسان حرية الاستجابة للتعاليم الالهية أو رفضها.

قال تعالى:

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاء فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(١١).

وقال عز اسمه:

﴿اِنْ هُوَ اِلاّ ذِكْرٌ لِلْعالَمينَ * لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ اَنْ يَسْتَقيمَ﴾(١٢).

وقال تبارك وتعالى:

﴿اِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبيلَ اِمَّا شَاكِراً وَاِمَّا كَفُوراً﴾(١٣).

نستنتج مما ذكرناه: ان على الخطيب ان يجعل مادة خطبته الانسان والحياة الانسـانية ويفككهـا عن الحياة الحيوانية، ويفهم المستمـع ان التحـلي بالسجـايا الإنسـانية وبلوغ مرتبـة الانسانية هو غير الشكل الظاهر على بني آدم، اذا اَراد الخطيب اَن يأتي بمقدمة ذات مضمون مناسب وكيفية صحيحة لبحثه حول الآية المذكورة.

واذا افترضنا ان الخطيب جعل من قضية دعوة الله والرسول التي وردت في الآية مقدمة لبحثه، وتحدث للمستمعين عن كيفية دعوة الباري تعالى ورسوله، عندئذ لا يمكن اعتبارها مقدمة بكيفية صحيحة فنياً، ولن تنير للمستمعين الطريق وتمهد اذهانهم لفهم الآية المباركة.

كمية المقدمة

إلى جانب مراعاة كيفية المقدمة ومحتواها، يلزم بالخطيب ان يولي اهمية قصوى

---

(١١) الكهف: ٢٩.

(١٢) التكوير: ٢٨ و٢٨.

(١٣) الدهر: ٣.

لكمية المقدمة، ويحذر ان تتجاوز الحد المناسب والتطوال، لان الهدف الرئيسي للخطيب هو بيان موضوع البحث، ودور المقدمة تقريب الأذهان الى الهدف، اذن: فالمقدمة فرع وما يتلوها هو الأصل.

ينبغي بالخطيب ان لا يطيل المقدمة ويشغل الجانب الأكبر من الوقت المحدد فيها، مما يوحي الى المستمع ان الخطيب قد اهمل موضوع البحث لعدم اهميته او انه قد نساه.

الآية التي ذكرت قبل قليل لتوضيح كيفية المقدمة، يمكن ان نتناولها ثانية لتبيان كمية المقدمة، والموضوع هو: ان الحياة الانسانية للانسان هي بمشيئته واختياره وعليه ان يستجيب لدعوة الله والرسول للوصول اليها، اما الحياة الحيوانية للحيوان فهي ليست بمشيئة الحيوان، بل انه خلق بهذا الشكل مجبولاً بفطرته.

ومن اجل ان يستوعب المستمعون موضوع المقدمة وتتهيأ أذهانهم لهضم البحث، يستطيع الخطيب ان يورد مثالاً أو مثالين عن الحيوانات، ويقول مثلاً: لقد خُلق الذئب كاسراً والأفعى لدغاء، فلا الذئب بقادر على تغيير خلقه وازالة صفة الافتراس عنه، ولا بمستطاع الافعى ان تبدل تكوينها وتطرد عنها خصلة اللسع.

لكن الانسان قادر على هذا التغيير، فإذا انقاد لاهوائه وشهواته النفسية فقد يصبح طبعه اكثر وحشية من الذئب ولسانه ألسع من الأفعى، واذا استجاب لدعوة الله والرسول فانه يحيا بحياة انسانية ويتحلى بالسجايا والأخلاق الطيبة.

هنا، اذا اكتفى الخطيب بذكر مثال الذئب والأفعى وتجاوزه بتوضيح مقتضب ودخل بحثه الرئيسي فإنه يكون قد راعى كمية المقدمة وفتح الطريق امام المستمعين لفهم موضوع البحث، اما اذا استهوته امثلة الحيوانات وأخذ يعددها ويعدد صفاتها وأوصافها، أو أطال الحديث حول الذئب والأفعى، فانه لم يراع كمية المقدمة وخرج عن البلاغة.

يجدر بالخطيب ان يفهم المستمعين في ثنايا خطبته بان الاستجابة لدعوة الله والرسول تحيي في الإنسان الحياة الانسانية، لان التعاليم الالهية تخرج الخصائص

الإنسانية من حيّز القوة إلى الفعل، وتحيي المعرفة الفطرية، وتلقي الايمان في قلب الانسان،وتحرك قوة العقل، وتدفع الشخص للتفكر والتدبر، وتحيي الضمير الاخلاقي، وتـطبع الناس بالسجايا الإنسانية، وتنمي الميول الانسانية السامية وتجر المرء إلى طريق حب الغير والتعاون، والحياة الانسانية هي تحريك المزايا والخصائص الانسانية في الوجود الآدمي، وهذا هو محتوى ومضمون دعوة الله والرسول.

الفصل السادس

«مالُكَ اِن لم يكن لك كنت له فلا تبق عليه فانــه لا يبقي عليك وكُله قبل ان يأكلك».

الإمام الحسين(ع)

الالتواء على الموضوع

يقول صحافي درس خارج البلاد: جاءنا الاستاذ يوماً وسأل: ما هو الخبر؟، الخبر الجذّاب الذي يلفت انتباه القراء؟

أجاب بعض الطلبة: الخبر هو نقل الوقائع والأحداث المهمة أو المهمة نسبياً، كتفجر بركان في نقطة معينة وانسياب المواد المذابة السائلة ووقوع عدد من الضحايا بين قتيل وجريح وتدمير عدة قرى، أو نبأ سقوط طائرة، او اصطدام قطارين مع بعضهما ووقوع عدد من القتلى والجرحى، أو خبر تدمير المزارع والحقول بسبب سيل جارف، وغيرها من الأخبار المشابهة.

فرد الاستاذ: ان هذه وقائعاً وأحداثاً عادية تقع كل يوم في هذا العالم المترامي الأطراف، ويواجهها الناس باستمرار، اما الخبر الطريف المثير للانتباه هو ذلك الخبر الذي ينطوي على إثارة وزاوية منحرفة غير طبيعية.

فإذا قيل: ان كلباً اطبق بفمه اليوم وفي المكان الفلاني على رِجْل ساب في

الرابعة عشر من عمره وعضها، فسال الدم من فم الكلب وأسنانه بينما كان الشاب يبتعد صارخاً. ليست هناك من اثارة أو طرافة في هذا الخبر، لأن الطبيعي ان يعض الكلب رِجْل انسان والخبر الطريف هو ان يقال: ان شاباً في الرابعة عشر من عمره عضَّ اليوم في الطريق الفلاني رجل كلب فسال الدم من فم الشاب واسنانه بينما كان عواء الكلب يرتفع وهو يبتعد عن المكان.

الخطابة والالتواء على الموضوع

اذا اَراد الخطيب ان يستخدم هذا الاسلوب المؤثر جداً ويصب كلامه النافع في قالب مصحوب بالاثارة، فانه يستطيع ان يمعن في بعض الروايات بدقة ويقتدي بهـا ويلقي خطابه بشكل يبدو وكأنه غير مقبول في البدء ليتضح بعد القاء الضوء عليه والكشف عن الموضوع، وهذا الاسلوب في الحديث يترك آثاراً في أعماق المستمعين ويظل محفوراً في اذهانهم لا يُنسى.

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «*أيُّكم مالُ وارثه احب اليه من ماله؟*

قالوا: ما فينا احد يحب ذلك يا نبي الله.

قال: بل كلكم يحب ذلك، ثم قال: يقول يا بن آدم مالي مالي، وهل لك من مالك الّا ما أكلت فافنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأبقيت وما عدا ذلك فهو مال الوارث»[1].

الرسول(ص) طرح سؤالاً على الحاضرين، جوابه ملتوٍ ومخالفٌ لكل التوقعات ولم يتنبه اليه احد الّا بعد ان وضح(ص) كيف انهم يحبون مال الوارث اكثر من اموالهم. لقد كشف هذا الحديث وبإلتواء على الموضوع حقيقة مجهولة على الناس، ورفع ستار من الابهام من امامهم واعاد المستمع إلى نفسه ليسارع في الخيرات بماله ليُهيِّء به زاداً لغده.

---

(١) أمالي الشيخ الطوسي٢: ١٣٣.

وكان بمقدور الرسول(ص) ان يبين مراده بنحو طبيعي بلا أي التواء، ويقول مثلاً: اعملوا لانفسكم قبل ان تفارقوا الدنيا وتنتقل اموالكم الى الورثة، الاّ ان هذا التوضيح البسيط والطبيعي لا يترك أثراً في اعماق الناس مثلما تتركه تلك الطريقة التي تحدث بها رسول الله(ص) سؤالاً وجواباً.

عن الامام الحسين بن علي عليهما السلام قال: «*مالك ان لم يكن لك كنت له فلا تبق عليه فانه لا يبقي عليك وكُلْه قبل أن يأكلك*»[٢].

الاثارة في هذه الرواية تفرز استغراباً اكبر للمتلقي أو المستمع، فيقول مع نفسه: إنّني أملك أموالي فكيف اصبح مملوكاً لها؟ انني أستطيع ان لا أُبقي على مالي، فكيف يمكن للمال ان لا يُبقي عليّ؟ انني أقدر على أكل أموالي، فكيف يقدر المال على أكلي؟

فاذا كان الخطيب مقتدراً، فهو يستطيع ان يفكك البعد المادي للثري عن البعد المعنوي، ويجيب على تمام اسئلته، ويفهمه في توضيح الحديث: انه لو نظرت إلى المال من زاوية الحياة واعتبرته وسيلة لرفع الحاجات الحياتية وأنفقته في مكانه فانك تملك المال، اما لو عشقت الثروة وتغلغل إلى أعماقك حب المال فانك تبتلى بمرض الحرص وليس لك من هذف إلاّ كنز الثروة، وعندها أصبحت مملوكاً للمال.

واذا استطعت ان تخلع حبك للمال في الظروف اللازمة وانفقته فيما هو واجب ومستحب فانك لم تبق عليه، اما اذا امتنعت عن دفع حقوق الله والناس واحتجبت عن أداء التكاليف الدينية والإنسانية المالية فان المال لم يُبْقِك ويقضي عليك في النهاية ويفني حياتك المعنوية وهي أساس الإنسانية.

واذا انفقت مالك بما هو صحيح ومشروع وانتفعت منه، رامّنت حياة كريمة لأسرتك ووصلت فقير رَحِمك وأعنت الضعفاء فانك قد اكلت المال، أمّا لو لم تعمل بمسؤوليتك، وغللت يدك عنك وعن أُسرتك وتناسيت الارحام والضعفاء ولم تفكر الاّ

---

(٢) بحار الانوار٦٨: ٣٥٧.

بجمع الثروة والجشع، فان المال قد أكلك.

الدعوة إلى الشرك

في سالف الزمان، كان هناك رجل عالم جليل يسمّى الشيخ جعفر الشوشتري وكان من زهاد عصره وعبّاد زمانه، حلّ يوماً في مدينة طهران قبل دخول شهر رمضان المبارك بأيام عديدة، فاطلع الناس على مجيئه وتهافتوا لزيارته وناشدوه البقاء في طهران طيلة شهر رمضان لينفع الناس بخطبه وأحاديثه، فاستجاب للطلب وبقي في طهران.

حلّ شهر رمضان، وبدأ الشيخ الشوشتري يلقي خطبه يومياً في أحد المساجد الكبرى حيث كان يحضرها عدد كبير من الناس للاستماع إلى تلك الخطب وبعد ان انقضى نصف الشهر الكريم ارتقى المنبر يوماً وقال: ابلغوا الناس للمجيء غداً كي اتناول موضوعاً في غاية الأهمية، وفي اليوم التالي ارتفع عدد الحاضرين وكلهم شوق لِلاصغاء إلى هذا الموضوع المهم، فصعد المنبر وقال. ان ما أُريد قوله هو ان الانبياء دعوا الناس الى التوحيد وها انذا أُريد ان ادعوهم إلى الشرك، فتعالوا غداً لاخوض في الموضوع.

اثار هذا الكلام جميع الحضار وبدت عليهم علامات الإستفهام وكل ينظر إلى الآخر بدهشة، ماذا يريد ان يقول الشيخ غداً؟

وجاء الغد وحضر المجلس عدد هائل جداً من المتشوقين لسماع الخطيب ودعوته إلى الشرك؛ فصعد الشيخ المنبر وقال: لقد دعى جميع الانبياء الناس إلى التوحيد، وطاعة الله طاعة مطلقة، ولكن للأسف، فقد إنحرفنا اليوم عن مسير الحق واستبدلنا طاعة الهوى عوضاً عن طاعة الله، وما أُريد قوله هو، ان تعالوا لنشرك منذ اليوم، أي كما اننا نتخلف في بعض الأحيان عن اَوامر الله ونطيع الهوى، لنتخلف اَيضاً في بعض الأحيان عن أوامر الهوى ونطيع الله، فلربما انجانا هذا الشرك وعوض بعض الطاعة لله عن اِطاعة الهوى، ليعفوا عنّا الخالق العظيم والرحمن الرحيم ويشملنا بمغفرته واِحسانه.

ترك حديث الشيخ الملتوى حول الشرك أثراً عميقاً في الناس وأخذ ينظر بعضهم إلى بعض بعيون تفيض من الدمع ، ويستمعون إلى أقوال الخطيب وقد أحاطهم إحساس بالحياء من الله تعالى. ولما إنتهى المجلس كان بعض المستمعين يردد وإلى فترة طويلة جملة (تعالوا لنشرك منذ اليوم) عندما يلتقون مع بعضهم.

اذا استطاع الخطيب أن يتحدث إلى الناس ويعظهم بطريقة مثيرة كما فعل الشيخ جعفر الشوشتري، فإنه سيحقق هدفه بشكل أفضل ويترك في أذهان المستمعين أثراً لا يمحى، بيد ان من غير السهل على كل الخطباء إستخدام هذا الاسلوب دائماً، غير ان التاريخ نقل إلينا بعض الوقائع والاحداث وضح المتحدث عنها هدفه بأسلوب ملتوٍ مما ترك أثراً كبيراً. ويستطيع الخطباء عند الضرورة وللاستشهاد على أقوالهم من ذكر هذه الأمور ليطبعوا في أذهان مستمعيهم آثاراً لا تمحى، وفيما يلي ننقل نموذجاً لقضية تاريخية.

قلد المنصور العباسي منصب ولاية احدى المدن الإسلامية إلى رجل يسمى (عمرو سلم قتيبة)، فاضطهد هذا الأخير رعيته وظلمها حتى استنفدت طاقتها وقررت تقديم شكوى للخليفة من ظلم عمرو واختير لهذه المهمة أحد الرجال الأذكياء، فواجه في البلاط كبير الحجاب ربيع وقال: جئت من الناحية الفلانية مبعوثاً من قبل الرعية لأشرح حالها وأنقل ما يجري لها من ظلم على يد الوالي، ولكن لي سؤال قبل ان أتحدث بشيء، وهو: هل عرفتم عمرو حينما نصبتموه والياً علينا أم لا؟ فأجاب: نعم، كنّا نعرفه.

فعاد الرجل من حيث أتى دون ان يتكلم بحرف واحد، فتعجب ربيع من ذلك وامر بإرجاعه، وسأله. ماذا أردت من هذا السؤال الذي اكتفيت به ولم تطلب حاجة أُخرى؟

فأجاب: إن كنتم تجهلوه ولا تعلمون بظلمه لقلت لكم تفاصيل الأمر، غير ان معرفتكم به وتنصيبه والياً علينا عن سابق معرفة لم يترك لي حديثاً، وما علينا الاّ الرجوع إلى الله لنطلب منه ان يكفينا أمره.

فتأثر ربيع من قول الرجل بشدة، وأطلع المنصور فوراً على تفاصيل القضية، فأمر المنصور بعزله[٣].

بلاغ

وحدث ان بعث بعض العلماء من ذوي الكلام النافذ والسلطة المعنوية عبارة قصيرة تتضمن بلاغاً إلى اصحاب السلطة والقدرة تنطوي على بعض النصائح، ففعلت فعلها في التغيير لصالح المجتمع بعد ان استيقظ ضمير المستلم وقرر اقامة العدل بين الرعية.

يقول قاضي بخارى: وانا أسير يوماً في طريقي إلى قصر (قصر طمغاج خان) في سمرقند، التقيت على غير ميعاد مع الإمام محمد نصر من علماء سمرقند، تقدم نحوي فنزلت عن ظهر الحصان معرباً له عن احترامي وتقديري، فقال: اتذهب إلى الخان؟

أجبت. نعم.

قال: ابلغ الخان عنّي هذا النداء، وقل له: اما أن تعلم ما يجري على الناس اولا تعلمه، فان كنت عالم به دون ان تحرك ساكناً فالويل لك، وإن كنت تجهله، فالويل لنا من سلطان لا يعلم عن رعيته شيئاً.

يقول: لما ابلغته بالنداء بكى كثيراً وسلك بعد ذلك نهجاً عادلاً[٤].

الخطيب والبلاغ في الخطبة

كما وضحنا، ينبغي بالخطيب ان يحدد هدفه في ذهنه قبل البدء بكلامه، ويدري ماذا يريد ان يقول وأيّة عناصر ومواد يطرحها، ويعين بداية حديثه ونهايته وينظم

---

(٣) جوامع الحكايات: ٣٩١.

(٤) جوامع الحكايات: ١٧٣.

محتوى الخطبة في فكره، ثم يتحدث إلى مستمعيه بحديث لا بد وان يكون نافعاً مثمراً.

وفضلاً عن هذه الخطبة المفيدة، اذا استطاع الخطيب ان يختار من مجموع ما تفوه به موضوعاً تربوياً قصيراً يذكّر به مستمعيه في ختام حديثه، فسيكون بمثابة بلاغ يقترن مع الخطبة، وهذه بحد ذاتها ميزة أُخرى تطبع الخطيب، واذا استطاع استخراج بلاغ او توصية من حديثه، فبامكانه اختيار جملة ذات وزن وتأثير من احدى الروايات أو الوقائع التاريخية تتلاءم مع البحث وطرحها على المستمعين لتلتصق باذهانهم وتكون بالتالي بلاغ الخطبة.

مثال:

كان للسلطان طغرل وزيرٌ كفوءٌ متقٍ يدعى (أَبو منصور)، وكان أَبو منصور هذا لا يفارق بعد فريضة الفجر مكانه حتى بزوغ الشمس منشغلاً بالدعاء والذكر، ثم ينصرف إلى السلطان وأُمور الوزارة، ويوماً استدعى السلطان وزيره لمهمة قبل طلوع الشمس، فبعث في طلبه بعض رجاله، فرأوه وقد جلس في محراب عبادته وهو يدعو ربه، فأبلغوه بأمر السلطان دون أن يهتم لهم، وعاودوا الكرّة ثانية وثالثة بلا فائدة، فاخبروا السلطان ان فلاناً رجلٌ عنيدٌ ومغرورٌ لا يهتم لاوامر جلالتكم ويعصي اوامركم، فغضب السلطان غضباً شديداً واضمر في نفسه أمراً.

ولما انتهى الوزير من اذكاره وحضر عند السلطان صرخ فيه هذا الأخير: لماذا تأخرت؟

فأجابه الوزير: أيُّها السلطان إنني عبد الله وخادم السلطان طغرل. وما لم افرغ من عبادة الله لا أَقدر على خدمتك.

ترك هذا الكلام القاطع الصادر من أَعماق الوزير المؤمن في قلب السلطان وقعاً مؤثراً وألهب مشاعره فدمعت عيناه وأَثنى على وزيره وقال له:

قدِّم عبادة الله على خدمتي، لتنتظم ببركة ذلك الأعمال وتنتفع البلاد[٥].

---

(٥) جوامع الحكايات: ١٧٣.

فإذا دار بحث الخطيب حول الآثار المعنوية للايمان وتحدث عن اطمئنان القلب وقوة الجنان وتوكل المؤمنين الحقيقيين على الله وتفويض امرهم اليه، يستطيع عندئذ ان يستشهد بهذا المقطع التاريخي عن لسان شخص مسلم، ويجعل من عبارة الوزير للسلطان طغرل التوصية الخاتمة لبحثه، ويقول: اننا ومهما كانت اعمالنا ومشاغلنا علينا ان نكون عبيداً لله في الدرجه الأولى ومن ثم الانصراف إلى اَعمالنا في الدرجة الثانية، فالواعظ هو اولاً عبدٌ لله، وثانياً خطيبٌ ناصحٌ للمجتمع، والوزير هو عبدٌ لله قبل كل شيء ثم عضوٌ في مجلس الوزراء، والتاجر عبدٌ لله قبل ان يحترف هذه المهنة ويمارسها وهكذا الأمر بالنسبة لسائر الفئات في المجتمع.

ولو استقرت هذه التوصية في اذهان جميع الناس واعتقدتها جميع فئات المجتمع، أي انها وضعت نصب عينيها في جميع الظروف والأحوال عبودية الله في المرتبة الأولى ثم المسؤولية المهنية، فانها لن تنسى هذه العبودية مطلقاً ولا تتعدى حدودها ولا تخطو خطوة الا ومعها رضاه تعالى.

الخطيب والمزاج المتعادل

من جملة ما يفترض بالخطيب ان يهتم له هو: ان يتمتع بحالة جسمية ونفسية طبيعية اثناء القاء الخطبة. ويمتنع عنها حينما تخالجه احساسات الألم والسهر والجوع وغيرها من الأعراض الجسمية، وكذلك عندما ينتابه الغضب او الرهبة من المجلس اَو ألم ناجم عن مصيبة كبيرة المت به، لان هذه الحالات تؤثر سلبياً بنسبة وأخرى على فكر الخطيب ولسانه، وقد تؤدي الخطابة في وضع كهذا إلى اضرار لا تعوّض.

ويسلب المرض مع الضعف الشديد أو السهر اَحياناً قوة التركيز من ذهن الخطيب، ويضعف قوة الذاكرة لديه فلا يعلم ماذا قال وماذا يريد أنْ يقول، وقد تأخذه سنة من النعاس فيطلق الفاظاً وكلماتٍ غير مفهومة، وتارة ينظر إلى الناس مبهوتاً لرهبة في قلبه ويفقد قدرة التكلم ويغادر منبر الخطابة مطأطىء الرأس.

وبأثر الغضب الشديد، ينطلق لسان الخطيب في بعض الأحيان دون ان يمتلك

قدرة السيطرة عليه، ويطلق له العنان في كلام غير موزون بنسق كيفي فيرفع صوته مثلاً في مواقع لا ضرورة لها.

عن الامـام علي عليه السلام قال: «*ألا ان اللسان بضعة من الانسان فلا يسعده القول اذا امتنع ولا يمهله النطق اذا اتسع*»[٦]

وذكر ابن ميثم البحراني مقدمة في شرح هذه الخطبة، ونقلها هنا لا يخلو من فائدة في توضيح البحث.

روي ان أميرالمؤمنين عليه السلام قال:«*هذا الكلام في واقعة اقتضت ذلك وهي انه امر ابن اخته جعدة بن هبيرة المخزومي يوماً ان يخطب الناس فصعد المنبر فحصر فلم يستطع الكلام فقام عليه السلام وتسنّم ذروة المنبر ثم خطب خطبة طويلة ذكر الرضيّ رحمه الله منها هذا الفصل*»[٧] .

أي ان الإمام علي عليه السلام قال عندما حصر الكلام جعدة بن هبيرة للرهبة التي اصابته وهو على المنبر، ان اللسان لا يستطيع ان يعين الشخص على الكلام اذا توقف عنه بسبب العجز.

عمل القاضي والخطيب

يتحمل القاضي في المجتمع الإسلامي مسؤولية التحقيق في الملفات الحقوقية والجزائية والجنائية وإصدار الاحكام بما يتلائم وموازين الشرع المقدس.

ويتحمـل الخطيب الإسلامي في المجتمع مسؤولية بيان المواضيع الإعتقادية والاخلاقية وأحكام الدين المبين والتحدث بما يطابق الكتاب والسنة.

وبشأن القاضي قدّم الرسول(ص) والأئمة عليهم السلام جملة من التوصيات لحفظ اتزان حالاته الجسمية والنفسية واصدار الاحكام الصحيحة، ومنها:

---

(٦) نهج البلاغة: الخطبة ٢٢٤.

(٧) شرح نهج البلاغة لابن ميثم٤: ١١٣.

عن رسول الله صلّى الله عليه وآله«*انه نهى ان يقضي القاضي وهو غضبان أو جائع أو ناعس*»[٨].

وعن الإمام علي عليه السلام قال لرفاعة«*لا تقض وأنت غضبان ولا من النوم سكران*»[٩].

فقد ينحرف القاضي حين القضاء عن طريق الحقّ اذا كان به غضب أو نعاس، ويصدر احكاماً مخالفة لموازين الشرع المقدس، والخطيب بدوره قد يخرج عن صراط الله المستقيم اثناء الخطبة اذا كان به شيء من غضب أو سنة من نعاس، ويتحدث بما يعارض الكتاب والسنّة، وكلتا الحالتين لا ترضي الله تبارك وتعالى وتضر المجتمع.

فالقضاء الباطل يمكن ان يؤدي إلى اراقة دم بريء أو سحق كرامة مسلم، والخطبة المنحرفة يمكن ان توحي لعدد كبير من الناس عقائد باطلة ليست من الدين في شيء تحت اسم الدين وتضللهم عن طريق الصواب، أو أنْ تغيّر الاحكام الإلهية فتحلل حرام الله وتحرم حلاله، كل ذلك والمستمع يتصور صحة ما يتلقاه.

وبخلاصة: ينبغي بالخطباء اثناء القاء الخطبة كما القضاة اثناء القضاء ان يتمتعوا بسلامة المزاج واعتدال الجسم والروح.

شر القول

كثيراً ما حدث ان تطرق خطيب إلى مواضيع شتى في خطبته لو جرى تحليلها وتفكيكها ودراستها بدقة لجاءت النتيجة ان بعض اقواله تنقض الاخرى، والطريف ان الخطيب لا يقف في مثل هذه الحالات على تناقضاته ولا معظم المستمعين، الاّ ان ينكشف لهم واقع الأمر بعد التحري والتدقيق.

وقد وصف الإمام علي عليه السلام هذا النوع من انواع الخطب بالأشر،

---

(٨) و(٩) مستدرك الوسائل٣: ١٩٥.

وقال(ع):

«شر القول ما نقض بعضه بعضاً»[١٠] .

وفيما يلي عدد من الأمثلة توضح كيف ينقض الخطيب في جانب من خطبته فقرات أُخرى منها:

اولاً: يفتتح معظم الخطباء الاسلاميون كلامهم بآية من القرآن الكريم، ويقول البعض منهم قبل تلاوة الآية:

قال الله تعالى في كتابه....

ويقول البعض:

قال الله تعالى في كتابه الحكيم ....

بينما تقول مجموعة أُخرى:

قال الله تعالى في محكم كتابه ....

لا ضير في أن تقرأ المجموعة الاولى والثانية ما شاءت من آي الذكر الحكيم سواء أكان محكماً اَو متشابهاً، أما المجموعة الثالثة التي ذكرت محكم الكتاب، فعليها ان تتلو آية من المحكمات، أما اذا جاءت بآية متشابهة، فليس لنا الاّ ان نقول ان هذه الآية وهي جزء من خطبة المتحدث تنقض جزءً آخراً من الخطبة استهلها به وقال عنها بانها من محكم الكتاب.

ومعظم الخطباء الذين يفتتحون خطبهم بكتاب الله، فاللفظ يجري على السنتهم مجرى العادة سواءً ذكروا كلمة (محكم) أم لم يذكروها، ونادراً ما يلفتهم مدلولها، وايضاً فان معظم المستمعين لا يتنبه لهذه الملابسة ولهذا لا يطرأ على باله ان الآية تتضارب مع عنوان البحث، الا ان المستمع النابه يلتقط في بعض الاحيان هذا التناقض بين الآية وبين عنوانها الذي ذكره الخطيب وذلك تبعاً لاسلوب الالقاء المتبع.

---

(١٠) غرر الحكم: ٤٤٤.

مثال:

في مستهل بحثه وعنواناً لخطبته يقول الخطيب: قال الله تعالى في محكم كتابه الكريم ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(١١).

بعد توضيح مختصر للآية، يقول الخطيب: هذه الآية الشريفة هي من الآيات المتشابهة في القرآن الكريم، والمقصود هو النظر الى رحمة الله تعالى وعظمته لان عين الانسان لا تستطيع ان تنظر الله سبحانه اكان ذلك في عالم الدنيا ام عالم الآخرة، وتعود هذه الآية المتشابهة الى الآية المحكمة التي يقول فيها تعالى:

﴿لا تُدْرِكُهُ الابْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبْصَار وَهُوَ اَللَّطِيف اَلْخَبِيرُ﴾(١٢).

بقليل من النباهة يستطيع المستمع ان يلمس ان هذه الآية تناقض العبارة التي قالها الخطيب في مستهل حديثه، ويحق له ان يتساءل منه: ألم يفترض ان تقول في بدء الخطبة: قال الله في كتابه، او ان تقول: قال الله تعالى في متشابه كتابه؟

ثانياً: يبحث الخطيب في مجلس ما قضية الرأفة والشفقة، ويقول: اتباعاً للرسول(ص) في سلوكه ينبغي بنا ان نعطف على عباد الله ونرأف بهم ونعاملهم بالحسنى ونتودد اليهم، لا سيما مع الفقراء والمساكين فلا بد من معاملتهم معاملة لا يشعروا معها بالضعة والذل، ثم يستشهد بالرواية التالية:

«روي ان اعرابياً جاء [الرسول(ص)] يطلب منه شيئاً فأعطاه ثم قال له أحسنت اليك؟ قال الأعرابي لا ولا اجلت فغضب المسلمون وقاموا اليه فاشار اليهم أن كفّوا ثم قام ودخل منزله وارسل اليه وزاده شيئاً ثم قال له احسنت اليك؟ قال نعم فجزاك الله من اهلٍ وعشيرة خيرا»(١٣).

فاذا كان من بين المستمعين فقيراً استغل الفرصة بعد حديث الخطيب حول ضرورة الشفقة ورأفة الرسول(ص) بالأعرابي، وقام يطلب من الحاضرين العون

---

(١١) القيامة: ٢٢ ـ ٢٣.

(١٢) الانعام: ١٠٣.

(١٣) كحل البصر: ٩٧.

والمساعدة اثناء الخطبة الأمر الذي ازعج المستمعين وامروه بالجلوس مثلما قام بعض المسلمين ينهون الأعرابي عما ابداه من اساءة لأصول الأدب في محضر الرسول(ص).

هنا لا بد من ملاحظة عما سيفلعه الخطيب ازاء هذا الحادث، وما هو رد فعله حيال عدد من المستمعين الغاضبين، وكيف يتصرف مع الفقير الذي نهض طالباً المساعدة في غير وقتها.

فإذا حذا حذو الرسول(ص)واشار إلى الحاضرين بالتزام الهدوء وعدم التعرض للرجل الفقير، ثم تحدث معه بلسان طيب شفيق ونصحه بالجلوس ريثما تنتهي الخطبة فيطلب له المساعدة من المستمعين، ويخرج من المجلس راضياً قانعاً، عندئذ لا بد من القول ان الخطيب سار على خطى الرسول(ص) ودعا الناس الغائظين للسكوت وتحدث إلى الفقير بمودة وعطف وأسّره بالوعد الذي ضربه له في جمع المساعدة من الناس.

اما اذا لم يمنع الخطيب الناس من التعرض للفقير وسمح ـ بسكوته ـ بأهانته، ثم يخاطبه بصوت قاسٍ ووجه مكفهر ان اجلس واخرس، حينذاك لا بد من القول ان الخطيب لم يسلك سلوك الرسول(ص) بشأن انزعاج الناس وغضبهم، ولم يحل دون تعرضهم له، هذا أولاً، وثانياً: انه وبقسوته على الفقير تناسى قضية الرأفة والشفقة التي كان يبحثها قبل قليل ونقضها عملياً، وبالتالي يمكن القول ان هذا الخطيب وخطبته هو مصداق لحديث الامام[1] علي عليه السلام فيما قال:

«شر القول ما نقض بعضه بعضاً»

الفصل السابع

«اِيّاكَ أنْ تُعجبَ منْ نفسيكَ
واِيّاكَ أنْ تتكلم بما تسبقُ
الى القُلوبِ اِنكارهُ».

الإمام علي بن الحسين(ع)

الخطيب ومعرفة القدر

وضحنا فيما سبق ان على الخطيب الذي ينوي بحث موضوع معين والتوغل فيه ان يكون عالماً به، ليفصل موضوع البحث للمستمع عن وعي ومعرفة ويقنعه بمنطق استدلالي محكم. ولكن، الى جانب هذه المعرفة ينبغي بالخطيب ان يعرف حدّه ويعلم مستواه وقيمة معلوماته كي لا يأخذه الغرور ولا يتخطى حدود صلاحيته العلمية وكفاءته ومقدرته.

والموضوع الذي نخوض فيه الآن، احتلّ حيزاً مهماً من وصايا الرسول الكريم(ص) والأئمة عليهم السلام وتوالت نصائحهم للامة في مراعاة الحد في الشؤون العلمية وسائر امور الحياة، وذكّروابتعابير مختلفة بالأعراض الخطيرة لتجاهل هذا الحد أو جهله.

عن النبي صلّى الله عليه وآله: *«هلك امرءٌ لم يعرفْ قدره وتعدى طوره»*[1].

---

(١) كتاب شهاب: ٥٨.

وعن الإمام علي عليه السلام قال: «*العالم من عرف قدره،وكفى بالمرء جهلًا ان لا يعرف قدره*»[٢] .

ان معرفة القدر او الحد هي من الخطورة. بمكان كبير حتى ان الامام علي عليه السلام وصف تجاوز الحد والقدر دلالة على انعدام العقل، قال(ع):

«*لا عقل لمن يتجاوز حدَّه وقدره*»[٣] .

ومن أجل ان يبين قادة الاسلام وائمته معنى معرفة الحد العلمي ويوضحوا قدر هذه المعرفة، أولوا أهمية بالغة لجميع ابعادها، ومنعوا في بعض الحالات على غير العلماء اطلاق بعض الكلمات أو المصطلحات التي من صلاحية العلماء والمفكرين التحدث بها واطلاقها.

عن أبي عبدالله الإمام الصادق عليه السلام قال: «*للعالم اذا سُئل عن شيء وهو لا يعلمه أن يقول الله أعلم وليس لغير العالم ان يقول ذلك*»[٤] .

هذا الحديث يحدد معياراً ينبغي بالجميع مراعاته، فيعرف كل منّا قدره وحَدَّه دائماً وأبداً، ويتجنب النطق بكلمات ليست من شأنه ومستواه، ولا يتخطى حدود صلاحيته.

فمثلًا: لا ضير في أن يجيب متحدثٌ جليلٌ قضى سنوات طويلة من عمره في مطالعة كتب الأخبار وله إحاطة تامة بأحاديث أهل البيت عليهم السلام اذا سُئل عن احد الاحاديث، لا ضير عليه ان يجيب انني لم اره في بطون الكتب، او ان يقول: لا اتذكر انني لمحته. اما من لم يخض غمار كتب الحديث ومطالعاته فيها لا تعدو كونها سطحية ضئيلة فتستوجب معرفة القدر والحد ان يرد بصراحة على هذا النوع من الأسئلة بكلمة لا اعرف، لا أن يجيب: لم ألحظ هذا الحديث في الكتب، أو يقول: لا اتذكر، فذلك تجاوز للحد يؤدي الى انحطاطه ووضاعته في أعين الآخرين.

---

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ١٠٣.

(٣) غرر الحكم: ٨٤١

(٤) الكافي١: ٤٢.

عن الامام علي عليه السلام قال: *من وقف عند قدره اكرمه الناس، ومن تعدّى حدّه أهانه الناس*[٥].

وما يلزم ذكره هنا: ان على الخطيب الإسلامي ان يعرف حده ويقف عنده ليس من الناحية العلمية فحسب، بل عليه ان يأخذ بعين الاعتبار غيرها من المناحي ولا يتجاوز حدوده فيها، نشير فيما يأتي إلى بعض منها.

النزاهة والتقوى

الخطيب الذي يعرف حدّه من ناحية التقوى والصلاح ويعي انزلاقاته اللغوية، عليه ان ينضم إلى الناس عندما يتربع على كرسي الخطابة، ويقول: لا يحق لنا نحن المسلمون الاغتياب والكذب والفتنة، وطالما استمرت هذه الرذائل الاخلاقية تنخر فينا، فاننا نعاني من الاختلاف والشقاق وسوء الظن. ولكن اذا تجاهل الخطيب سوء لسانه وخاطب الناس فقط بقوله: لا تغتابوا ولا تكذبوا و...، فان خطبته لن تترك الأثر المطلوب في المستمعين، فضلاً عن ان الخطيب بنفسه يكون مصداقاً لقول الامام علي عليه السلام: يقبح على الرجل ان ينكر على الناس منكرات وينهاهم عن الرذائل والسيئات واذا خلا بنفسه ارتكبها ولا يستنكف من فعلها[٦].

الوزن الاجتماعي

يجدر بالخطيب ان يعرف حدّه من ناحية قدره ومكانته الاجتماعية، ويضع لكل مقام مقال ولا يتخطى حده فيستوجب الاهانة مما لا يرضاه الاسلام.

في العهد الإيراني البائد، كان هناك ضابط كبير يشرف على املاك الشاه في منطقة واسعة ويحكم عليها بما فيها جميع الدوائر الحكومية والموظفين.

---

(٥) غرر الحكم: ٦٦٨.

(٦) غرر الحكم: ٨٧٦.

وامر ذات يوم ان يطلب كل من له شكوى ادارية تستوجب الالتقاء به موعداً برقياً مسبقاً فيحدد له وقت معين إن سمح له بذلك والاّ فان الكثير من الفقراء كانوا يدفعون أجر البرقية دون ان يتسلموا جواباً.

مرت الايّام على هذا المنوال حتى دُعي إلى تلك المنطقة خطيبٌ عالمٌ ذكيٌ من قبل بعض المؤمنين لإلقاء بعض الخطب والمواعظ، فلبّى الخطيب الدعوة ولقي ترحيباً واسعاً من الناس الذين كانوا يتقاطرون على مجلسه ويتزايدون يوماً بعد آخر.

وشكت اليه مجموعةٌ من سلوك الضابط الكبير طالبةً من الخطيب ان يحتج على طريقة هذا الضابط في تقبل الشكاوى والإلتقاء بمن يريد الالتقاء به ليزيل هذه البدعة الظالمة.

فقال الواعظ الذكي: لا بد وان افكر ملياً في الموضوع، أمِنَ الصحيح ان احتج ام لا؟، فمر اليوم واليومين دون ان ينبس ببنت شفة حول الموضوع المذكور بينما اخذت تلك المجموعة تصرّ في الطلب وقد غاب عنها ان الأطاحة بهذه البدعة وعشرات البدع الظالمة الأخرى في انحاء البلاد يتطلب كفاحاً جذرياً شاملاً، فاما ان ينتفض الشعب بأسره امام الظلم ويقوض اركان النظام، او يعلن سكان تلك المنطقة ـ على الأقل ـ الاضراب عن العمل ويعتصموا في دائرة البرق والبريد لإيصال اَصواتهم إلى مسامع الطاغوت، والاّ فان استنكار احد الوعّاظ ومهما سكن في قلوب الجماهير لا يستطيع ان يزيل البدعة، بل من المحتمل ان يجر الاحتجاج الواعظ والمجموعة المحرّكة لمواجهة مشاكل جديدة، وقد اتضحت فيما بعد صحة هذا الاحتمال.

وكان بعض رجال الامن قد علموا بما دار بين الواعظ واصحاب الطلب والشكوى ورفعوا به تقريراً إلى المسؤولين قبل ان يتحدث الواعظ بشيء من على المنبر، واستقرت القضية بين يدي الضابط المذكور فامر بمراقبة الوضع ونفي الخطيب فور ان يفتح فاه متحدثاً حول هذه القضية واعتقال العناصر المحرّكة.

فإذا لم يكن الخطيب يعرف حده الاجتماعي وإن كان قد تحدث بشيء حول

سلوك الضابط، لكان قد نفي باهانة وتحقير، والإسلام لا يسمح للمؤمن أن يذل نفسه.

عن الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: «*لا ينبغي للمؤمن ان يذلَّ نفسه*»[٧].

الغرور ومعرفة القدر

من العوامل التي قد تطبع الخطيب بآثار سيئة وتجعله ينسى حدّه على منبر الخطابة ويتجاوز قدره ويحلق في عالم الغرور، هي التعالي العلمي الذي قد تلتحق به في حالات معينة انواع أُخرى من الغرور والتعالي فيتضاعف جهله بحدِّهِ الأمر الذي يحول امام الخطيب ادراك الحقائق ويحجب عنه النظرة الواقعية.

ووصف الإمام علي عليه السلام ضآلة الوعي لدى المغرورين ونسيان اَنفسهم بالسكر، وجاء في الرواية المأخوذة عنه عليه السلام:

«*ينبغي للعاقل ان يحترس من سكر المال وسكر القدرة وسكر العلم وسكر المدح وسكر الشباب فإن لكل ذلك رياح خبيثة تسلب العقل وتستخف الوقار*»[٨].

يواجه الخطيب المتضلع في العلوم نسبياً خطر الغرور العلمي، يضاف اليه غرور الثناء والمديح اِن استحسن الناس منطقه وكالوا له المديح، ويلتحق بهما غرور الشباب لو كان شاباً في مقتبل العمر، وبمقدور عناصر الغرور الثلاثة المذكورة ان تصيبه بالسكر والغفلة وتجعله يجهل حده وينسى قدره وقيمته ويتجاوز نطاقه ويجر نفسه إلى السقوط.

معرفة القدر لدى الشاب

من الأمور التي تستوجب الذكر في بحث معرفة الحد: المسؤولية الأخلاقية

---

(٧) وسائل الشيعة ١١: ٤٢٥.

(٨) غرر الحكم: ٨٦٢.

للشـاب في تكـريم الشيوخ واحترامهم، وهو ما عبّرت عنه التوصيات الاسلامية بأشكال شتى واَكدت على جيل الشباب الالتزام به.

عن الإمام الصادق عن آبائه عليهم السلام قال:«*جاء رجلان إلى النبي صلّى الله عليه وآله شيخ وشاب فتكلم الشاب قبل الشيخ، فقال النبي(ص): الكبير الكبير*»[٩] .

فإذا كان الخطيب الإسلامي وهو المربي الاخلاقي شاباً، فعليه ان يراعي هذا الواجب قبل غيره من افراد المجتمع، ويتحدث بما يحفظ احترام الشيخ والكبير اِن واجهه وهو على المنبر أو في المجالس العادية وتطلب الأمر التحدث اليه أو إنتقاده.

قال صلّى الله عليه وآله:«*بجلّوا المشايخ فإن تبجيل المشايخ من إجلال الله عزّ وجلّ ومن لم يبجلهم فليس منا*»[١٠] .

صفوة القول: فان تخطّي الخطيب لحدّه على كرسي الخطابة يؤثّر سلبياً عليه، ويسمه باعراض وآثار سيئة اشار إلى بعضها الإمام علي عليه السلام في اِحدى كلماته: «*اِيّاك وكل عمل ينفّر عنك حراً ويُذل لك قدراً ويجلب عليك شراً وتحمل به يوم القيامة وزراً*»[١١]

عن ماذا يتحدث؟

قبل ان يستقر المقام بالخطيب على منبر الخطابة عليه ان يعلم: ماذا يريد ان يقول وعن ماذا يتحدث؟ وما سيورد من آيات وروايات وتواريخ واحداث واشعار واَمثال وغير ذلك؟ ان معرفة الهدف تحدد القناة التي سيسير فيها الخطيب، وتعطيه الثقة بالنفس والسلطة المعنوية وترفع من قدرته الروحية وتصونه من القلق والتشتت الفكري، ليطوي مسير كلامه بذهن مستقر خالٍ من التشويش والاضطراب دون

---

(٩) و(١٠) مشكاة الانوار: ١٦٨.

(١١) غرر الحكم: ١٥٦.

ان يتعثر في كلامه او يقفز في خطبته من موضوع لآخر.

وعلى عكس هذا، الخطيب الذي لم يحدد هدفاً له يهتدي اليه، ولا يدري ماذا يريد ان يقول واية مواد يبني منها خطبته، فكره قلق وذهنه مشتت مضطرب، وهو اشبه مايكون بالأعمى الذي يتلمس طريقه عند المشي، مع كل خطوة اضطراب وقلق، ولا يدري اين يؤدي به المسير وإلى اين ينتهي به، وماذا سيواجه من مطبّات.

عن الامام علي عليه السلام: «*فكّر ثم تكلم تسلم من الزلل*»[١٢].

وعنه عليه السلام قال: «*قَدّر ثم اقطع وفكّر ثم انطق وتبيّن ثم اعمل*»[١٣].

في الحديث اعلاه، يريد الامام عليه السلام من الخطيب ان يعرف ان لسانه كالمقص في يد الخيّاط الذي يفترض به ان يقطع بعد ان يقدّر المقاس ويحدد الحجم المطلوب، كذلك ينبغي بالخطيب ان يفكّر ويحدد موضوع بحثه ثم يطلق لسانه ليتحدث بما حُصِر من قبل وحُدّد.

ويصاب بعض الخطباء بالغرور لقدرته على الكلام ومعلوماته النسبية وثناء الناس عليه متصوراً استغناءه في الخطابة عن تحديد الموضوع ومحتوياته، فيرتقي منبر الخطابة ويلهج بما يشاء وبما يمر على لسانه دون هدف معتقداً بانه فنان ماهر وخطيب بارع وقد غاب عنه ان الخطبة اللاهادفة الجوفاء ليست الاّ لغواً من الكلام.

ومثل هذا الخطيب وبخطاباته الارتجالية يفرّق الناس عنه ويبث فيهم اليأس والقنوط ويفرط شيئاً فشيئاً بمكانته الاجتماعية وشخصيته.

كيف يتحدث؟

مثلما يلزم بالخطيب وقبل البدء بخطبته أن يأخذ بعين الاعتبار مواد بحثه ويعلم ماذا يريد قوله في المجلس، ينبغي به ايضاً ان ينظّم مواد البحث في ذهنه، ويعلم: من اين يبدأ حديثه، وكيف يستخدم عناصر موضوعه، واين؟ واين ينهي كلامه؟ فتنظيم

---

(١٢) و(١٣) فهرست الغرر: ٣١٥.

محتويات البحث في الذهن هو من جملة القضايا المهمة في فن الخطابة.

بعبارة ثانية: فان عناصر البحث للخطبة هي بمنزلة الطابوق والاسمنت والحديد والمواد الإنشائية الأخرى للمبنى، وتنظيم عناصر الخطبة يماثل استخدام كل نوع من المواد الإنشائية في مكانها المناسب، فالمهندس يشيد مبنىً متزناً باستخدامه تلك المواد الاستخدام المناسب، وكذلك الخطيب البارع يبني خطبة جميلة متناسقة من تنظيم المواد المدخرة في ذهنه.

عن الإمام علي عليه السلام قال: «*احسن الكلام ما زانه حسن النظام وفهمه الخاص والعام*»[١٤].

ان الخطيب الذي يتربع على كرسي الخطابة دون ان يدري ماذا يريد ان يقول، أو كيف يريد ان يتحدث تعترضه على الدوام اخطار الإنزلاق والعثرات، وقد يتفوه ـ دون إرادة منه ـ خلال خطبة غير مخطط لها بجملة خاطئه او بعبارة في غير حق فيقع اسيرها إلى خاتمة حياته.

عن الإمام علي عليه السلام قال: «*الكلام في وثاقك ما لم تتكلم به واذا تكلمت به صرت في وثاقه*»[١٥].

ويحدث أحياناً ان يتذكر الخطيب أثناء القاءه الخطبة موضوعاً طريفاً يستحق أن يدرج مع البحث، مما يتطلب منه ان يقطع سلسلة حديثه ليطرق الموضوع ثم يعود إلى نقطة القطع ويواصل خطبته.

وهنا يلزم بالخطيب ومن اجل ان لا يضيّع مقطع بحثه ولا يفرط سلسلة الحديث عنده وعند المستمع، ان يضع في ذهنه علامة عند نقطة القطع ليستطيع الاستهداء بها والعودة إلى صلب بحثه ومقطع كلامه المقطوع ليواصله من جديد.

والخطيب الذي ينظّم في ذهنه مواد موضوع بحثه ويعلم بدايته ونهايته، يستطيع

---

(١٤) فهرست الغرر: ٣٣٢.

(١٥) نهج البلاغة: الكلمة ٣٨١.

بسرعة ان يأخذ بمقطع كلامه المؤشر عليه بعلامة ذهنية ويستمر بخطبته بنفس النظم الذي اَعدّه لها.

اما المتحدث الذي يستغني سكراً وغروراً ـ عن تنظيم مواد بحثه ويتكلم بأضطراب دون نظم فكري، فان حديثه يزداد تشتتاً واضطراباً اذا ما قطع كلامه بموضوع هامشي حتى وإنْ وضع عليه علامة ذهنية، ذلك ان اصل البحث كان يفتقد للنظم فلا يلبث ان يستمر بكلامه اللامنتظم، والمستمع بدوره لا يستطيع ان يلتقط الصورة الصحيحة لمجموع البحث ويحفظه في ذاكرته كنتيجة يخرج بها منه.

نقل المسموع

شأن الخطيب في المجتمع كسائر الناس، فقد يسمع من هذا وذاك أحياناً أموراً يرى إنَّ بعضها لا يخلو من الطرافة والجذابية، فتحدوه رغبة في إدراج بعض ما سمعه في خطبه والاستشهاد به، فهل هي صحيحة هذه الطريقة، وماذا يقول عنها اَئمة الدين؟

يجيب الإمام علي عليه السلام على هذا السؤال في رسالة كتبها إلى الحارث الهمداني، يقول(ع):

«لا تحدّث الناس بكل ما سمعت به فكفى بذلك كذباً، ولا ترد على الناس كلما حدثوك به فكفى بذلك جهلاً»[١٦] .

وعنه عليه السلام قال: *«لا تحدث الناس بكل ما تسمع فكفى بذلك خُرقاً»*[١٧] .

فإذا تجاها المتحدث هذه النصائح الحكيمة غروراً منه، وقال للناس كل ما سمعه دون تحفّظ ، فانه سيفقد بعد فترة وجيزة قيمة كلامه ويُرمى بالكذب.

---

(١٦) نهج البلاغة: الرسالة ٦٩.

(١٧) فهرست الغرر: ٣٣٧.

وعلى المرء الحريص على حفظ كرامته وعزه الاجتماعي ان يتجنب التحدث فيما سمعه مما يحتمل فيه الكذب ومما لا يصدَّق، لكي لا يجعل من نفسه عرضة لإتهام الآخرين، وهذه من وصايا الإمام علي عليه السلام حيث يقول: «*لا تحدّث بما تخاف تكذيبه*»[١٨].

وعلى هذا، فان مراعاة هذا الواجب العقلي هو ضرورة لازمة لعامة الناس واكثر ضرورة للخطيب البارع، ذلك انه يسترعي انتباه الناس له لحسن بيانه وجودة صوته ونفوذ خطبته، ويجتذب قلوبهم نحوه، وهذا ما يحرك الحسّاد والذين يتربصون له لتوجيه ضربة إلى مكانته الاجتماعية والتقليل من منزلته في قلوب الناس.

وأحد السبل لتوجيه هذه الضربة هو التشبث بغرائب المسموعات التي ينقلها الخطيب، والإيحاء للآخرين بانها من مستحيلات الحدوث وبالتالي نفيها وتكذيبها جملة وتفصيلاً.

وكان مما حذر منه الإمام علي عليه السلام هو سلوك الحسّاد تجاه المتحدث الحسن البيان، وأوصى بتجنب نقل ما يسمع من موضوعات غريبة حفاظاً على منزلته، قال(ع):

«*من طال لسانه وحسن بيانه فليترك التحدث بغرائب ما سمع فان الحسد لحسن ما يظهر منه يحمل اكثر الناس على تكذيبه*»[١٩].

انعكاسات الخطبة

من المسائل المهمة التي يجدر بالخطيب العالم المؤثّر في كلامه ان يعيرها أهمية بالغة، هي التدقيق فيما يريد ان يتحدث حوله ويبحث فيه. فعلى الخطيب البارع وقبل ان يبدأ خطبته ان يقلّب موضوعها من عدة جهات، ويأخذ بعين الاعتبار ردود الفعل

---

(١٨) غرر الحكم: ٨٠٠.

(١٩) شرح ابن أبي الحديد: الكلمة ٨٥٨.

التي سيثيرها من جوانب مختلفة، ثم يلقيها على مسامع الحاضرين بعد دراسة كافية واحاطة تامة بآثارها.

واذا لم يؤد هذه المهمة الأساسية بالشكل المطلوب ولم يتمعن في جميع جوانب الخطبة، فربما سيواجه حادثاً طارئاً مراً يضطر بعده إلى الاعتذار من المستمعين خجلاً، وقد لا يبلغ اعتذاره جميع المستمعين ولا يقدر على تعديل انحرافهم الفكري الناجم عن الافكار التي طرحها في خطبته، فيعاني طيلة عمره من العذاب النفسي.

قال الإمام السجاد عليه السلام للزهري: *«اياك وان تعجب من نفسك واياك ان تتكلم بما تسبق إلى القلوب انكاره وان كان عندك اعتذاره فليس كل من تسمعه شراً يمكنك ان توسعه عذراً، ثم قال: يا زهري من لم يكن عقله من اكمل ما فيه كان هلاكه من ايسر ما فيه»*[٢٠].

ويقول العلّامة المحدث القمي رضوان الله تعالى عليه في المجلد الأول لسفينة البحار، مادة (زهر) حول محمد بن مسلم الزهري:

اختلفت كلمات علمائنا في مدحه وقدحه. ثم ينقل بعض آراء الكبار فيه.

وقد كتب الامام السجاد عليه السلام كتاباً إلى الزهري يحوي نصائح وعظات، يستخلص منها انه انحرف عن جادة الحق في مسير حياته وأخذ يخدم الطواغيت في حكم بني امية وجعل من نفسه وسلة لتحقيق مآربهم اللامشروعة. ومما قاله الامام السجاد عليه السلام في كتابه المذكور:

«جعلوك قطباً اداروا بك رحى مظالمهم وجسراً يعبرون عليك إلى بلاياهم وسلّماً إلى ضلالتهم داعياً إلى غيهم سالكاً سبيلهم يدخلون بك الشك على العلماء ويقتادون بك قلوب الجهال إليهم»[٢١].

وينشأ التأثير السلبي والصدى السيّء الذي يتركه حديث الخطيب الاسلامي

---

(٢٠) سفينة البحار١: ٥٧٣.

(٢١) تحف العقول: ٢٧٥.

في قلوب المؤمنين الذين يتسابقون إلى انكاره، عن عاملين:

الأول: الانحراف الفكري، والثاني: التحدث بما هو ليس موزون، وفي كلتا الحالتين، يتوجب على المتحدث المبادرة إلى إصلاح نفسه والعناية اكثر فاكثر بأقواله.

الانحراف الفكري

قد يكون الخطيب رجلًا عالماً واعياً يميز الحق عن الباطل ويحدد الصحيح عن الخطأ، لكنه ينحرف فكرياً بأثر ميله وركونه إلى حكم فترته الطاغوتي ـ كما هي الحال مع الزهري، فينحرف نحو الباطل أحياناً ويوافق الخطأ ارضاءً للحكم.

ومن جملة حكام الجور في تلك الفترة الزمنية، هو عبد الملك بن مروان الذي لم يتورع عن ارتكاب الأثم والتجرؤ على الذنب.

قالت له أُم الدرداء: بلغني انك شربت الطلى بعد العبادة والنسك، فقال أي والله والدماء أيضاً شربتها[٢٢].

ووصلت الجرأة والجسارة بهذا العنصر الظالم على دين الله انه قال على المنبر بتمام الصراحة.

لا يأمرني أحد بتقوى الله الا ضربت عنقه[٢٣].

يقول من حضر عبد الملك بن مروان وهو يخطب الناس بمكّة: لما صار الى موضع العظة من خطبته قام اليه رجل فقال: مهلًا مهلًا، انكم تأمرون ولا تأتمرون، وتنهون ولا تنتهون، وتعظون ولا تتعظون، افاقتداء بسيرتكم؟ أم طاعة لأمركم؟ فان قلتم: اقتدوا بسيرتنا فكيف نقتدي بسيرة الظالمين؟ وما الحجة في اتّباع المجرمين الذين اتخذوا مال الله دوَلاً، وجعلوا عباد الله خولاً، وإن قلتم: أطيعوا اَمرنا واقبلوا نصحنا، فكيف ينصح غيره من يغش نفسه؟ أم كيف تجب طاعة من لم تثبت عدالته؟

---

(٢٢) الإمام الصادق ١ و٢: ١١١.

(٢٣) ن. م.

وإن قلتم خذوا الحكمة من حيث وجدتموها، واقبلوا العظة ممّن سمعتموها، فلعل فينا من هو أفصح بصنوف العظات، واعرف بوجوه اللغات منكم، فزحزحوا عنها، اطلقوا اقفالها، وخلّوا سبيلها، ينتدب لها الذين شردتموهم في البلاد، ونقلتموهم عن مستقرهم إلى كل واد، فوالله ما قلدناكم أزمّة أمورنا، وحكمناكم في أبداننا وأموالنا وأديانناً لتسيروا فيها بسيرة الجبارين، غير أنّا نصبّر [أنفسنا] لاستيفاء المدة، وبلوغ الغاية، وتمام المحنة، ولكل قائل منكم يوم لا يعدوه، وكتاب لا بد ان يتلوه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الّا احصاها ﴿وسيعلم الذين ظلموا ايّ منقلب ينقلبون﴾.

قال: فقام إليه بعض أصحاب المسالح فقبض عليه، وكان ذلك آخر عهدنا به، ولا ندري ما كانت حاله[٢٤].

وبطبيعة الحال فان الزهري قد انحرف فكرياً لارتباطه بهذا الحاكم الظالم، فكان يستغل معلوماته في بعض الأحيان لصالح الطاغوت ويعوج عن الصراط الالهي المستقيم ويغيض المؤمنين فكانوا يسارعون إلى إنكار وتكذيب أقواله.

وكان الإمام السجّاد عليه السلام يقدم له النصائح ليعرّفه بخطأه ويهديه إلى الطريق الصحيح لعله يقطع ارتباطه بطاغوت ذلك الزمان وينتشله من هذه القيود الآسرة.

وفي عصرنا هذا يحكم الكثير من البلدان الإسلامية طواغيت تابعين للقوى الاستكبارية، يعينهم في البقاء على عرش السلطة والاستمرار بالحكم بعض علماء الدين المنحرفين من أمثال الزهري من أجل المال والمنصب، فيصوّرون ـ في بعض الأحيان ـ الباطل حقاً، فيحرّمون الحلال ويحلّلون الحرام إرضاءً لحكام الظلم والجور، فيغضب الله عليهم والمؤمنون الصادقون.

وقد حاول الخليفة العباسي المنصور الدوانيقي ان يجرّ الإمام الصادق عليه السلام لهذا اللون من العلاقة، فدعاه إلى البلاط ليستغله لصالح سلطته، فقال له:

---

(٢٤) امالي الشيخ المفيد: ٢٨٠.

انك تصحبنا لتنصحنا. فردّ عليه الإمام الصادق(ع) رافضاً العرض:

من اراد الدنيا فلا ينصحك ومن اَراد الآخرة فلا يصحبك[٢٥].

وبإيجاز: فان احد الأسباب التي تؤدي بالخطيب الى اعوجاج في كلامه وتدفع المؤمنين إلى إنكاره، التعاون مع الطواغيت وتأييد افكارهم ومواقفهم، ومن الطبيعي فان معاشرة اصحاب العقائد الباطلة أو قراءة الكتب المنحرفة قد تؤدي أيضاً إلى انحراف افكار الخطيب.

الحديث اللاموزون

السبب الآخر الذي يثير المستمع لإنكار اَقوال الخطيب ويفتح فاه محتجاً عليها هو الحديث اللاموزون، ولدينا نماذج كثيرة تنطبق على هذا، نكتفي بذكر مثال تاريخي:

كان عبيدة بن الزبير والياً على المدينة من قبل أخيه عبدالله بن الزبير، ويوماً قال في إحدى خطبه موجهاً كلامه إلى الناس: لا بد اِنَّكم سمعتم ما فعل الله بقوم صالح من أجل ناقة قيمتها خمسة دراهم وكيف عذبهم عليها ـ ويقصد بالناقة ناقة صالح التي كانت من آيات الله الكبرى ومعجزة صالح ـ وقد اطلق عليها تبارك وتعالى في القرآن الكريم (ناقة الله) فتعقّبها القوم وقتلوها.

لقد قيّم عبيدة بني الزبير هذا الأثر الإلهي المقدس بخمسة دراهم، وقلّل من اَهميّة الناقة، مما انكر عليه المستمعون هذا الأمر واحتجوا عليه ولقّبوه بـ(مقوّم الناقة)، وانتشر هذا اللقب بين العامة في المدينة التي اخذت تسخر من الوالي بهذا اللقب، فاضطر عبدالله بن الزبير إلى عزله عن الولاية. وتنصيب أخيه الآخر (مصعب) مكانه، وكانت العبارة غير الموزونة التي ذكرها الوالي السابق هي السبب في كل ما حصل.

---

(٢٥) الإمام الصادق ١و ٢: ١٠٨.

ذكر العددوالرقم من قبل الخطيب أو المرء العادي ربما يؤدي أحياناً إلى الخجل بعد ان يتضح خطأه وبطلانه بالمحاسبة، فينبغي بالخطباء اذن ان يتجنبوا ذكر الاعداد، ويكتفوا ـ اذا اقتضت الضرورة ـ بالاشارة دون تحديد الرقم كقولهم (جمع كبير) أو (عدد هائل) وأمثال هذه المصطلحات بدلاً من ذكر الرقم الدقيق.

الفصل الثامن

«إيّاكَ والرَّجاء الكاذبَ فإنَّهُ يُوقِعكَ في الخوف الصادق».

الإمام الباقر(ع)

الخطيب والفصاحة

على الخطيب ان يستخدم في كلامه كلمات ومصطلحات وعبارات انسيابية وواضحة بالنحو الذي تفهمه العامة، ويتجنب الإتيان بالفاظ معقدة غير مألوفة، ذلك ان هذه الالفاظ تثقل على الكثير من المستمعين وتتعبهم لعدم استيعابهم لمعانيها، وبالتالي تقف حائلاً امام حسن إصغاءهم.

على سبيل المثال: إرتقى أحد الوعاظ منبر الخطابة في أحد المساجد في اليوم الاول من شهر رمضان وكان مستوى الحاضرين لا يتعدى قدرتهم على القراءة والكتابة، فتحدث حول الصوم وذكر مراراً عبارة: يجب على الصائم كفّ نفسه عن المفطرات، فيما لم يفهم الكثير من المستمعين ماذا يعني مصطلح (كف النفس)، فإرتفعت الأصوات تتساءل فيما بينها وثار لغط في المجلس عن ماذا يعني هذا المصطح لكثرة تكراره.

عن الإمام علي عليه السلام قال: *«احسن الكلام ما لا تمجّه الآذان ولا يتعب فهمه الأفهام»*[1].

---

(١) الفهرست الموضوعي لغرر الحكم: ٣٣٢.

وتـارة يتكلم المتحدث بالفاظ سهلة الفهم يسيرة الهضم لا تحتوي التعقيد والغرابة، لكن التكرار والتركيب يبعد الحديث عن الفصاحة ويجعل معظم المستمعين في متاهة عن هدف المتحدث كما في البيتين الشعريين التاليين:

ولا الـضـعـف حتـى يبـلغ الـضـعـف ضعـفـه

ولا ضعــف ضعــف الــضـعـف بل مثـله ألـف

وقــبر حرب بمــكــان قفــر

ولــيس قرب قبر حرب قبرُ

والأسباب التي تخل بفصاحة الكلام وتثقل على المستمع عديدة لا ضرورة لذكرها جميعاً في هذا البحث القصير.

فصاحة المتكلم

الخطيب الفصيح هو المتمكن بالمقدار اللازم من المفردات الفصيحة والكلمات الانسيابية.الذي يستطيع ان يستخدم هذه المفردات بسهولة لتوضيح أي موضوع، هذا من جهة، ومن جهة أُخرى يمتلك استعداداً فطرياً وذوقاً طبيعياً بحيث يستطيع ان يكوّن من تلك المفردات الفصيحة والجميلة التي يختزنها في ذهنه جُمَلاً مسبوكة جذابة ويبين هدفه في قالب يستقطب المستمعين نحوه.

وهناك الكثير ممن يحتفظ في الذاكرة بخزين كبير من المفردات الفصيحة لكنه لا يستـطيع لفقـدان ملكة الفصاحة من استخدام تلك المفردات بالنحو المطلوب، وصياغة تلك الكلمات في قالب جميل يُبنى منه كلامٌ فصيحٌ مستساغ

وهم في ذلـك كالمتعلمـين المثقفـين الذين يحتفظون بمعلومات كثيرة لكنهم يفتقدون إلى نعمة القدرة على البيان، لذا لا يستطيعون الانتفاع بهذه المعلومات في مجال الخطابة وتوضيح عُشرها للآخرين.

السيطرة على الاداء

يجدر بالخطيب الفصيح ان يبدع الكلام، ويسيطر على أداء الكلمات وصياغة الجمـل بحيث لا يواجـه عند الإلقاء طريقاً مغلقاً، ولا يتوقف بحثاً عن المفردات والكلمات المناسبة، لأنَّ تعثّر الخطيب يؤثّر على المستمعين ويعرقل أيضاً استيعابهم للموضوع وايداعه في الذاكرة.

بعبارة ثانية: الخطيب هو الذي يستطيع أن يصب قضايا بحثه في قالبِ ألفاظٍ فصيحةٍ جميلة وجمل بليغة وافية بلا تكلّف وعناء، ويوصل إلى أسماع الحاضرين ما يشاء ببيان واضح، ويفهمهم هدفه.

فعلى مَنْ ينوي الدخول في سلك الخطابة أن يتمرّن على الكلام حتى يصبحَ على لسانه كمادة الشمع المرَنِ في يده ليشكّله بسهولة ويسر بالصورة التي يرغب، وهذا شرط أساسي من شروط الخطابة.

وقـد صاغ الإمام علي عليه السلام الذي كان يقف على قمة الفصاحة في الخطابة قدرته وسلطته على الكلام في قالب عبارة قصيرة وتشبيه جميل، قال(ع):«*وانّا لأُمراء الكلام وَفينا تشبثت عُروقه وَعلينا تَهدَّلت غُصونه*»[٢] .

ضرورة التمرّن

يجب على من يرغب في ان يصبح خلّاقاً للكلام مسيطراً على أداء الكلمات وتركيب الجُمَل أن يضع لنفسه برنامجاً للتمرّن، ويتحدث كل يوم حول واحدة من الآيات القرآنية أو الروايات أو إحدى الوقائع اليومية، لعدة مرات وبعبارات مختلفة، وليكن مستمعو حديثه اثنين من اصدقاءه أو أن يستمع هو بنفسه، والأحرى به ان يُسجّل أحاديثه على أشرطة تسجيل ثم يستمع إليها في آخر النهار ليقف على نقائص أقواله ويتجنبها في المرات القادمة.

---

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ٢٢٣.

فإذا واصل هذا التمرين لفترة من الزمن واختار له كل يوم مادة جديدة، فلن يمر وقت طويل حتى يصبح الكلام له ملكة نفسية تستقر في جوهر ذاته، وعندئذ يستطيع أن يتحدث بسهولة وفي حدود معلوماته حول أي موضوع يشاء، ويتناوله بالبحث والتحليل دون تكلف وعناء، ويصوغ تفاصيله في قالب الفاظ وعبارات ملائمة ليعرضها على المستمعين فى التجمعات والمجالس.

فلا بد للذي ينوي السباحة في مسبح واسع كبير أو في البحر، ان يتمرن اولاً في أحواض صغيرة غير عميقة ليتعلم فنون السباحة ويثق بقدرته على هذا اللون من الرياضة، ثم يحق له بعد ذلك من دخول أحواض السباحة الكبيرة وقطعها طولاً وعرضاً دون ان يهدد سلامته شيء.

والقاء الخطب في المجالس الكبيرةالتي يحضرها آلاف الأشخاص من مختلف الفئات يماثل السباحة في الاحواض الكبيرة والبحار، فمن ينوي ارتقاء منابر الخطابة في مثل تلك المجالس عليه ان يتمرن على هذا الفن في أجواء أصغر ليمسك بالمفردات والجمل، ويستطيع التحدث في المجالس الاكبر بإقتدار، ثم يغادر منبر الخطابة فخوراً مرفوع الرأس.

أمّا اذا أوحى الشخص لنفسه كاذباً بالقدرة على السباحة أو كفاءة الخطابة، ورمى بنفسه في حوض كبير للسباحة أو جلس على كرسي الخطابة دون تلقّي التدريبات الكافية، فمن المؤكّد انه سيعض على اصابع الندم ويلحقه العار والشنار.

نتائج هذه الحالة وضحها الإمام الباقر عليه السلام في عبارة قصيرة وبليغة، قال(ع) لجابر الجعفي:

«اياك والرجاء الكاذب فانه يوقعك في الخوف الصادق»[٣] .

فيفترض بالتلميذ الذي ينوي الإشتراك في الإمتحانات النهائية للدراسة الاعدادية ان يخصص من وقته المحدد شهوراً عديدة للتهيؤ والاستعداد والدراسة

(٣) تحف العقول: ٢٨٥.

وحل التمارين والمذاكرة، اما لو أمضى هذه الفترة بالبطالة، وقال لأبويه وأَصدقائه: ان لي أمل كبير بالنجاح، فانه سيقع أخيراً في الخوف الصادق لأَن أمله هذا أمل كاذب لا يستند إلى حقيقة.

الجمال

الجمال من الأمور التي تكسو المرء في المجتمع حباً ووداً، وتقربه إلى قلوب الاشخاص سواء أكان الجمال ظاهرياً يكشف عن خلق الله أو معنوياً يعبر عن الجمال الأخلاقي أو أي جانب آخر للجمال.

وفصاحة البيان وجذابية الكلام للشخص الفصيح يعد نوعاً من الجمال، فيسترعي إهتمام المستمعين حينما يحرك شفتيه ويتحدث، وتتسمر العيون نحوه، وتصغي الآذان اليه برغبة وشوق، وقد وصفت بعض الأحاديث الشريفة فصاحة الكلام بالجمال:

سَمع النبي صلّى الله عليه وآله عن عمّه العباس كلاماً فصيحاً فقال له: «*بارك الله لك يا عم في جمالك أي فصاحتك*»[٤].

وسُئل العباس عمّ الرسول(ص)، أهو أكبر أم رسول الله، فأجاب:

«*رسول الله أكبر وأنا ولدت قبله*».

وجاءت في القرآن الكريم والاحاديث الشريفة وكلام بعض كبار الأدباء عبارات قصار تنم عن كمال الفصاحة، نذكر فيما يلي نماذج منها مراعاة للاختصار:

قال تعالى:

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصاصِ حيوةٌ﴾[٥].

فبالاضافة إلى الفصاحة العالية التي تنطوي عليها هذه الآية المباركة، فهي

---

(٤) المستطرف١: ٤١.

(٥) البقرة: ١٧٩.

تحمل في طيّاتها نقطتين دقيقتين:

أولاً: رغم ان الموت والحياة يقفان مع بعضهما موقف النقيض والتضاد، فان الله سبحانه جعلهما في هذه الآية إلى جانب بعضهما وذكرهما سويةً باعتبار ان موت القاتل يوفر ظروف حياة المجتمع.

ثانياً: ذكّرت الآية أعلاه المسلمين ان قانون القصاص في الإسلام لا يهدف إلى الأخذ بالثأر والتشفّي من القاتل، بل سببُ سنِّه هو رعاية مصلحة المجتمع وحفظ حياة الناس.

وللامام علي عليه السلام الكثير من الكلمات الغنية بمحتواها التي تقف على قمة الفصاحة، نورد أدناه ثلاثة منها:

فقد جمع عامر الشعبي تسعة من قصار الكلمات للامام(ع)، وقال عنها انها مبعث فخر لكبار الفصحاء وعنصر جمالهم، الثّلاثة الاولى منها قالها الامام(ع) في مقام الدعاء في الحضرة الإلهية المقدسة.

«الهي كفى بي عزاً ان أكون لك عبداً وكفى بي فخراً ان تكون لي رباً انت كما احب فاجعلني كما تُحب»[٦].

فبوسع الانسان ان يكون حراً متى ما تحرر من ذل عبودية الاهواء والشهوات والمال والمنصب والجاه والشهرة وغيرها من عوامل الأسر ليصبح عبداً خالصاً لله تبارك وتعالى وينال هذا العز والفخر.

وبإستطاعة الإنسان ان يعيش مستقلاً ليس عبداً لشيء أو أحد متى ما اخلص العبودية لله وافتخر به رباً، وهو ما خلصت اليه الكلمتان الاولى والثانية للامام علي عليه السلام.

ويقول الشاعر الفرزدق وهو من أُدباء عصره: قدمت إلى مكّة لحج بيت الله الحرام في عام ٦٠ للهجرة في وقت كان الإمام الحسين عليه السلام يغادرها مع أصحابه

---

(٦) بحار الانوار٧٤: ٤٠٠.

وعائلته نحو العراق، فتشرفت في الطريق بالحضور عنده وسألني بعد حوار قصير:

أخبرني عن الناس خلفك؟

فقلت له: قلوب الناس معك وأسيافهم عليك والقضاء ينزل من السماء والله يفعل ما يشاء[٧].

بهذه العبارات القصيرة الفصيحة وضّح الفرزدق للإمام(ع) الوضع الاجتماعي في الكوفة، وأنبأه عن باطن الناس وظاهرها، وهو في الحقيقة أنذر بكلماته القصيرة هذه بالخطر، وبيّن للامام(ع) ما سيواجهه في طريقه، ثم ختم كلامه مشيراً إلى القضاء الإلهي والمشيئة السماوية التي قد تغير الميزان وتقلب الأمور.

اختيار المفردات

تارة تحضر الخطيب اكثر من كلمة فصيحة تعبر عن موضوع معين، وكل مفردة من تلك المفردات تفي لوحدها بالمعنى، الّا ان إحداها أجمل من غيرها واخف على أُذن السامع من بقية الكلمات، مثل (سانحة، حادثة، واقعة) أو (رد فعل، إنعكاس، صدى)[٨]. فاستخدام الخطيب الفصيح للكلمةِ الأجمل يضفي على كلامه جَمالاً خاصاً يسحر السامعين.

واذا أَراد الخطيب ان يحيط علماً بالالفاظ الجميلة بالنحو الذي يسهل عليه استعمالها بيسر اثناء الإلقاء، فعليه ان يصحب معه دفتراً صغيراً اثناء التمرن وعند الخطابة أَيضاً ليثبت فيه أي كلمة أو جملة جميلة تصل أُذنيه أو تمر على عينيه عند القراءة، ويحتفظ بها في ذاكرته ليستعملها اثناء الخطابة بما يناسب البحث.

---

(٧) نفس المهموم: ١٧٠.

(٨) قد لا تكون الكلمة الاجمل من بين عدد من الكلمات التي تفي بنفس الغرض في لغة، ترجمتها هي الاجمل في لغة أُخرى، لهذا السبب حذفت سطراً هنا ذكر المؤلف (مع الاعتذار منه) فيه الكلمة الاجمل في لغته من بين المذكورة اعلاه داخل الاقواس، والضروري ذكره أَيضاً هنا هو اختيار الكلمة الانسب لفقرة البحث، فمثلاً يمكن ان نقول حادثة طريفة ولا يمكن القول كارثة طريفة، أو سانحة طريفة، فلكل مقام مقال [المترجم].

السمات الفطرية

اللسان الفصيح شأنه شأن الصوت الرخيم والطبيعة الشعرية والموهبة الفكرية والذاكرة القوية وغيرها من المزايا المماثلة يعد من الودائع الإلهية والذخائر الفطرية توجد فيمن يلد وهو يحمل هذه السمات، وتبرز منذ الطفولة كفاءة الاشخاص الذين تتوفر فيهم هذه الفضائل فطرياً بنحو شعوري أو لا شعوري ، وتتكشف في مرحلة الصبا والشباب مميزة إياهم عن غيرهم وتسمو بهم على من سواهم، وننقل فيما يأتي استشهادين تأريخيين يتلائمان وموضوع البحث حول فصاحة المتكلم.

لما اَفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز اتته الوفود فاذا فيهم وفد الحجاز فنظر إلى صغير السن وقد اَراد ان يتكلم، فقال: ليتكلم من هو أَسَنُّ منك فانه أحق بالكلام منك.

فقال الصبي: يا أمير المؤمنين لو كان القول كما تقول لكان في مجلسك هذا من هو أحق به منك.

قال: صدقت فتكلم.

فقال: يا أمير المؤمنين أناٌ قَدِمنا عليك من بلد نحمد الله الذي منّ علينا بك، ما قدمنا عليك رغبة منا ولا رهبة منك، أما عدم الرغبة فقد أمنا بك في منازلنا، وأما عدم الرهبة فقد أمنا جورك بعدلك، فنحن وفد الشكر والسلام.

فقال له عمر: عظني يا غلام.

فقال: يا أمير المؤمنين ان أُناساً غرّهم حلم الله وثناء الناس عليهم،فلا تكن ممن يغرّه حلم الله وثناء الناس عليه فتزل قدمك وتكون من الذين قال الله فيهم:

﴿وَلا تَكونُوا كَالّذيَن قالوُا سَمِعنا وَهُم لا يَسمَعُونَ﴾(*).

فنظر عمر في سن الغلام فإذا له اثنتا عشرة سنة(٩).

العبارتان اللتان جاءتا على لسان الصبي رداً على عمر بن عبد العزيز بالبديهة

(*) الانفال: ٢١.

(٩) المستطرف١: ٤٦.

ودون تفكير مسبق، جديرتان بالإهتمام:

فاولاً: طلب عمر الكلام ممن هو أكبر منه سناً لانه أحق بالكلام، فأجابه الغلام انه اذا كان المعيار هو السن فان هناك من هو أحق بالخلافة منك في هذا المجلس.

وثانياً: طلب عمر من الغلام أن يعظه، فوعظه موعظة إرتجالية تناسب المقام فهذه الفصاحة المدهشة في سنوات الطفولة ليست إلا موهبة إلهية واستعداد فطري.

سُئل الامام علي عليه السلام: من افصح الناس؟ قال: «*المجيب المسكت عند بديهة المقال*»[١٠].

حكي ان البادية قحطت في أيّام هشام بن عبد الملك فقدمت عليه العرب فهابوا أن يكلموه وكان فيهم درواس بن حبيب وهو إبن ست عشرة سنة له ذؤابة وعليه شملتان فوقعت عليه عينا هشام فقال لحاجبه: ما شاء احد ان يدخل عليّ إلّا دخل حتى الصبيان، فوثب درواس حتى وقف بين يديه مطرقاً، فقال: يا أمير المؤمنين ان للكلام نشراً وطياً وانه لا يعرف ما في طيه الا بنشره فان اذن لي أمير المؤمنين أن أنشره نشرته. فأعجبه كلامه، وقال: أُنشره لله درك.

فقال: يا أمير المؤمنين انه اَصابتنا سنون ثلاث، سنة أذابت الشحم وسنة أكلت اللحم وسنة دقت العظم، وفي أيديكم فضول مال، فان كانت لله ففرقوها على عباده، وإن كانت لهم فعلام تحبسونها عنهم، وان كانت لكم فتصدقوا بها عليهم فان الله يجزي المتصدّقين.

فقال هشام: ما ترك الغلام لنا في واحدة من الثلاث عذراً فأمر للبوادي بمائة الف دينار وله بمائة ألف درهم، ثم قال: اَلَكَ حاجة، قال: مالي حاجة في خاصة نفسي دون عامّة المسلمين، فخرج من عنده وهو أجلّ القوم[١١].

---

(١٠) ميزان الحكمة٧: ٤٨٦.

(١١) المستطرف١: ٤٦.

وخلاصة الأمر: ان فصاحة اللسان هي عطية الهية ترتبط بكيفية التكوين الطبيعي للمتكلم، وبوسع المفتقد لهذه الموهبة أن ينال منها شيئاً بالسعي والجهد، بيد انه لا يبلغ مقام كبار الفصحاء والخطباء الذين تعود هذه الميزة فيهم إلى جذور فطرية.

الكلمات المستهجنة

على المتكلم الفصيح ان يتجنب ذكر المفردات القبيحة والألفاظ الشائنة على منبر الخطابة، ولا يتفوه بكلمات تنافي الادب والاخلاق، لانها تترك أثراً سيئاً في المستمع حتى يشمئز أحياناً من الخطيب، فمهما بلغ الخطيب من الاقتدار والفصاحة فان الكلمات الركيكة المخالفة للادب تقلل من قدره ومكانته الاجتماعية وتبعد عنه كرام الناس.

قال الإمام علي عليه السلام: «*إيّاك وما يُستهجن من الكلام فانه يحبس عليك اللئام وينفرّ عنك الكرام*»[١٢].

ولا تنحصر الآثار السيئة والنتائج السلبية التي توصم الخطيب لبذاءة كلامه بالمستمعين الحاضرين في المجلس وحسب، بل انها ستنتقل إلى الآخرين على لسان السامعين الأمر الذي يوسّع رقعة سوء الظن بالخطيب، وبخلاصة فان الضرر يلحق الخطيب ويزداد نفور الناس عنه بالنسبة التي يلوث لسانه ببذيء الكلام على منبر الخطابة.

عن الإمام علي عليه السلام قال: «*عجبت لمن يتكلم فيما اِن حكي عنه ضره واِن لم يُحك عنه لم ينفعه*»[١٣].

وعلى هذا، لو استدعت الضرورة في بعض الأحيان بالخطيب الإسلامي ان يوضح في بحثه بعض الاحكام الإلهية حول العلاقات الجنسية اللامشروعة وغير

---

(١٢) غرر الحكم: ١٥٦.

(١٣) غرر الحكم: ٤٩٧.

الطبيعية، ويقدم بعض النصائح للمستمعين بشأنها، فيفترض به ان يستخدم عبارات كـ(الممارسة المنافية للعفاف) أو (العلاقات اللامشروعة) أو (الإنحراف الجنسي) أو ما شابه من الالفاظ، كي لا يلوث لسانه بكلمات قبيحة مستهجنة.

والمتكلم الفصيح الذي يخاف الناس شر لسانه ولا يأمنون منه على كرامتهم وأعراضهم، أسوأ بكثير من الخطيب الذي يقول سوءاً ويلهج لسانه بكلمات وألفاظ قبيحة.

ويعود ضرر الكلام البذيء على قائله، وحقٌّ هو وصف الإمام علي عليه السلام له حينما يقول ان المستهجن من الكلام يحبس على قائله اللئام وينفر عنه الكرام، الا ان شر من يخاف الناس لسانه يعود إلى نحره.

عن النبي صلّى الله عليه وآله قال: «*يا عليّ من خاف الناسُ من لسانه فهو من أهل النار*»[١٤].

ومحترم هو المتحدث الفصيح الذي يتكلم بما فيه خير الناس وسعادتهم ويعلم الشبان الدين والاخلاق ويحول بينهم وبين المزالق والإنحرافات ويهديهم إلى طريق الحق والفضيلة، ويقدره الناس اعترافاً بالجميل له، فيطيعون أوامره عن طيب خاطر بل ويعتبرون تلك الطاعة حقاً في أعناقهم، وفضلاً عن كل ذلك فانه سيُشمل بالرحمة الإلهية والعناية السماوية.

أما الخطيب البذيء اللسان الذي يخاف الناس شر كلامه ويتّقُوه بالإحترام والطاعة لئلّا تلحقهم لعناته واهاناته وتتهدد أعراضهم أخطار لسانه، فانه يستحق العذاب الالهي، فضلاً عن خواء هذه الطاعة وهذا التقدير لاية قيمة إنسانية وإسلامية، ويشتد عليه العذاب كلما ازداد تكريمه.

عن النبي صلّى الله عليه وآله قال: «*ويلٌ لمن تزكيه الناس مخافة شره، ويل لمن أُطيع مخافة جوره، ويل لمن أُكرم مخافة شره*»[١٥].

---

(١٤) بحار الانوار ٧٤: ٤٦.

(١٥) مجموعة ورام ٢: ١١٥.

وعنه صلّى الله عليه وآله:«*شر الناس عند الله يوم القيامة الذين يُكرَمون إتّقاء شرهم*»[١٦] .

ان الآثار السيئة والأعَراض السلبية لفصاحة الكلام وطلاقة اللسان لهي على درجة كبيرة من الخطورة، حتى قال عنها رسول الله صلّى الله عليه وآله في حديث له: «*أما انه لم يعط أحدٌ في دنياه شيئاً هو اضر له في آخرته من طلاقة لسانه*»[١٧] .

الرتج

لا بد للخطيب الفصيح الذي يتوخى التحدث إلى الناس ويؤثر فيهم،التمرن كثيراً على حفظ المفردات وتكوين الجمل، والتسلط على أداء الكلمات، حتى لا يتوقف بعدها أو يتعثر أو يغلق عليه الكلام بحثاً عن اللفظ المناسب، ولا تتقطع سلسلة حديثه، لان التوقف في الكلام ومهما قصر يضر بفصاحة المتكلم بالاضافة إلى انه يقطع على ذهن المستمع سلسلة الحديث ويؤثر على حسن استيعابه ودقة استماعه.

تلكؤ اللسان

من الأعراض المخالفة لفصاحة المتكلم، السالبة لجذابية كلامه وسحر بيانه، هو الرتج في الحديث، فقد يواجه الخطيب القليل التجربة والجديد على هذا الفن هذه الحالة على كرسي الخطابة كما يمكن ان تحدث للمجرب القوي وفي كلتا الحالتين فان تلكؤ اللسان لا يريح الخطيب، ويقطب جبينه خجلاً اذا تكرر لعدة مرات في مجلس واحد.

الخطباء الجدد

لا يستبعد حصول التلكؤ في الكلام عند الخطيب غير المتمرس والملتحق

---

(١٦) ميزان الحكمة٥: ٣٧.

(١٧) بحار الانوار٢٢: ٨٦.

حديثاً بهذا الحقل، لا سيما إن كان المجلس كبيراً يضم جمهوراً غفيراً من المستمعين، ومصدر هذا الرتج يعود على الأرجح الأغلب إلى الاضطراب النفسي وتشتت البال، فيخشى مثـلاً ان لا يستطيع ان يوضح موضوعه في هذا المجلس بالنحو المطلوب ويديره بشكل حسن، كذلك يخاف النتائج المرتقبة التي ستترتب على حديثه لو تعثر وتلكأ وغاب عن ذهنه شيء، من لوم وعتاب وما سيتعرض له من سخرية واستهزاء.

فان كان هذا الخطيب ومن شاكله في مستوىً متوسط يحمل في جعبته ما يحتاج اليه الخطيب في هذا المستوى من العلوم ومن المعارف الدينية، فينبغي به ان لا ينزوي عن الخطابة في المجالس الحاشدة والكبيرة نسبياً بسبب الخوف من تلكؤ اللسان أو النسيان، كي لا يحرم نفسه من التقدم.

عن الإمام علي عليه السلام قال:«*اذا هِبْتَ اَمراً فَقَعْ فيه فان شدة توقيه اَعظم مما تخاف منه*»[١٨] .

المتمرسون

وقـد يتعثر في كلامه ويطلق كلمات غير مفهومة خطيب بارع مجرّب قضى سنوات طويلة على منابر الخطابة في المجالس الصغيرة والكبيرة وتحدث إلى الناس بطلاقة وله سلطة كافية على أداء الكلمات وتشكيل الجُمل، وتنطوي هذه الحالة على أسباب وعلل عديدة، لكل حالة لها بعض العوامل التي تثقل اللسان، فيما يأتي نشير إلى بعضها.

القصور العلمي

يحضر خطيب حاذق بارع عند استاذه في حلقة الدرس، فيسمع عنه موضوعاً معقداً لا يفهمه جيداً، ثم يراجع المصدر ويطالع فيه بدقة دون أن يتوصل إلى نتيجة.

---

(١٨) نهج البلاغة: الكلمة ١٧٥.

بعد يومين، يحضر عدد من طلاب الحوزة العلمية درساً لهذا الخطيب وهم يحملون عنه تصوراً بهضمه جيداً للموضوع الآنف الذي طرحه الاستاذ، فيطلبون منه ان يوضحه لهم ويخصص له دقائق معدودة ليتجلى لهم الموضوع وملابساته.

هنا، يجدر بالخطيب وهو لم يستوعب الموضوع جيداً ولم تتضح له معالمه ان يعترف صراحة بجهله ويتصرف طبقاً لنصيحة الامام علي عليه السلام، ويقول: انني لا اعرف مِثلكم.

قال(ع): «*ولا يستحيي ان يتعلم ما لا يعلم ولا يستحيي اذا سُئل عما لا يعلم ان يقول لا اعلم*»[١٩].

ولا يرتج الكلام على الخطيب المتمرس البارع أو يتفوه بما هو غير مفهوم على السامع اذا تحدث على كرسي الخطابة بما يعلمه وبحث موضوعات له إحاطة تامة بها، ويتحدث بلهجة اكثر ثقة وحزماً لو كانت معلوماته حول موضوع البحث اكثر مما يطرحه على بساط البحث.

عن الإمام علي عليه السلام قال: «*ينبغي ان يكون علم الرجل زائداً على نطقه وعقله غالباً على لسانه*»[٢٠].

وبخلاصة: ان العامل الأول الذي يستطيع ان يثقل لسان الخطيب القوي والمتمرس وينطقه بكلمات مبهمة المعنى هو القصور العلمي، ولإتقاء هذا العامل يفترض بالخطيب ان يبحث في المواضيع المتمكن منها علمياً.

تردد الخطيب

من العوامل التي تجعل الخطيب يجتر الكلام ويطلقه بعبارات غير مفهومة ويتلكأ فيه أحياناً هو الشك والتردد في صحة الموضوع الذي يتوخى توضيحه فمثلاً

---

(١٩) سفينة البحار١: (خمس): ٤٩٢.

(٢٠) فهرست الغرر: ٣٣٨.

يسمع شيئاً من آخرين لكنه لا يعلم مدى مطابقته للحقيقة أو مقاطعته اياها، فينعكس تردده وشكه الباطني على كيفية كلامه اذا أراد مصارحة المستمعين به من على منبر الخطابة، فيخرج الكلام مبهماً، ويخاف ان ينهض احد المستمعين لتكذيبه. ومن الواضح ان الخطيب ومهما كان مجرباً مقتدراً ليس بوسعه ان ينقل موضوعاً بفصاحة وحزم يشكك به هو في صحّته واصالته، ولهذا تخرج كلماته محاطة بالغبش والابهام، وقد منع الإمام علي عليه السلام المتحدثين من نقل المسموع المحتمل نفيه وتكذيبه.

قال(ع): «*لا تحدث ما تخاف تكذيبه*»[٢١].

التحدث بما يخالف الرأي والمعتقد

من العوامل الاخرى التي تؤدي إلى التكلؤ والتعثر في الكلام هو ان تحيط بالخطيب ظروفٌ تضطره إلى الكذب الذي يخالف رأيه وعقيدته وينافي الحقيقة في نفس الوقت، فمهما بلغ الخطيب من الفصاحة والبراعة فانه لا ينجو من تلكؤ اللسان وهو على هذه الحال ويتخلل كلامه الابهام.

مثال:

لنتصور حاكماً ظالماً يبسط سلطته على مساحة من الارض كبيرة تسكنها مجموعة من الناس هو الآمر والناهي فيها، اخلاقه منحرفة وعقائده باطلة وسلوكه عدواني ولا يتورع عن إرتكاب أية خطيئة، يعتقل الأبرياء، ويعذب وينفي ويقتل دون وازع من ضمير، مغرور متكبر مستبد يفعل ما تمليه عليه أهواؤه.

يُرزق هذا الحاكم ولداً فيسر لذلك غاية السرور ويصمم على اقامة حفل كبير يدعو إليه عدد كبير من شخصيات المنطقة واشرافها للحضور، ويبعث قبل قدوم اليوم الموعود اثنين من كبار رجاله إلى أشهر خطيب إسلامي في المنطقة التي يحكمها

---

(٢١) غرر الحكم: ٨٠٠.

للاشتراك في هذا الحفل والقاء كلمة فيه يشيدبها بالحاكم المستبد الخائن ويعلن دعمه له ويتحدث عن عدالته وعن كونه نعمة الهية كبيرة مَنّ به الله على سكان تلك المنطقة يبعث على الفخر والرفعة، وما على الناس الاّ اغتنام فرصة وجوده بين ظهرانيهم والاحتفاء به وتقديره.

فاذا استجاب هذا الخطيب للدعوة وتحدث على منبر الخطابة بما أملي عليه وأُمِر به فسيكون في منأى عن العقاب والعذاب، يحظى بتكريم رجال الحاكم واحترامهم، واذا امتنع عن قبول الدعوة او تحفظ على القاء كلمة من هذا القبيل فانه سينال عقابه سريعاً ويعدم من الحياة.

فإن شخّص الخطيب الإسلامي ضرورة استجابته لدعوة الحاكم حفاظاً على نفسه، وحضور الحفل والتفوه بما هو باطل وكذب، كوصف الظالم عادلاً والخائن محقاً والمجرم خادماً، فانه ـ ومهما بلغت قوة جنانه وبراعة خطابه ـ لا يستطيع ان يتكلم بحزم وثبات، لان الكذاب يعاني في باطنه من خوف وقلق وهو ما ينعكس على لسانه فيتعثر ويتلكأ اثناء الكلام.

روي عن الإمام علي عليه السلام: *«لو تميّزت الاشياء كان الكذب مع الجبن والصدق مع الشجاعة»*[٢٢].

مواجهة الكبار

ايضاً، من جملة العوامل التي تؤثر على فصاحة اللسان وقدرة بيانه وتقطع وتيرة الكلام، هو حضور عالم كبير متقي في المجلس، وطبيعي فان النظرة تتفاوت عند الافراد للعلماء الكبار، فاذا كان الخطيب ممن يرى في نفسه الصغار والضعف أمام العالم الكبير، فمن المؤكد انه سيفقد ـ بحضور ذلك العالم ـ شخصيته المعنوية وسلطته الروحية وسيؤرقه الانفعال الباطني، ويعقد لسانه مهما كان مقتدراً من الكلام، فيرى

(٢٢) شرح ابن أبي الحديد: الكلمة ٧٣٩ من الكلمات القصار آخر الكتاب.

نفسه كشمعة ضعيفة أمام وهـج من النور الشديد وقطرة أمام بحر.

والـرواية التالية تبين الحقيقة التالية: إنه إذا شعر متحدث كفوء باصغاء عالم كبير جليل إليه، فإن ذلك سيؤثر فيه ويعقد لسانه حتى إن لم يره.

والرواية تقول: ان الحسن بن علي(ع) كان يحضر مجلس رسول الله صلّى الله عليه وآله وهو ابن سبع سنين فيسمع الوحي فيحفظه فيأتي أُمه فيلقي اليها ما حفظ. كلما دخـل علي(ع) وجد عندها علماً بالتنزيل فيسئلها عن ذلك فتقول من ولدك الحسن(ع)، فتخفّى يوماً في الدار وقد دخل الحسن(ع) وقد سمع الوحي فأَراد ان يلقيـه اِليها فارتجّ فعجبت أُمه من ذلك فقال لا تعجبين يا أُماه فان كبيراً يسمعني واستماعه هذا اوقفني، فخرج علي(ع) فقبّله، وفي رواية: يا أمّاه قلّ بياني وكلّ لساني لعل سيداً يرعاني[٢٣].

فمواجهة الرجال العظماء أَو بعض الحالات الخاصة، يضع في الروح الآدمية أَثراً عميقاً، حتى ليشعر المفوّه الفصيح البليغ بالضيق والحرج، ويتوقف عن الكلام، ويعجز عن توضيح موضوع بحثه وذكر دليله العلمي والعقلي.

عن الإمام علي عليه السلام قال: «*ربما خرس البليغ عن حجّته*»[٢٤].

سرعة الكلام

ومن القضايا التي تؤثر إلى حد ملحوظ في فصاحة المتكلم، مراعاة الاعتدال في سرعة البيان، فعليه ان يجعله نصب عينيه ويتمرس عليه ليصبح ملكة متأصلة فيه يعمل بها في جميع خطبه.

وينبغي بالخطيب الفصيح ان لا يسرع في الإلقاء ويتعجل الحديث مما لا يترك فرصة للمستمع يستوعب فيها موضوع البحث ويهضم محتواه، ولا يُبطىء فيه ما يتعب

---

(٢٣) بحار الانوار٤٣: ٣٣٨.

(٢٤) فهرست الغرر: ٣٣٤.

المستمع ويرهقه ويسلب عنه الرغبة في الإصغاء.

ومن البديهي، قد يصل الخطيب أثناء كلامه إلى جملة تستدعي فنياً الإسراع في نقلها وبيانها، أو قد يقتضي نقل أحد النصوص التأني والبُطء ، وفي كلتا الحالتين يؤدي إستبدال وتيرة الكلام وأسلوب بيان الخطيب بالمستمع إلى حصر إنتباهه أكثر فأكثر والإلتفات إلى النقطة التي اقتضت ان يغير الخطيب مجرى حديثه إلى السرعة أو البُطء.

مستوى الصوت

يجب أن يكون مدى صوت الخطيب معتدلاً كما هي سرعة كلامه وعند حد معين، فلا يطلق لصوته العنان ويتخذ شكل الصراخ الذي يؤذي المستمع، ولا يخفض صوته إلى الحد الذي يضطر المستمع إلى توجيه كل حواسه وتعبئة قواه لسماع البحث.

ومثلما أشرنا قبل قليل إلى السرعة والبُطء في حديث الخطيب واستخدامهما عند الضرورة التي تستدعيها بعض الحالات، كذلك عليه ان يتحكم بمدى الصوت، فيرفعه عن الحد الطبيعي حينما يريد مخاطبة الحاضرين بموضوع مهم، ويخفضه في مقام النصيحة والموعظة.

دور الفصاحة في التبليغ

لو كان الخطيب الإسلامي فصيحاً يراعي فنون الخطابة في كلامه، ويتحدث بمنطق إستدلالي حازم، فبوسعه أن يبلّغ لدين الله ببيانه الواضح المؤثر، ويترك بصمات واضحة في المستمعين، ويجيب على تساؤلاتهم، ويحل مشاكلهم، ويوفر الاجواء التي تقود المجتمع إلى طريق السعادة والفلاح.

وتحظى الفصاحة في التبليغ على قدر كبير من الاهمية بحيث ان موسى(ع) خاطب الله تبارك وتعالى لما بعثه للنبوة وأمره بالذهاب إلى فرعون الطاغي ودعوته إلى الحق:

﴿وَاَخي هَٰرُونُ هُوَ اَفْصَحُ مِنّي لِساناً فَاَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُني اِنّي اَخافُ اَنْ يُكَذِّبُونِ﴾[٢٥].

وقد يتساءل البعض: ماذ يعود بالنفع على موسى من الناحية التبليغية لو ان هٰرون اَيَّد وصدّق بفصاحته كلام موسى بحضور فرعون واتباعه، وما هو الاثر الذي سيتركه على اَفكار المستمعين المعارضين والمعاندين؟

يقول المفسرون: ان تصديق هٰرون هو تبيين لدعوة موسى وردّ لشبهات المخالفين: يصدقني بتلخيص الحق وتقرير الحجّة وتزييف الشبهة[٢٦].

---

(٢٥) القصص: ٣٤.

(٢٦) تفسير الصافي: ٤٠٦.

الفصل التاسع

«مَن عرف شيئاً قلَّ كلامه
وأنَّما سُمي البليغ لأنَّه يبلُغ
حاجته بأهون سعيه».

الإمام الصادق(ع)

بلاغة الخطيب

البلاغة وهي التحدث وفق مقتضى الحال شأنها شأن الفصاحة من الأَركان الاساسية لفن الخطابة. وعلى الخطيب أن يأخذ بعين الاعتبار الجوانب العديدة للبلاغة التي سنتناولها بالشرح والتفصيل، ومنها فصاحة الكلمات والجمل.

بعبارة ثانية: الخطيب البليغ هو الذي تتسم اقواله عند الخطابة وبمراعاة مقتضى الحال بالفصاحة والانسيابية وتخلو من التعقيد ليفهمها جميع المستمعين بسهولة. فالفصاحة شرط أساسي في تحقق البلاغة، والمتكلم غير الفصيح هو غير بليغ حتى وإن تحدث بما يوافق مقتضى الحال.

وجاءت الفصاحة في بعض كتب اللغة بمعنى البلاغة، ومنها المنجد حيث يقول:

«بلغ يبلغ بلاغة صار ـ أو كان ـ فصيحاً»، وجاء في أقرب الموارد:

«البلاغة الفصاحة» بلغ بلاغة كان فصيحاً يوقع الكلام مواقعه فهو بليغ

والجمع بلغاء[١].

لا بد من الإلتفات إلى ان لمعيار البلاغة اي التحدث وفق مقتضى الحال ابعاد عديدة ووجـوه مختلفـة، والخطيب البليغ هو الذي يعير اهتمامه لجميع هذه الابعاد والوجوه على منبر الخطابة ويراعي في حديثه جميع المقتضيات، وهو امر بالغ الحساسية والدقة، ذلك لو ان الخطيب اصابته غفلة عن احد تلك الابعاد أو بعضها أو تجاهلها متعمداً فقد تخرج من أفواه بعض المستمعين متوجهين بها إلى الخطيب نفسه الامر الذي يؤلمه ويقض مضجعه.

ولإلقاء الضوء على هذا الموضوع نشير فيما يلي إلى بعض تلك الأبعاد.

البلاغة وكمية الكلام

احد الابعاد الاساسية للبلاغة هو مراعاة كمية الكلام. فالخطيب البليغ هو الذي يحيط بموضوع بحثه ويتحدث حوله ببصيرة وعلم ولا يطيل في الكلام بل لا يحتـاج إلى اطـالة مطلقاً. فهو يتكلم بنحو وافٍ ومختصر في نفس الوقت، يستوعبه المستمع ويقف على الهدف ويفهم المقصود دونما عناء.

قيل لأبي عبدالله عليه السلام: ما البلاغة؟ قال: «*من عرف شيئاً قلَّ كلامه فيه وانما سمّي البليغ لأنّه يبلغ حاجته بأهون سعيه*[٢]».

ذكرنا في فصل سابق ان أحدى المواهب الإلهية الكبرى للانسان هي قدرة التكلم، وتعـد هذه النعمة الثمينة من عوامل تكامل الإنسان ورقيّه ومن الوسائل الرئيسية لنشر العلم وبسط الثقافة.

فبـواسـطة التـدريس ينقل الاساتذة الاجلّاء والعلماء الكبار في كل عصر معلوماتهم وتجاربهم إلى الشباب الذين تضمهم حلقاتهم الدراسية، فيرث ـ عن هذا

---

(١) اقرب الموارد: (بلغ).

(٢) تحف العقول: ٣٥٩.

الطريق ـ الجيل اللاحق معلومات الجيل السابق، ولا يفنى العلم بوفاة أُولئك الاساتذة والعلماء.

ويتجلى شُكر نعمة الكلام في اطلاقه ضمن مقاييس صحيحة في المقام المناسب، أما الثرثرة والتحدث عشوائياً فهو كفران لنعمة التكلم يستحق عليه صاحبه العقاب ويفسد عليه دينه ودنياه.

عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قال: «*يا هشام من محى طرائق حكمته بطول كلامه فكأنما أعان هواه على هدم عقله ومن هدم عقله أفسد عليه دينه ودنياه*»[٣].

ان مراعاة كمية الكلام وكيفيته ليس فقط يطبع أثراً اجتماعياً حسناً أو سيئاً لحديث أي فرد من الافراد ويشخص بلاغة الخطيب، بل يسلك بالانسان معنوياً طريق القرب إلى الذات الإلهية المقدسة أو البعد عنها، وهذا امر ذو تأثير على مصير الإنسان يوم القيامة، فاما ان يشمله برحمة الله أو يحيطه بعذابه.

عن الإمام علي عليه السلام قال: «*كلامك محفوظ عليك مخلّد في صحيفتك فاجعله فيما يزلفك، وإيّاك ان تطلقه فيما يوبقك*»[٤].

وصفوة القول: ان اطالة الكلام والتحدث في غير موضعه سواء أجاء من الخطيب أو أي فرد عادي يخالف موازين العقل والدين وتعقبه أعراض سلبية وضارة في بعض الاحيان. فهكذا كلام أو خطاب يحط من منزلة المتكلم ويفرّق عنه افراد المجتمع ويزيل شوق الاستماع إليه والاختلاط به.

والخطيب البليغ هو الذي يزن كمية كلامه حسب ما يقتضيه المجلس، ويقيس اختصار الكلام أو تفصيله وإطالته بمراعاة الموقع والمقام، فلا يزيد في الكلام أو ينقص.

---

(٣) أُصول الكافي١: ١٧.

(٤) غرر الحكم: ٥٧٤.

عن الإمام علي عليه السلام قال: «*خير الكلام ما لا يقل ولا يمل*»[٥].

وعنه عليه السلام: «*الكلام بين خلّتي سوء الإكثار والإقلال*»[٦].

الإقلال أو قصور الكلام

لنتصور حفلاً اَقامه محبو أهل البيت عليهم السلام بمناسبة ذكرى ولادة أحد الأئمّة الطاهرين وقد دُعي إليه أحد الخطباء لإلقاء كلمة بالمناسبة.

تقتضي بلاغة الخطيب هنا ان يخصص جزءً من الوقت للإمام الذي يحتفى بذكراه وتناول واحدة من آثاره العلمية أو خدماته الدينية أو كراماته الأخلاقية أو أساليبه التربوية وغيرها لإشباع الرغبة المعنوية والعاطفية للمستمعين حيال هذا الإمام.

واذا لم يعر الخطيب الأهمية المطلوبة للظمأ الإيماني عند الجمهور وتطرق مسرعاً بكلمات قصار حول الإمام المحتفى بذكراه ولم يشبع الرغبة عند المستمعين، حينذاك لا بد من القول: ان الخطيب قصَّر في الخطبة ولم يعط الموضوع حقه ولم يؤدّ للإمام حقه أيضاً، وخطب دون البلاغة وخلافها، وهذا هو الإقلال الذي أشار إليه الإمام علي عليه السلام في الحديثين اعلاه.

الإطالة والإكثار

الثرثرة والإطالة عند الخطيب مثلما الإقلال أمر غير محبّذ وينافي البلاغة، ذلك ان الإكثار يتعب المستمع ويمله من جهة، ويلحق ضرراً بفصاحة الكلام من جهة أُخرى.

عن الإمام علي عليه السلام قال: «*آفة الكلام الإطالة*»[٧].

---

(٥)و (٦) فهرست الغرر: ٣٣٣ و٣٣١.

(٧) ميزان الحكمة٨: ٤٣٩.

وعنه عليه السلام: «*قد يكتفى من البلاغة بالإيجاز*»[٨] .

أقسام الثرثرة

تجد بين الخطباء من هو عالم كفوء مقتدر تطغى على خطبه الفصاحة والإستدلال، غير انه يطيل الكلام على منبر الخطابة ولا يراعي في ذلك مقتضيات المجلس.

فمثلاً: يعود أحد حجاج بيت الله الحرام من سفره، ويعقد في داره مجلساً للضيافة يدعو إليه عدد من اصدقائه ويطلب من أحد الخطباء المثقفين المتعلمين التحدث في هذا المجلس. فبإستطاعة هذا الواعظ العالم ان يتحدث لساعات عديدة حول عبادة الحج وفوائدها الدنيوية والأخروية لما له من إلمام واسع حول الموضوع، غير ان المجلس لا يستوعب من الخطابة أكثر من خمسة عشر إلى عشرين دقيقة فقط، لكن الواعظ الذي اعتاد على الإطالة يتكلم في هذا المجلس لمدة تصل إلى ثلاثة أرباع الساعة، فيُتعب الجميع متصوراً انه تحدث باختصار.

وقد حذر الإمام علي عليه السلام أمثال هؤلاء الخطباء مشيراً إلى انهم يعرضون انفسهم للملامة لإطالتهم الكلام.

قال(ع): «*من أطال الكلام فيما لا ينبغي فقد عرّض نفسه للملامة*»[٩] .

وهناك فئة من الخطباء علمها وفير ينفع المستمع، بيد أنها تخرج عن موضوع البحث لأدنى مناسبة، وتضل هدفها وتطيل كلامها بموضوعات متفرقة مشتتة يمل منها المستمع.

فعلى سبيل المثال: لو توخّى الخطيب التطرق إلى القومية والتعصب لها، وقد نظّم مواد خطبته في ذهنه ومنها الحديث التالي الذي جاء في كتب الحديث عن الإمام

---

(٨) ميزان الحكمة١: ٤٦٣.

(٩) فهرست الغرر: ٣٣٦.

الباقر عليه السلام، عن أبي جعفر عليه السلام قال:«*كان سلمان رضي الله عنه جالساً مع نفر من قريش في المسجد فأقبلوا ينتسبون ويرفعون في أنسابهم حتى بلغوا سلمان فقال له عمر بن الخطاب أخبرني من أنت ومن أبوك وما أصلك، قال أنا سلمان بن عبدالله كنت ضالاً فهداني الله جلّ وعز بمحمد صلّى الله عليه وآله وكنت عائلاً فأغناني الله بمحمّد(ص) وكنت مملوكاً فأعتقني الله بمحمّد صلى الله عليه وآله هذا نسبي وهذا حسبي*»[١٠] .

فالخطيب الذي يسعى الّا يخرج عن موضوع بحثه عليه أن يقرأ الحديث ويوضح بعض المعاني الغامضة إن وجدت فيه، ويبرّز كلام سلمان، ثم يواصل موضوعه حول العصبية والعنصرية، أما الخطيب الذي اعتاد على دخول متاهات التشتت والخروج عن مسير البحث الرئيسي إلى ثانوياته وفرعياته في أول فرصة تحين له، فانه يجعل من شخصية سلمان بحثاً آخراً له فيتحدث عنها بإسهاب موضحاً بالشرح والتفصيل الروايات الواردة عن الرسول(ص) والإمام علي عليه السلام حول سلمان. وطبيعي فان ما يقوله عن شأن هذه الشخصية وشموخها وكبرها كما جاء في الاحاديث الشريفة هو أمر لا غبار عليه وينطبق على الحقيقة تماماً غير انه لا يساير موضوع البحث وهو العصبية.

اذن فالخروج عن هدف البحث والإكثار من الاحاديث الهامشية الزائدة واطالة الكلام يتعب المستمع ويحول بينه وبين شوقه للإصغاء إلى الموضوع، وينافي البلاغة.

عن الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال:«*ثلاثة فيهن البلاغة التقرب من معنى البُغية والتبعد من حشو الكلام والدلالة بالقليل على الكثير*»[١١] .

ويغوص بعض الخطباء الذي تنقصهم المعارف والمعلومات الدينية في كلام لا

---

(١٠) سفينة البحار٢: ٣٤٨.

(١١) تحف العقول: ٣١٧.

فائـدة منـه دنيوياً وأُخروياً، إستهلاكاً للوقت، وقد وصف الرسول(ص) مثل هذا الكلام بانه (كلام فيما لا يعني) ذامّاً إياه محذراً منه.

عن النبي صلّى الله عليه وآله:«*ان اكثر الناس ذنوباً يوم القيامة اكثرهم كلاماً فيما لا يعنيه*»[١٢].

فمثلاً يشرح خلال خطبته أشياء مرّت عليه في أسفاره لا يرجى من سماعها خيراً ولا تعود على المستمعين بالفائدة. فيتطرق إلى الانهار التي رآها في مدة حياته وإلى الطرق المعبدة التي طواها وإلى شلالات المياه وغابات الاشجار التي شاهدها عن قرب واشياء أُخرى من هذا القبيل.

وهذا كلام لا يعود بالنفع على المستمعين، وانما يفرط بالعنصر الأثمن في تأمين سعادة الانسان في مختلف الشؤون المادية والمعنوية وهو العمر، دونما ثمرة تجنى، وهو ما يُسأل عنه الانسان يوم القيامة، أي عن عمره كيف أَفناه؟

وقـد حذّر أئمـة الدين عليهم السلام عامة المسلمين وخاصتهم من العلماء والخطباء الذين يحملون أعباء هداية الناس، من الحشو في الكلام والإكثار منه فيما هو غير ضروري.

قال الإمام الحسين بن علي عليه السلام يوماً لابن عباس:«*لا تتكلمن بما لا يعنيك فاني أخاف عليك الوزر ولا تتكلمن فيما يعنيك حتى ترى للكلام موضعاً*»[١٣].

لاحظوا: ان الإمام الحـسين عليه السلام يوصي ابن عباس في الفقرة الأخيرة من كلمته ان يتجنب قول الكلام النافع حتى يرى له مكاناً مناسباً.

يحكي أحد الخطباء الأجلاء أن ساعة يدوية ثمينة له سقطت على الأرض حينما كان يرمي الجمرات في الحج وداسـتها أرجل الحجيج.

يمكن ان ينفع هذا الحدث الصغير المستمع شريطة أن يختار الخطيب الوقت

---

(١٢) ميزان الحكمة٨: ٤٣٧.

(١٣) ميزان الحكمة٨: ٤٣٧.

الملائم لطرحه، فعلى سبيل المثال يستطيع نقله حينما يكون مشرفاً دينياً على أحد قوافل الحجاج فيستشهد به ضمن كلماته في مكة أو المدينة لأفراد قافلته قبل الذهاب إلى المواقف، ويوصيهم بنزع الساعات اليدوية قبل التوجه إلى رمي الجمرات.

مراعاة خصوصيات المجلس

معلوم ان الأَسباب التي تدعو إلى عقد المجالس والاجتماعات مختلفة ودوافع القائمين عليها متفاوتة، لذا ينبغي بالخطيب ان يتعرف قبل ارتقائه المنبر على خصوصيات المجلس وأسباب تشكيله، ليختار موضوع الخطبة بما يتلائم وينسجم مع مقتضى الحال وهدف المجلس.

وما يفترض بالخطيب الإلتفات اليه هو التجرد تماماً من الافكار الخاصّة والاحاسيس الذاتية لدى إتخاذ قرار اختيار مادة الحديث، والنظر بواقعية إلى جميع خصائص المجلس، وإختيار موضوع البحث بما يتلائم مع تلك الخصائص ليتمكن بالتالي من مراعاة البلاغة.

فإذا لم يتحرر الخطيب من أحاسيسه الذاتية فقد يقع أثناء الخطابة تحت تأثير ميوله النفسية، ويخلط المشاعر بأقواله، وينطق بما ينافي مقتضى المجلس وطبيعته، مما يزرع في نفوس القائمين عليه والمستمعين فيه عدم الرضا. وفيما يلي نقدم مثالين توضيحاً لهذا الجانب من البحث:

١ـ قبل سنوات توفي بالسكتة القلبية أحد التجار المؤمنين، وكان سيداً محترماً ورعاً تقياً نقياً، أقام له ذووه مجلس الفاتحة حضره عدد كبير من علماء الدين والتجار والكسبة المؤمنين.

ودعي لإلقاء كلمة هذا المجلس احد الوعاظ وكان مسناً محترماً قد حزّ في نفسه انتشار الفساد والآثام والخطايا في المجتمع ولا يترك فرصة تمر الّا وتطرق إلى شيوع الفحشاء والأعراض الناتجة عن ذلك. ارتقى هذا الخطيب المنبر وفي نيته التحدث عن موت الفجأة ليلائم بحثه مقتضى الحال، فبدأ كلامه بالرواية التالية:

عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال:«*وجدنا في كتاب رسول الله صلّى الله عليه وآله اذا ظهر الزناء من بعدي كثر موت الفجأة*»[١٤] .

لقد وقع هذا الواعظ المحترم وبشكل لا شعوري تحت تأثير إحساسه الانتقادي، وجعل من ظهور الزنا الذي جاء ذكره في الحديث محوراً اساسياً لبحثه وتحدث عنه بإسهاب، فتأثر من حديثه المعاكس للبلاغة المخالف لشأن المجلس هذا ذوو المتوفى والحاضرون حيث تكلم طيلة الفترة تقريباً عن شيوع الزنا وموت الفجأة بوصفه عقاب على انتشار الخطايا.

كان بوسع الخطيب ان يتحدث في هذا المجلس عن التقوى وقرب المتقين إلى الله وخلقه، ويستشهد بتقوى المتوفى وورعه وهو الذي من أجله شاركت كل هذه الجموع الحاضرة في مجلس الفاتحة على روحه. وبفرض انه أراد الإشارة إلى موت الفجأة فذلك ممكن بذكر الروايات التي تناسب المجلس، فيأتي مثلاً بالأحاديث الشريفة التالية:

عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال:«*قال رسول الله صلى الله عليه وآله إن موت الفجأة تخفيف عن المؤمن واخذة اسفٍ عن الكافر*»[١٥] .

وعن النبي صلّى الله عليه وآله: «*ان موت الفجأة راحة المؤمن وحسرة الكافر*»[١٦] .

وعنه صلّى الله عليه وآله:«*موت الفجأة راحة للمؤمن واخذة أسفٍ للفاجر*»[١٧] .

٢ـ اقيم حفل تأبيني بمناسبة الذكرى السنوية لوفاة أحد العلماء الكبار، ودعي لإلقاء كلمة الحفل أحد الخطباء الكفوئين المقتدرين الذين يستطيعون من ادارة مثل هذه المجالس الوزينة.

ولمّا صعد المنبر لاحظ حضور عدد من العلماء، في باطنه شيءٌ من سلوكهم

---

(١٤) سفينة البحار٢: فجا: ٣٤٦.

(١٥) الكافي٢: ١١٢.

(١٦) و(١٧) ميزان الحكمة٩: ٢٦٦.

الاجتماعي ونهجهم السياسي، فثارت أحاسيسه بشدة واثّرت فيه حتى غفل عن المجتهد الكبير والفقيه القدير والعالم المحترم الذي يعقد المجلس في ذكراه السنوية، وانصب كل اهتمامه حول عواطفه الباطنية، واستهل كلمته بذم علماء السوء، وتلا عدة روايات حول هذا الصنف من العلماء ولم يخرج عن الغور في بحث علماء السوء طوال مدة كلمته.

وحصل جراء هذه الكلمة البعيدة عن البلاغة وغير الملائمة مع هدف تشكيل الحفل ان اعرب الحاضرون من علماء اجلّاء واُناس محترمون عن عدم ارتياحهم لما جرى، وعاتبه اُولئك الذين جنح بهم الخيال إلى ان الخطيب قد قصد في كلمته العالم المتوفى الذي من أجله عقد الحفل.

معرفة الزمان

من الأمور التي تستحوذ على أهمية فائقة من الناحية البلاغية، ولا بد للخطيب ان يعيرها أقصى درجات الإهتمام، معرفة الزمان. وعلى الخطيب الإسلامي اَيضاً أن يراعي في ذلك،الزمان الطبيعي والزمان التاريخي والزمان الاجتماعي، وهي أزمنة تختلف فيما بينها وتتفاوت مقتضيات كل منها، حيث جاءت حولها العديد من الروايات والأحاديث، ويجدر به ايضاً أن يقدّر مقتضياتها ويأخذ بعين الإعتبار واحداً أو عدداً من الأحاديث التي وردت بهذا الشأن عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام وإلقاء خطابه بملاحظة جميع مناحي الخطابة واوجهها.

ومن أجل توضيح الأزمنة الثلاثة المذكورة ودور كل منها في بلاغة الخطيب يلزم بنا ان نتطرق بإختصار إلى كل منها:

الزمان الطبيعي

اننا نعيش في عالم متغيّر عابر، وحال هذه الدنيا في التحول والتغيّر هو اَمر طبيعي اَراده الله لها وركّزه في أساس نشوئها وتكوينها، ولم يقدّر لأي من شؤون الدنيا

الثبات والبقاء، وجعل لكل منها مناقض وضد يهددها بالفناء والزوال، الحياة والموت، الصحة والمرض، الشباب والشيخوخة، القوة والضعف، العزة والذل، الغنى والفقر، الإستقرار والقلق، الامن واللامن، ..الخ.

وإلى جانب هذه المتضادات العامة التي تقع باستمرار، تحدث احياناً أحداثٌ في الطبيعة كالزلازل والبراكين والصواعق والطوفان وأمثالها تقضي في مدة قصيرة على أُسر كثيرة ومجموعات كبيرة، وتقدم البعض لقمة سائغة للموت دون رحمة.

والمقصود بالزمان الطبيعي هي المدة التي تقع فيها الاحداث والكوارث الطبيعية قصيرة كانت أم طويلة.

ولا تختص تحولات الزمان الطبيعي باناس دون آخرين، بل واجهت وتواجه كل سكان العالم بمختلف جنسياتهم وأديانهم ومعتقداتهم وألوانهم، لأن منشأ التغيرات الطبيعية هو القوانين والضوابط التكوينية التي وضعت في نظام الخلقة، هذا النظام الذي يتساوى أمامه جميع أفراد البشر، لهذا يفترض بالعقلاء من الناس الاستعداد دائماً وفي جميع مراحل الحياة للحوادث والوقائع الطارئة.

وقد أكّد ائمة الهدى عليهم السلام في أحاديث تربوية عديدة تهدف بناء المسلم بناءً قوياً صحيحاً لمواجهة طوارىء الطبيعة، على التنبه لمتغيرات الزمان في كل الاحوال وعدم الغفلة عن أحداثها المُرَّة التي تنزل فجأة ودون سابق انذار، كي لا يتراجع ويفر أمام الكوارث والمتغيرات الطارئة، ومن أجل ان لا يفقد شخصيته الإنسانية وهذه نصوص بعض تلك الأحاديث:

عن الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: «*ثلاثة أشياء لا ينبغي للعاقل ان ينساهن على كل حال، فناء الدنيا وتصرف الاحوال والآفات التي لا أمان لها*»[١٨].

وعن الإمام علي عليه السلام قال: «*من عرف الأيّام لم يغفل عن*

---

(١٨) بحار الانوار٧٥: ١٣٨.

الإستعداد»[١٩] .

وعنه عليه السلام: *«اعرف الناس بالزمان من لم يتعجب من أحداثه»*[٢٠] .

«ينبغي لمن عرف الزمان أن لا يأمن الصروف والغير»[٢١] .

«لا يأمن أحد صروف الزمان ولا يسلم من نوائب الأيّام»[٢٢] .

الزمان الطبيعي وبلاغة الخطيب

يجتاح سيل عارم مدينة كبيرة فيُغرق إحدى مناطقها ويدمر منازلها ويكتسح معه كل ما يصادفه في طريقه، ويقتل عدداً من الرجال والنساء والاطفال، ولا يبقي للاحياء منهم أي شيء من طعام ولباس وأدوات منزلية.

بدافع الإيمان والإنسانية يدعو سكان المناطق المجاورة الأخرى المنكوبين لإستضافتهم في منازلهم وتقديم العون لهم كل حسب سعة منزله وقدرته المادية، ثم تصل اغاثات المؤسسات الخيرية والمساعدات الإنسانية لتقديم الملابس والطعام والفراش والدواء وغيرها من الإحتياجات الضرورية.

يحل يوم الجمعة وقد مضى على اجتياح السيول عدة أيّام، فيتجه عدد كبير من سكـان المدينة بمعية الضيوف المنكوبين لإقامة صلاة الجمعة، فبماذا سيتحدث خطيب الجمعة؟

لا خلاف في ان عليه ان يتحـدث في مثـل هذا اليوم حول كارثة السيول والمتضررين بها ويواسيهم على مصابهم ويقدم لهم بعض النصائح الضرورية.

يستطيع الخـطيب البليغ ان يستهل خطبته بالحديث الخامس الذي ذكرناه اعلاه، ويقول:

عن الإمام علي عليه السلام قال: *«لا يأمن أحد صروف الزمان ولا يسلم من*

---

(١٩) تحف العقول: ٩٨.

(٢٠) و(٢١) و(٢٢) فهرست غرر الحكم: ١٤٨.

نوائب الأيام».

بعد ذلك، يوضح ان المصائب والبلايا قد تكون فردية أو جماعية، فردية مثل الإصطدام والإحتراق والسقوط وما ماثلها، وفي مدينة كبيرة يقطنها نحو مليون شخص تقع فيها كل يوم بل كل ساعة حادثة واحدة أو عدة حوادث يقع ضحيتها عدد من السكان. وجماعية مثل السيول التي إجتاحت مؤخراً هذه المدينة ودمرت إحدى مناطقها وشردت الآلاف من سكانها.

عند ذاك يمكن للخطيب ان يتحدث للحاضرين حول ثلاثة مواضيع:

أولاً: يقول: ان هطول الأمطار وهبوب الرياح شأنه شأن طلوع الشمس وغروبها وحلول فصول السنة بالتعاقب، من العوامل المؤثرة في الحياة الطبيعية ومن جملة القوانين والمقررات التكوينية في نظام الخلقة. غير انه قد تؤدي بعض العوامل أحياناً إلى هطول كمية كبيرة من الأمطار تتجاوز حد المتوسط مما تحدث سيولاً كاسحة، أو أن تزداد سرعة الريح عن الحد الطبيعي فتقع العواصف، وهذه الحوادث تستند إلى عوامل طبيعية، وقدأوصى أئمة الدين الناس بضرورة الإستعداد لمثل هذه الاحداث. وهنا يستطيع الخطيب تلاوة بعض الروايات الواردة حول الزمان لتوعية الحاضرين وإعدادهم.

ثانياً: يستطيع الخطيب ان يلفت المنكوبين إلى واحدة من التعاليم الدينية التي تهديء من روعهم، فيقول مثلاً: ان هذه الحوادث هي إمتحان إلهي للمؤمنين، فاذا صبروا عليها فان الله سيعطيهم أجراً جزيلاً يوم القيامة، اما اذا جزعوا منها فان الجزع لا يبني الدمار ولا يعيد الأموال المفقودة ويضيف إلى الحزن غماً ويسلب عن المنكوبين أجر المصيبة.

«اغلبوا الجزع بالصبر فان الجزع يحبط الأجر ويعظم الفجيعة»[٢٣].

ثالثاً: وقعت في الماضي الكثير من الحوادث المشابهة وفي المستقبل أيضاً سيقع

---

(٢٣) ميزان الحكمة٢: ٢٩.

الكثير منها، وعليكم ان تشمروا عن ساعد الجد وتعوضوا بعملكم وسعيكم عن خسائر السيل، وتعمروا. بالجد والاجتهاد ما دُمّر من بيوت ومؤسسات لتوفروا ظروف حياة كريمة جديدة، وعلى الأخوة والأخوات الذين وقفوا إلى جانبكم في هذه الايام ان لا ينقطعوا عن مواساتكم والتعاون معكم لترفع جميع مشاكلكم على وجه السرعة وتُؤمّن مستلزمات راحتكم واستقراركم.

الزمان التاريخي

المقصود بالزمان التاريخي هو معرفة الفاصل بين زمانين أو حادثتين، وتحدد بمقياس اليوم والشهر والسنة، فمثلاً تحديد الفترة الواقعة بين الثورة الفرنسية وولادة السيد المسيح، أو تاريخ الثورة الإسلامية في إيران والسنة التي هاجر فيها رسول الإسلام الكريم(ص).

وتنظّم في كل المجتمعات البشرية حالياً المبادلات التجارية والإتفاقيات والإعتمادات المصرفية والوثائق السياسية وغيرها على أساس الزمان التاريخي وتوضع موضع التنفيذ على هذا المعيار.

وقد شرّع الدين الإسلامي المقدس بعض الأحكام والضوابط والمقررات الدينية على أساس الزمان التاريخي. ففترة الصيام الواجب هي حلول شهر رمضان، وفترة أداء فريضة الحج هي أيام ذي الحجة، والبلوغ الشرعي للمسلم الذكر هو إتمام خمسة عشر عاماً.

الزمان التاريخي وبلاغة الخطيب

عديدة هي المناسبات الإسلامية المثبتة على أساس الأزمنة التأريخية مثل حلول شهر الصوم وشهر الحج أو أيام مواليد الأئمّة ووفياتهم أو أيام الوقائع والأحداث المهمة كالهجرة النبوية ويوم الغدير وعاشوراء وغيرها.

وعلى الخطيب الإسلامي البليغ بأن يأخذ بنظر الإعتبار في كلامه الأزمنة

التـأريخية الدينية، ويتحدث عن كل منها بمناسبتها الخاصة بها، ويحيي الذكريات والأحداث الإسلامية القيّمة في أذهان المستمعين، ليؤدي مسؤوليته التبليغية بأحسن صورة من جهة، ويشبع رغبة المستمعين من جهة أُخرى.

ومن الطبيعي فان مكانة الأزمنة التاريخية عند الناس تختلف تبعاً للواقعة التي حصلت في ذلك الزمان، فإذا لم يعر الخطيب تلك الاهمية المطلوبة لواقعة معيّنة هي على قدر كبير من الأهمية التأم المجلس من أجلها، ولم يتحدث عنها بما يفي حجمها، فانه يكون قد تخلّف عن البلاغة في خطبته ناهيك عن تركه من أثر سيء في اذهان المستمعين. وبأثر هذا العمل البعيد عن الإنتظار يهدر الخطيب من سمعته وقدره من ناحية، ويمحو أية قيمة لكلامه من ناحية أُخرى.

مثال:

لنتصور حفلاً مهيباً أقامه عدد من الموالين لأهل البيت عليهم السلام بمناسبة عيد الغدير السعيد، وقد ملأت الزينة مكان الحفل وشعت من كل زاوية فيه الأنوار والأضواء، وأعد القائمون عليه المرطبات والحلويات لتوزيعها على المشاركين.

وشيئاً فشيئاً يكتظ الحفل بمحبيّ الإمام علي عليه السلام وهم يتقاطرون عليه زرافات ووحدانا بوجوه فرحة والبسمة تعلو شفاههم، يصافح أحدهم الآخر ويهنئه بهذا العيد، وأفـواه البعض تلهـج بالحمـد والثناء وهو يشد على أيدي الآخرين بقوة شاكراً لله نعمة الولاية، مردداً هذه العبارة: «الحمد لله الذي جعلنا من المتمسكين بولاية أمير المؤمنين والأئمّة المعصومين عليهم السلام».

ويترقب الحاضرون في الحفل إرتقاء أحد الخطباء المنبر للتحدث عن واقعة غدير خم، وعن خطبة الرسول(ص) التي تلاها في ذلك اليوم، والخوض في بعض الأحاديث الشريفة للنبي(ص) حول الإمام علي عليه السلام، وبخلاصة: فان كل حواس المشـاركين في هذا الحفل مركزة حول أمير المؤمنين(ع) ويترقبون استماع فضائل هذا الإمام ومناقبه.

يرتقي الخطيب المنبر ويتحدث في مستهل كلامه لمدة ثلاثة إلى خمس دقائق حول كلمة الغدير لتعريف المستمعين بها، ويقول: أحد معاني الغدير في اللغة العربية هو الارض المنخفضة. وعندما تهطل الأمطار الشديدة وتتحرك السيول في الصحاري فانها تتخذ مجرى لها نحو الأراضي المنخفضة. وفي القرون الماضية حينما كانت الحجاز تعاني من شحة المياه كان المسافرون والمارة يتزودون لفترة معينة من المياه التي تتجمع في الغدير.

ونظراً إلى ان رسول الله(ص) أراد التحدث إلى عدد كبير من الناس وإبلاغهم الأمر الإلهي بولاية علي عليه السلام، حدد محل خطبته(ص) عند غدير خم كي لا تعاني الناس من قلة الماء وشحته.

بعد هذه المقدمة القصيرة واطلاق كلمة الغدير على هذا اليوم الكبير، يبدأ الخطيب حديثه الرئيسي، ويتناول أحد المباحث المناسِبة ليوم الغدير، كالولاية والإمامة ومقام الإمام وخلافة الرسول وغيرها، ويفصّلها للمستمعين ويشبع فيهم مشاعرهم الإيمانية.

ويرتكب الخطيب خطأً كبيراً من ناحية فن الخطابة اذا انحرف عن المسير الصحيح، وتناسى في ذلك اليوم الحساس قضية الولاية وخلافة الرسول(ص) وهي الهدف الاساسي للأمَر الإلهي، وخصص كل بحثه أو الجزء الاكبر منه لموضوع آخر لا يتناسب مع الهدف الرئيسي لعيد الغدير.

فمثلاً يجعل الخطيب ـ متصوراً التجديد ـ محور كلامه كلمة (الغدير) باحثاً فيها من جوانب مختلفة، ويقول: جاء لكلمة الغدير في العربية معاني عديدة، فهي بمعنى النهر وبمعنى بقايا مياه السيول وبمعنى جزء من العشب وبمعنى الأرض المنخفضة في الصحراء التي تنحدر إليها مياه السيول، وكانت مياه الغدير في الماضي تُستخدم من قبل القوافل والمارة في الصحراء.

ويواصل حديثه: كانت هناك عدة غدران بين مكة والمدينة، ويشير إلى أن «خم» هو الغدير الذي عقد إلى جانبه الاجتماع الحاشد من المسلمين الذي شهد تنصيب

الرسول(ص) للامام علي(ع)، ثم يذكر عدد الغدران وأسماءها التي جمعها من كتب التاريخ.

ان هذا الخطيب لم يُعِرْ لبلاغة الكلام أهمية، ولم يراع مقتضى الزمان ومقتضى المجلس، والاهم من كل ذلك انه لم يؤد للمستمع حقه ولم يشبع فيه رغبته التي حثته على المشاركة في هذا لحفل. لا شك في ان هذا الخطيب يقلب اوضاع الحفل، ويصيب المقيمين على المجلس والمستمعين فيه بالإحباط والأذى والألم، وقد يغادر بعضهم الحفل أثناء إلقاء الكلمة إحتجاجاً على محتواها، أو قد يحتج البعض الآخر. برفع صوته، ليُختتم الحفل البهيج بتأثر الحاضرين وعدم رضاهم.

الزمان الاجتماعي

للزمان الاجتماعي معنى واسع وعريض يمكنه أن يشمل جميع الشؤون الثقافية والعلمية والاقتصادية والسياسية والعسكرية والتربوية وغيرها.

لقد شاءت إرادة الله تبارك وتعالى أن يخلق الإنسان حراً، وبأثر هذه الحرية وهذا التفويض الإلهي الذي منحه للانسان فانه استثمره لإيجاد تحولات جديدة وتغييرات في شؤون حياته المختلفة، فيغير وضع حياته وظروف محيطه، ويضطر أُناس كل زمان للانطباق على التحولات الأساسية والجديدة لكل عصر ليتمكنوا من مواصلة الحياة.

فلقرون طويلة كانت وسيلة الناس في السفر هي الخيول والبغال والجمال التي تخرج على شكل قوافل جماعية تطوي كل يوم مسافة من الارض لتنزل في الليل للراحة عند محطات معدة لهذا الغرض، ثم تواصل مسيرها صباحاً. ومع التحول الصناعي واكتشاف السيارة والقطار والطائرة تبدلت وسيلة السفر، وهجرت هذه المحطات. وبات المسافر في وقتنا هذا يطوي المسافات الطويلة بسرعة بواسطة الطائرة أو السيارة.

وفي الماضي، اقتصر سلاح الجنود في الحروب على السيوف والحراب والنبال.

فيرتدي الدرع عندما ينازل الجندي عدوه في ميادين الحروب، ويضع على رأسه الخوذة ويقاتل العدو بهذه الاسلحة. بينما صنعت اليوم الأسلحة المتطورة والآلات القتالية الحديثة، وعلى كل شعب يريد مواجهة عدوه ويصون حدود بلاده من هجوم الأعادي ان يواكب تقدم الزمان ويتجهز بالأسلحة الحديثة. فقد أمر القرآن الكريم المسلمين: ﴿وَاَعِدُّوا لَهُمْ ما اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾[٢٤].

فالسلاح العسكري في عصر الرسول الاكرم صلّى الله عليه وآله كان يناسب ذلك الزمان، ولا بد ان يكون سلاح المسلمين اليوم يتلائم وتطورات العصر الحاضر.

الزمان الاجتماعي وتربية الابناء

أوجد التطور العلمي وانتشار الصناعة الآلية في العالم تحولاً كبيراً، وغيّر من حياة البشرية.

وينبغي بالآباء والقائمين على شؤون التربية في المجتمع ملاحظة هذه التغيرات الجديدة، ودفع الأبناء في الطريق التي تطرأ فيها تحولات مفيدة ومشروعة، وتزويدهم بالعلم، لكيلا يقفوا حائلاً أمام تقدمهم وتكاملهم، فالإمام علي عليه السلام قال عن ذلك:

«لا تقسروا أولادكم على آدابكم فانهم مخلوقون لزمان غير زمانكم»[٢٥].

فإذا كان الاب يرْتَزِقُ في الماضي على بيع الأدوية العشبية، فعليه ان لا يرغم ابنه على ممارسة هذه المهنة، لان الوضع قد تغير بتطور علم الكيمياء وظهور الأدوية الكيميائية، بل يفترض به أن يحث إبنه على الدراسة ودخول الجامعة للتزود بالعلم الحديث وليصبح بالتالي صيدلانياً ينفع المجتمع ويواصل حياته فيه.

واذا كان الاب يعتاش في الماضي على حياكة الاقمشة بالطرق اليدوية،

---

(٢٤) الانفال: ٦٠.

(٢٥) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد٢٠: الكلمة ١٠٢.

فينبغي به أن لا يفرض هذه الطريقة في الحياكة على ولده، لان الابن يدخل المجتمع في فترة حلت فيها المكائن الآلية محل اليدوية في حياكة الاقمشة والالبسة، ويجدر به ان يتعلم هذه المهنة بالمكائن الحديثة ليستطيع التعاون في المصانع مع بقية العمال المتخصصين بهذه المهنة.

خطباء الإسلام وتطور العلوم

اصبح واضحاً من الامثلة العديدة التي ذكرناها ان تحولاً عظيماً طرأ على جميع الشؤون الاجتماعية باثر انتشار العلوم والفنون المختلفة وتطورها، وتغيرت حياة الانسانية في كل أرجاء العالم.

ويستطيع الخطيب والمتكلم الإسلامي ـ إنْ شاء ـ ان يستثمر التقدم العلمي بما يتناسب والمهمة التي يحملها على عاتقه بتوضيح بعض الآيات والروايات من زاوية العلم المعاصر، وتأدية حق الشارع الإسلامي وأئمة الدين بافضل صورة، وتوعية المسلمين أكثر فأكثر على أحاديثهم العلمية الحقة.

علم الاجتماع

يعد علم الاجتماع في الثقافة الاجتماعية المعاصرة أحد الحقول العلمية المهمة، ويرى عالم الاجتماع المعروف صاموئيل كونيغ ان ظهور هذا العلم يعود إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ويقول: «حتى اَواسط القرن التاسع عشر لم يظهر علم الاجتماع كعلم مستقل»[٢٦].

وقد جاء الكثير من مبادىء علم الاجتماع في القرآن الكريم واحاديث الرسول(ص) وأهل البيت عليهم السلام. ويتمكن الخطيب المثقف المُلِم بهذا الحقل العلمي أن يستشهد في بحوثه الاجتماعية بتلك الآيات والروايات ليسترعي إنتباه

(٢٦) علم الاجتماع: ٣٢.

المستمعين إلى قيمتها العلمية.

ومن القضايا التي جاءت في الكتب المختلفة كسؤال يطرحه علم الاجتماع: بماذا وكيف غيّر رسول الإسلام شعب الحجاز المتخلف والمنحط في فترة قصيرة، وبث في ذلك المجتمع القوة والقدرة حتى استطاع من السيطرة على القوتين الكبريين آنذاك الفرس والروم والتحكم بمقاليد العالم؟ وقد أجاب القرآن الكريم على هذا السؤال:

قال تعالى: ﴿إنَّ الله لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِم﴾[٢٧].

استطاع الرسول الاكرم(ص) بالسعي والعمل وتحمل المشاق والمتاعب ان يزيل علل انحطاط قومه ويحل محلها أسباب السمو والتكامل.

فأحَلَّ التوحيد بدل الشرك والعدل محل الظلم وحب الغير محل عبادة الذات والإنصاف عوضاً عن التعدي والوحدة بدل التشتت والعز محل الذل والكرامة محل الوضاعة، وجاء بجميع عوامل الرقي والتكامل عوضاً عن علل الانحطاط، حتى بلغوا ذروة العز والعظمة في ظل التحول الباطني والظاهري الذي أوجده الرسول(ص) فيهم.

واذا طرح السؤال نفسه اليوم من زاوية علم الاجتماع: ماذا جرى للأمة الإسلامية التي كانت ترفل بالنصر والعز وتتقدم بسرعة كبيرة، وما بالها تواجه الإنحطاط والذل وتنحدر نحو السقوط.

الجواب على هذا السؤال هو نفسه الذي أدى إلى السمو والرقي:

﴿إنَّ الله لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّروا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

علم النفس

علم النفس كسابقه علم الاجتماع يعتبر في الثقافة الاجتماعية لعالم اليوم من الفروع العلمية المهمة، واذ أحاط الخطيب إلى حد ما بهذا العلم فانه يستطيع ان يقف

---

(٢٧) الرعد: ١١

على عمق بعض الأحاديث الأخلاقية، ويوضحها لمستمعيه.

عن النبي صلّى الله عليه وآله:«*لا يكذب الكاذب الّا من مهانة نفسه عليه*»[٢٨].

يحين موعد تسديد الحوالة على تاجر، غير انه لا يمتلك المال، فيشعر في باطنه بالمهانة والضعة، ولكي يخفي ذله يطلق لسان الكذب ويقول لحامل الحوالة: انتهى دفتر الشيكات فتعال بعد يومين ريثما استلم من المصرف دفتراً آخراً.

التحليل النفسي

التحليل النفسي في الثقافة الاجتماعية المعاصرة حقل علمي جديد جاء إلى جانب علم النفس، وهو عبارة عن البحث والتفحص والتفتيش في لا شعور الإنسان أي ضميره الباطن، يستخدمه الأطباء النفسانيون لمعالجة مرضاهم.

يعاني بعض الشبان من القلق والاضطراب ويفقد حالته الطبيعية، فلا يأكل بالمقدار الطبيعي ويصاب بالأرق الليلي.

وبعد مراجعة الاطباء المتخصصين في الفروع المختلفة وإجراء الفحوصات اللازمة والاختبارات العديدة، يتضح ان المرض ليس عارضاً جسمياً أو اصابة جرثومية، وانما تمتد جذوره إلى نفس المريض وروحه، ولا يعلم أحد سببه إلا المريض نفسه.

فيأتي دور المحلل النفسي الذي يقدم طرق التغلغل في لا شعور الشاب المريض، ويهدي الطبيب النفسي إلى الوسيلة التي توصل إلى معرفة العقدة الروحية للمريض والوقوف على علة مرضه.

واحدى هذه الطرق هي التقاط الكلام اللاشعوري الذي يقوله سهواً خلال الإجابة على اسئلة الطبيب النفسي ويعتقد المحللون النفسيون ان الكلام غير المقصود هو كفتيل النار الذي يظهر فجأة من تحت الرماد، وقد جرى توضيح هذا

---

(٢٨) ميزان الحكمة٨: ٣٤٧.

الموضوع في الجزء الاول من كتاب الطفل في المحاضرة الثانية عشر التي تضم فصلاً عن التحليل النفسي[٢٩].

حول الكلام اللاشعوري اشار الإمام علي عليه السلام في إحدى كلماته القصار، وبيّن دوره في الكشف عن محتوى الضمير الباطن.

قال(ع): «*ما اضمر احد شيئاً الا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه*»[٣٠].

يؤدي الخطيب إلى حد ما حق هذا الحديث، ويوضح للمستمعين قيمة كلمة الامام هذه، لو كانت له إلمامات عن التحليل النفسي في الثقافة الاجتماعية المعاصرة.

الجو السياسي

من الأمور المهمة الأُخرى في بلاغة الخطيب من ناحية الزمن الاجتماعي التي يفترض به ان يأخذها بعين الاعتبار في خطبه، هو الجو السياسي الحاكم والنظر اليه وفق الرؤية الاسلامية. فإذا لم يهتم للوضع السائد والظروف السياسية الزمنية، ويتعامل معها بلا مبالاة، ويمر بقربها مرور الكرام، فلربما يدخل بشكل لا شعوري في مبحث لا يوافق المصلحة التي تقتضيها الاوضاع والاحوال الموجودة، فيتجه اليه المؤمنون بالاعتراض والاحتجاج.

وفي القرآن الكريم نزلت عدة من الآيات حول واقعة واحدة، وأُولى تلك الآيات هي:

﴿إِنّا أَنْزَلْنا اِلَيْكَ الكِتابَ بِالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ بِما اَراكَ اللهُ وَلا تَكُنْ لِلْخائنينَ خصيماً﴾[٣١].

وينقل المفسرون باختلاف طفيف القضيةِ التي نزلت الآيات بشأنها، وقد

---

(٢٩) الكتاب مترجم إلى العربية تحت عنوان (الطفل بين الوراثة والتربية) وهو لمؤلف هذا الكتاب [المترجم].

(٣٠) نهج البلاغة: الكلمة ٢٦.

(٣١) النساء: ١٠٥.

فصّلها بعض واجملها آخرون، وقصتها كما جاءت في تفسير الكشاف ومنهج الصادقين كالآتي:

روي ان طعمة بن ابيرق أحد بني ظفر سرق درعاً من جار له اسمه قتادة بن النعمان في جراب دقيق، فجعل الدقيق ينتشر من خرق فيه، وخبأها عند زيد بن السمين رجل من اليهود، فالتمست الدرع عند طعمة فلم توجد وحلف ما اخذها وماله بها علم، فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى إلى منزل اليهودي فاخذوها، فقال: دفعها اليّ طعمة وشهد له ناس من اليهود، فقالت بنو ظفر: انطلقوا بنا إلى رسول الله(ص)، فسألوه ان يجادل عن صاحبهم، وقالوا: ان لم تفعل هلك وافتضح وبرىء اليهودي، فهمّ رسول الله(ص) ان يفعل، وان يعاقب اليهودي، وقيل همّ ان يقطع يده، فنزلت الآية[٣٢].

الخطيب والغفلة عن الجو السياسي

للصهاينة في لبنان ملف إجرامي أسود، حيث إرتكبوا في هذه المنطقة ممارسات لا إنسانية كثيرة، لكن هذه الجرائم بلغت ذروتها لمدة اسبوع وذلك قبل عدة سنوات عام (١٩٨٣ميلادية) حيث عملوا المذابح والمجازر في صفوف المسلمين، وكتبت الصحافة حينذاك ان أجساد الضحايا مبعثرة في الشوارع، وان اولئك الجائرين لم يتورعوا حتى من الهجوم على المستشفيات وقتل الراقدين فيها من المرضى.

وقد تركت هذه الانباء المؤلمة عند سكان العاصمة طهران أثراً عميقاً، وشعر المسلمون الحقيقيون بعمق الجرح الذي أُصيبوا به، وكان الحديث عن جرائم اليهود حديث الساعة أينما حللت.

وفي إحدى الليالي وحيث كانت حرارة تلك الأخبار المرعبة تملأ الصدور غيضاً وحنقاً على اليهود، ارتقى احد الوعاظ وكان عالماً جليلاً قديراً المنبر في احد مساجد

---

(٣٢) الكشاف١: ١٩٠.

طهران ليخطب في الناس وكنت معهم في مجلس هذا الواعظ، فقام بتقديم شرح وافٍ عن قضيـة قتادة بن النعمان وطعمة بن أبيرق وهو يهدف إلى تبيين عدالة الدين الإسلامي، وتحدث في الختام عن تبرئة الرجل اليهودي وتلا الآيات النازلة بهذا الشأن.

وكـان الجو السياسي آنذاك مشحوناً ببغض الصهاينة المجرمين والعداء مع اليهود الغاصبين الظالمين، ولم يكن بوسع المسلمين في تلك الظروف من سماع نبأ تبرئة اليهودي، لهذا لقيت خطبة الواعظ برودا واضحاً، بينما غادر البعض المجلس أثناءها.

بعد نهاية الخطبة نزل الواعظ عن المنبر وجلس بقربي، ولم يمر وقت طويل حتى وقف أحد الحاضرين وكان معروفاً بالصلاح امام السيد الواعظ ورفع صوته قائلاً: حينما يبكي المسلمون دماً من جور وظلم اليهود والجرائم التي يرتكبونها في لبنـان ازاء المسلمين لم يكن الأمر يتطلب ان تحكي هذه القصة التي تنتهي بتبرئة اليهودي لصالح اليهود.

ان غفلة الخطيب عن الجو السياسي السائد ادى بالخطيب المحترم إلى ذكر هذه القضية دون قصد وبالتالي قوبل بالإحتجاج والاعتراض.

كذلك، لا تقتصر الضرورة على مراعاة الخطيب للجو السياسي وهو على منبر الخطابة يتحدث إلى العامة، بل لا بد أيضاً من مراعاة جو المجلس الخاص الذي يعقد بحضور ذوي السلطة والإقتدار والعتاة، وتجنب التفوه بما يناقض اوضاع المجلس.

روي ان رجلاً من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام لسعته حية فقال له أمير المؤمنين(ع) أتدري لما أصابك ما أصابك؟ قال: لا، قال: أما تذكر حيث اقبل قنبر خادمي وأنت بحضرة فلان العاتي فقُمت إجلالاً له لإجلالك لي فقال لك اتقوم لهذا بحضرتي؟، فقلت له: وما بالي لا اقوم وملائكة الله تضع أجنحتها في طريقه فعليها يمشي. فلما قلت هذا له قام إلى قنبر وضربه وشتمه وآذاه وتهددني والزمني الإغضاء على قذىً ولهذا سقطت عليك هذه الحية، فان أردت ان يعافيك الله تعالى من هذا فاعقد ان لا تفعل بنا ولا باحدٍ من موالينا بحضرة اعدائنا ما يُخاف علينا وعليهم

منه[٣٣].

نستنتج: أنه يلزم بالخطباء والمتحدثين أن يأخذوا بعين الإهتمام في المجالس العامة الزمن الاجتماعي ومراعاته في خطبهم، لكيلا يخرجوا عن حد البلاغة ولا يواجهوا احتجاج هذا وذاك، وأيضاً يجدر بالأناس العاديين مراعاة جو المجلس في الحلقات والمجالس الخاصة، ولا يتفوهوا بما يخلق لهم المشاكل ويحمل في طياته المتاعب لهم وللآخرين.

الزمن الأهم من الناحية البلاغية

ان معرفة الزمان الاجتماعي للخطيب أهم كثيراً من معرفة الزمان الطبيعي والزمان الاجتماعي من الناحية البلاغية للكلام، ذلك ان الزمان الطبيعي يرتبط بالقوانين التكوينية ونظام الخلقة ـ كما مر بنا ـ ولا يختص بأُناس دون آخرين ويشمل كل البشرية على صعيد المستقبل كما شملها في الماضي.

وللزمان التاريخي بُعد عام أيضاً عند الأُمم والشعوب، مثل التاريخ الميلادي والتاريخ الهجري الذي يحتوي عدداً كبيراً من الناس في أنحاء العالم، كذلك فان لشعوب العالم المختلفة زمان تاريخي خاص من الوجهة الدينية والسياسية والثورية والإستقلالية وغيرها، وتحتفل في عامها بيوم واحد أو عدَّة أيَّام تعتز وتحتفي بها.

اما الزمان الاجتماعي فهو يدور حول الزمن الحاضر. بمعنى الزمن الذي يتحدث فيه الخطيب ويصغي المستمعون. فلجميع الشؤون الاجتماعية لاي قوم في الحال الحاضر وضعاً خاصاً، وينبغي بجميع الشعوب ان تعي زمانها الاجتماعي لتستطيع ان تتوافق مع ظروفه بشكل صحيح، لتحصل بأثر الوعي والتوافق على منافعه وتتوقى اضراره.

وقد وردت أحاديث مختلفة على أساس اختلاف الزمان الطبيعي والزمان

---

(٣٣) سفينة البحار١: (سبب): ٥٩٢.

الاجتماعي، ففي الأحاديث التي تناولت الزمان الطبيعي جاءت على ذكر الزمان دون ضمير «ينبغي لمن عرف الزمان ...» واتصلت بالضمير في الأحاديث التي تحدثت عن الزمان الاجتماعي واختصت بمجموعة معينة من الناس «العالم بزمانه...»، وهذه بعض الاحاديث الاجتماعية:

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله:«*على العاقل ان يكون بصيراً بزمانه مقبلًا على شأنه حافظاً للسانه*»[٣٤] .

وعن الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال:«*العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس*»[٣٥] .

معرفة اهل الزمان

من أبعـاد الزمن الاجتماعي هو أهل الزمان، وأهمية معرفتهم تتجاوز حدود المعرفة بذاتها إلى فتح الآفاق لمعرفة سائر أبعاد الزمان الاجتماعي، لذلك جاءت على ذكرها بعض الأحاديث الشريفة:

فيما أوصى به أمير المؤمنين إلى الحسن عليهما السلام: «يا بني انه لا بد للعاقل ان ينظر في شأنه،فليحفظ لسانه وليعرف أهل زمانه»[٣٦].

الإستحسان والثناء

من الامور التي يواجهها الخطيب احياناً قضية تقدير خدمات الآخرين والثناء على بعض من يستحق. ولا شك في ان الاستحسان والثناء له أثر نفسي في الاشخاص ويبعث فيهم الارتياح ازاء الاعمال التي قاموا بها ويُشوقهم للمستقبل اكثر فأكثر.

وقبل الخوض في هذا البحث، لا بد من الإجابة على السؤال التالي: هل ان

---

(٣٤) سفينة البحار٢: (لسن): ٥١٠.

(٣٥) تحف العقول: ٣٥٦.

(٣٦) أمالي الشيخ الطوسي١: ١٤٦.

الثناء على الآخرين واستحسان افعالهم هو امر جائز ومباح أم محرم ومحظور بنظر الشرع المقدس؟

نفهم من الأحاديث الواردة بهذا الشأن ان الثناء على الآخرين واستحسان أفعالهم تشجيعاً لهم ولغيرهم هو امر جائز، بل وفوق ذاك ان الائمة قد امروا اصحاب المناصب بالقيام بهذه المسؤولية المثمرة النافعة في الموقع المناسب. كذلك فان الثناء على شخصين يجمعهما مجلس واحد كلا يستحق المدح يجب ان يقدم وفق مقياس صحيح، وعلى الخطيب البليغ الذي يحسب لكل موقف حسابه أن يراعي حد كل منهما في إطاره الخاص، ويحترم كلاً منهما بما لا يؤدي إلى تحقير الآخر واهانته.

وقد يكون لأحد الاثنين مقام شامخ ومنزلة رفيعة تفرض ذكر اسمه لوحده، فيستحق الخطيب ملامة اذا تناولهما بالذكر سوية لانه لم يراع حق صاحب المكانة الشامخة وتجاوز الأُطر الاجتماعية ويستحق التوبيخ واللوم أيضاً اذا أولى عنايته لرجل الدرجة الثانية (إن صحّ التعبير) اكثر من صاحبه وبجّله اكثر من الآخر.

ولكي لا يُساء فهم المقصود في هذين المثالين حول الثناء والتقدير والمديح نستشهد بروايتين توضحان ـ من جهة ـ الموضوع وتجليان الغموض عنه وتبينان ـ من جهة ثانية ـ الاهمية التي كان يوليها الرسول(ص) والأئمّة(ع) للحدود والمستويات:

ورد في الحديث: أن رجلاً قال: من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى.

فقال له النبي صلّى الله عليه وآله: «*بئس الخطيب انت، قل ومن يعص الله ورسوله فقد غوى*»[٣٧].

وفي توضيح الحديث، جاء في (لسان العرب).

إنما ذمه لانه جمع في الضمير بين الله تعالى ورسوله في قوله ومن يعصهما فامره

---

(٣٧) لسان العرب: كلمة (عصا).

ان يأتي بالمظهر ليترتب اسم الله تعالى في الذكر قبل اسم الرسول(ص).

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: «*استقبل رسول الله رجلًا من بني فهدٍ وهو يضرب عبداً له والعبد يقول أعوذ بالله، فلم يقلع الرجل عنه، فلما ابصر العبد رسول الله(ص) قال أعوذ بمحمد، فاقلع عنه الضرب، فقال رسول الله: يتعوذ بالله فلا تعيذه ويتعوذ بمحمد فتعيذه والله أحق ان يجار عائذه من محمد، فقال الرجل هو حر لوجه الله، فقال رسول الله: والذي بعثني بالحق نبيًّا لو لم تفعل لواقعّ وجهك حر النار*»[٣٨].

في الحديث الأول وهو الشاهد على القسم الاول في هذا الجانب من البحث جمع المتحدث لفظ الجلالة واسم رسول الله في كلمة واحدة وقال: «ومن يعصهما»، رغم ان الاجدر به كان ان يفصل بين لفظ الجلالة عن الاسم المبارك للرسول(ص)، ولهذا وصفه النبي(ص) بئس الخطيب لعدم مراعاته حد الخالق والمخلوق.

وفي الرواية الثانية وهي الشاهد على الفقرة الثانية، لم يهتم الرجل الفهدي باستعاذة العبد بالله ولم يرتب عليها أثراً واستمر بضربه، غير انه اقلع عن ضربه فور ان قال: «اعوذ بمحمد» اما بدافع الاحترام لرسول الله(ص) أو من أجل التملق إلى رئيس الدولة، فوبخه الرسول الاكرم(ص) بشدة وعنّفه لعدم مراعاته الحدود وخروجه عن اطر التكريم والاحترام.

وبوسع السادة الخطباء والوعاظ من الاعتبار بهاتين الروايتين ووضعهما كمعيار عمل، لكي لا تغيب عن اذهانهم المقاييس اذا واجهوا حالات مماثلة ولا يقعوا في الإفراط والتفريط.

الخطيب واحترام شخصية المستمع

مما يستلزم بالخطيب البليغ مراعاته أيضاً احترام شخصية المستمع قولاً وعملاً، بحيث لا يستشف المستمع اي تحقير من قبل الخطيب سواء في سلوكه أو في كلامه،

---

(٣٨) بحار الانوار١٦: ٢٨٢.

ولا يشعر بالوضاعة والصغر من تصرفاته، واليكم بعض الحالات التي تنضوي تحت مظلة الإحترام توضيحاً للموضوع:

القول اللين

من طرق احـترام شخصية المستمع هي ليونة الخطيب ومرونته في الحديث، وتجنب استخدام المفردات القاسية والكلام الحاد، لأن المستمع يعتبر قسوة المتكلم اهـانـة له يقف ازاءها موقف المقاوم المانع، الامر الذي يخفض أو يزيل تماماً تأثير الخطيب في السامع.

وجاء في القرآن الكريم ان موسى وهارون لما امرهما الله تعالى بالذهاب إلى فرعون ودعوته إلى طريق الحق، طلب منهما التحدث بليونة، قال عز اسمه: **﴿إذْهَبا إلى فِرْعَوْنَ إنَّهُ طَغى فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّنا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ اَوْ يَخْشى﴾**[٣٩].

وعن مولانا الكاظم عليه السلام في قوله تعالى **﴿فقولا له قولاً ليناً﴾** اي كنياه[٤٠].

ومعلوم ان المناداة بالكنية عند العرب هو احترام وتكريم لشخصية المنادى.

وفي القرآن الكريم اَيضاً جاء ان ليونة الرسول الاكرم(ص) التي كانت من عوامـل كسب القلوب وجذب النفوس انما استلهمت من رحمة الله الواسعة، قال العظيم: **﴿فَبِما رَحْمَةٍ مِنْ الله لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَليظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾**[٤١].

ان القـول اللين يعـبّر عن احـترام المتكلم لشخصية المستمع، ويترك هذا التقـدير في المستمع اثراً كبيراً حتى ليغير موقفه حيال المتكلم ويبدل تصلبه إلى مرونة.

في وصية الإمام علي عليه السلام لإبنه الحسن(ع): *«ولِنْ لِمن غالظك فانه*

---

(٣٩) طه: ٤٣ و٤٤.

(٤٠) بحار الانوار١٣: ١٣٤.

(٤١) آل عمران: ١٥٩.

يوشك ان يلين لك»[٤٢] .

وجاء: ان اسحق الكندي كان فيلسوف العراق في زمانه اخذ في تأليف تناقض القـرآن، وشغل نفسه بذلك، وتفرّد به في منزله، وان بعض تلامذته دخل يوماً على الحسن العسكري عليه السلام فقال له أبو محمد عليه السلام: اَمَا فيكم رجل رشيد يردع استاذكم الكندي عما اخذ فيه من تشاغله بالقرآن؟

فقال التلميذ: نحن من تلامذته كيف يجوز منّا الاعتراض عليه في هذا أو في غيره؟

فقال أبو محمد عليه السلام: اتؤدي اليه ما أُلقيه اليك؟ قال: نعم.

قال: فصر إليه، وتلطّف في مؤانسته ومعونته على ما هو بسبيله، فإذا وقعت الأُنسة في ذلك، فقل: قد حضرتني مسألة أسألك عنها فانه يستدعي ذلك منك، فقل له: إن اتاك المتكلم بهذا القرآن هل يجوز ان يكون مراده بما تكلم به منه غير المعاني التي قد ظننتها انك ذهبت اليها؟ فانه سيقول انه من الجائز لانه رجل يفهم اذا سمع فإذا وجب اوجب ذلك فقل له: فما يدريك لعله قد اَراد غير الذي ذهبت انت اليه، فتكون واصفاً لغير معانيه.

فصار الرجل إلى الكندي وتلطّف إلى ان القى عليه هذه المسألة، فقال له: اعد عليَّ ! فاعاد عليه؛ فتفكر في نفسه، ورأى ذلك محتملاً في اللغة، وسائغاً في النظر[٤٣].

اذن، ينبغي بخطباء الإسلام ان يحتفظوا في الذاكرة بتوصية الإمام العسكري عليه السلام واستعمال القول اللين مع المستمعين في التبليغ والإرشاد والوعظ، لان اللين في الكلام هو احترام لشخصية المستمع من جهة وافضل اسلوب للتأثير المعنوي فيه من جهة أُخرى.

فبـوسع الخطيب ان يهدي المستمع بسهولة نحو طريق الحق بالقول اللين،

---

(٤٢) بحار الانوار٧٤: ١٦٨.

(٤٣) بحار الانوار٥٠: ٣١١.

ويوقظ في ضميره حس الشعور بالمسؤولية، ويحثه على اداء التكاليف الشرعية.

وعلى الواعظ ان يتمرس ويتمرن على الليونة في الكلام حتى تصبح فيه هذه السمه ملكة نفسية، ويتطبع على التلطف في الحديث حتى لا يستطيع بعده معاكسة هذه الصفة الا بعسر.

يقول الإمام علي عليه السلام: *«عوّد لسانك لين الكلام»*[٤٤].

النظرة الشاملة

ما يجب على الخطيب مراعاته ايضاً في مجال تكريم شخصية المستمع هو ان يرى ان مخاطَبيه في المجلس هم حضّاره جميعاً، ويلقي طوال فترة الخطبة نظرهُ على كُل المستمعين بالتناوب، لا أن يركّز انظاره فقط على الجالسين قرب منبر الخطابة ويتجاهل بقية المستمعين.

فالرسول الاكرم(ص) كان يراعي هذه المسألة دائماً سواء أكان على المنبر أو اسفله، ويسبغ الإحترام على جميع الحاضرين.

عن الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: *«كان رسول الله صلّى الله عليه وآله يقسّم لحظاته بين أصحابه ينظر إلى ذا وينظر إلى ذا بالسوية»*[٤٥].

النقد الموضوعي

يلزم بالخطيب أيضاً وهو على منبر الخطابة ان لا يخاطب شخصاً بذاته ويذكر اسماً معيناً يريد بذلك النصح أو الإنتقاد فيجرح شخصيته، لان الإنتقاد جهراً فضلاً عن انه لا يُصلح الخاطىء ولا يترك فيه أثراً نافعاً يُذكر فهو قد يؤدي إلى نتائج معكوسة ويزيد من الجرأة على الامعان في الخطيئة لما له من دور في التحقير.

---

(٤٤) فهرست غرر الحكم: ٣٣٤.

(٤٥) الكافي٨: ٢٦٨

ولكي لا يواجه الخطيب مثل هذه المشكلة، عليه انتهاج أُسلوب الرسول الكريم(ص) وتتبُّع خطواته التالية:

اولاً: يوصي اصحابه ان لا يتحدث اليه احد باخطاء ومزالق اخوته في الدين، لكي لا يكون في نفسه شيء منهم، وهذه واحدة من وصايا الرسول الاكرم(ص):

عن إبن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وآله:«*لا يُبلغني احد منكم من أصحابي شيئاً فاني احب أن اخرج اليكم سليم الصدر*»[٤٦].

ثانياً: اذا علم ان اخاه المسلم الشخص الفلاني قد ارتكب فعلاً محرماً وممارسة خاطئة، فلا يذكر اسمه مباشرة من على منبر الخطابة أو في مجلس عام ويعيره بسلبياته ناوياً الاصلاح، بل عليه ان يقتدي بالرسول(ص):

وكان صلّى الله عليه وآله اذا بلغه عن احد ما يكرهه لم يقل ما بالُ فلان يقول كذا، ولكن يقول ما بال اقوام يصنعون كذا ويقولون كذا،ينهى صلّى الله عليه وآله عنه ولا يسمي فاعله[٤٧].

الإنتقادات الاجتماعية

اذا شاء الخطيب الإسلامي ان يأتي على ذكر المعاصي وهو على منبر الخطابة وينتقد الممارسات السلبية، فعليه ان يأخذ بعين الإعتبار الحاضرين في المجلس ويتحدث بما يناسب المقام. فإذا كان المجلس يتشكل من عدد محدود كلهم من الملتزمين المؤمنين المعروفين المندفعين لتطبيق التعاليم الاسلامية، فيستطيع الخطيب ان يتحدث عن مصافحة الرجل للمرأة الأجنبية وينتقد هذه الحالة رغم ان الحاضرين لا يرتكبون مثل هذه المعصية، غير انه يوصيهم للتأكيد على أبنائهم وذويهم من الشباب لاجتناب هذا العمل المحرم، وتذكيرهم بانه يمهد ارضية الإنحلال الخلقي ويجر

---

(٤٦) بحار الانوار١٦: ٢٣٠.

(٤٧) كحل البصر للمحدث القمي: ٩٢.

الشباب الى آثام اكبر ناهيك عن حرمته.

اما في المجلس الذي يحضره المئات أو الآلاف من شتى الأصناف حيث يجهل الخطيب معتقدات وأخلاق وسلوك معظم مستمعيه، فيفترض به أن ينتقد ويشدد على تلك المعاصي التي يذعن بها الجميع ويتفقون على سوءها وسلبيتها دون ان يتردد في تشخيصها احد أو ان يستطيع ان ينشر حمايته على مرتكبها.

مثال:

اذا اَراد الخطيب ان يتحدث في مجلس معظم حضّاره من موظفي الدولة مدنيين وعسكريين بما يتلائم واجواء المجلس حول المعصية ويقدم لهم النصائح والمواعظ، فمن المناسب ان يجعل موضوع بحثه (بيت مال المسلمين)، ويشرح مسؤولية الموظفين امام الله ازاء الأَموال العامة وينتقد المتخلفين عن هذه المسؤولية والمخطئين، ويحذر موصياً ومؤكداً من تصرفاتهم اللامشروعة.

ولكي يوضح الخطيب في البدء للمستمعين أهمية بيت المال والحرص الذي كان يبديه رجال الإسلام على أموال العامة، ويوصي الموظفين ببعض الوصايا في هذا الجانب وفي الوقت المناسب، يستطيع ان يستشهد بالبيان التالي للامام علي عليه السلام ويقرأ نصه على الحاضرين:

عن الإمام الصادق عن آبائه عليهم السلام:«*ان امير المؤمنين كتب إلى عماله ادقّوا اقلامكم وقاربوا بين سطوركم واحذفوا عني فضولكم واقصدوا قصد المعاني واياكم والإكثار فان أموال المسلمين لا تحتمل الإضرار*»[٤٨] .

يقول الخطيب بعد قراءة هذا النص: على كبار موظفي الدولة أن ينتبهوا إلى ان الدولة إنما وضعت تحت تصرفهم السيارة والوقود والاطارات من بيت المال لاستخدامها في الاعمال الإدارية واستعمالها في ما يرتبط باشغالهم.

---

(٤٨) بحار الانوار٧٣: ٤٩.

اما اذا استخدمها الموظف في الذهاب إلى السوق وشراء الخضار أو إبتياع الخبز واللحوم، أو اعطاءها لصديق للقيام بسفرة قصيرة بها، فعليه ان يعلم انه قد خان الأمانة، وارتكب المعصية، كما انه سيبقى مديناً لبيت المال وعليه ضمان شرعي.

وينبغي لصغار الموظفين الإنتباه أيضاً إلى ان الدولة قد وضعت تحت اختيارهم الاقلام والاوراق لاستخدامها عند الحاجة اذا ما تطلب العمل ذلك، لا ان يستهلك الاقلام والاوراق في رسم شجرة أو حيوان أو أي شكل آخر ليمزق الورقة بعد حين ويرميها في سلة المهملات، فتصرف كهذا يدين الموظف لبيت المال من جهة ويؤاخذ أمام الله من جهة أُخرى.

الإحتكار

الإحتكار أيضاً عمل مذموم مثلما هو التصرف غير المشروع في الأموال العامة يستهجنه جميع الناس ولا يؤيّد كائناً من كان ان تقوم مجموعة جشعة بتعريض حياة الآخرين للخطر عن طريق الإحتكار وتهديدهم بالموت من أجل الحصول على أرباح كبيرة. يستطيع الخطيب ان يطرح قضية الإحتكار في المجالس العامة التي تختلف فيها الآراء والمعتقدات لدى الحاضرين، والخوض فيها وتوجيه الانتقاد اللاذع للمحتكرين وتذكيرهم ان الرسول(ص) قال عن هذه المجموعة:

«ولئن يلق الله العبد سارقاً أحب إلي من ان يلقاه قد احتكر طعاماً اربعين يوماً» (٤٩).

اذن: لو أراد الخطيب ان يتحدث عن المعصية وينتقد الاثم بحضور جمع كبير من الناس، فعليه ان يختار لكلامه قاعدة تقف عليها جميع الآراء وتدعمها، ويتطرق إلى خطيئة لا يستطيع احد أن يوافقها ويقف إلى جانب مرتكبها.

وقد تمسكت العقيلة زينب عليها السلام ثم الإمام علي بن الحسين عليهما

---

(٤٩) بحار الانوار ١٠٠: ٧٧.

السلام بهذا الاسلوب الانتقادي المثير لدى مخاطبة الناس في سوق الكوفة، فكان للخطاب وقعه المؤثّر في جميع الناس الذين كانوا حاضرين ساعتئذ.

فلم تتحدث العقيلة زينب عليها السلام في مستهل كلامها عن الخطيئة الكبيرة في قتل الإمام الحسين بن علي عليهما السلام وافراد عائلته واصحابه، بل انها وجهت في البدء انتقاداً شديداً إلى أهل الكوفة لمكرهم وغدرهم، وقالت:

يا أهل الكوفة يا أهل الختل والغدر.

أي انها ارادت ان تقول لا شأن لي بكم حول موقفكم من حكم يزيد انه على الحق أو على الباطل، أو انكم تبيحون قتل ابن الرسول(ص) أم لا، وحديثي معكم انكم خونة آثمين في كلتا الحالتين، لانكم تعتبرون الإسلام دينكم وتزعمون اتّباعكم للقرآن الكريم، بينما يمنع القرآن الخداع والمكر وكذلك الرسول(ص) فقد حذر المسلمين منهما.

وارادت ان تعبّر بهذا الوصف الموجز عن مكر أهل الكوفة وغدرهم ازاء الإمام الحسين وهو ما يتنافى والتعاليم الإسلامية، حينما كاتبوه وانهالت رسائلهم عليه تدعوه وتبايعه وتعده بالوفاء والمساندة، لكن ظهر مكرهم وانكشف غدرهم حينما لبّى الدعوة، فلم يناصروه ونقضوا عهودهم ومواثيقهم، بل حاصروه واصحابه وقتلوهم بشكل مفجع، وتقول العقيلة زينب في جانب من خطبتها هذه:

ويلكم اهل الكوفة! اتدرن أي كبد لرسول الله فريتم وأي دم له سفكتم وأي كريمة له أبرزتم وأي حرمة له انتهكتم. لقد جئتم بها صلعاء عنقاء فقماء خرقاء شوهاء، كطلاع الارض ومُلاء السماء. افعجبتم ان مطرت السماء دماً؟ ولعذاب الاخرة اخزى وانتم لا تُنصرون....

وإلامام السجاد عليه السلام خطبة في سوق الكوفة اَيضاً تحدث فيها كما تحدثت زينب عليها السلام عن مكر القوم وخداعهم باعتباره اثماً كبيراً، وذكر عليه السلام اَيضاً ذنباً آخراً ارتكبوه بشأن قتل الإمام الحسين عليه السلام، وقال:

«انا ابن من قُتل صبراً وكفى بذلك فخراً»[٥٠].

والقتل صبراً في الإسلام ممنوع ومحرم كما تشير إلى ذلك الروايات الواردة عن الرسول صلّى الله عليه وآله.

في حديث النبي صلّى الله عليه وآله: *«انه نهى عن قتل شيء من الدواب صبراً»*[٥١].

وفي الحديث انه نهى عن المصبورة ونهى عن صبر ذي الروح[٥٢].

والمصبورة التي نهى عنها هي المحبوسة على الموت وكل ذي روح يصبر حياً ثم يرمى حتى يقتل فقد قتل صبراً[٥٣].

مثال:

إذا وضع طير في قفص وتجمع حوله عدد من الاشخاص يمسك كل منهم بيده آلة حافتها مدببة وحادة واستهدفوا الطير من جوانبه بآلاتهم حتى الموت، فيكون الطير قد قتل صبراً وقد حرم الإسلام هذه الطريقة في القتل واعتبرها ذنباً.

الم يكن مضجع الإمام الحسين بن علي عليهما السلام في الدقائق الاخيرة من عمره الشريف كالقفص الذي ذكرناه كمثال وقد حبس الإمام فيه وتجمع حوله الاعادي القساة القلوب واستهدفوه عليه السلام من كل جانب وطعنوه بالسيوف والحراب والرماح حتى قضوا على حياته وسلّم الروح إلى بارئها.

فالإمام السجاد عليه السلام يريد ان يقول: انكم تدّعون الإسلام، وبفرض انكم توافقون حكم يزيد وتبيحون قتل الإمام الحسين(ع) فلم يكن لكم الحق وفق الشرع المقدس ان ترتكبوا هذا الذنب في كيفية القتل فتقتلون الإمام صبراً، وهذا الاسلوب اللامشروع هو عار لكم وشاهد على خطيئتكم وهو لنا فخر ورفعة.

---

(٥٠) نفس المهموم: ٣٩٥.

(٥١) لسان العرب: (صبر).

(٥٢) و(٥٣): ن. م.

الفصل العاشر

«إنَّ لله على الناس حُجَّتين حُجَّة ظاهرةً وحُجةً باطنةً فأمَّا الظاهرةُ فالرسل والانبياء والائمّة واما الباطنةُ فالعقول».

الإمام الكاظم(ع)

الخطيب والمستمعون

ان الاصغاء إلى اقوال العلماء المؤمنين في المجالس العامة والإستماع إلى الفضلاء من ذوي الأخلاق السامية في التعامل الخاص هو من العوامل المؤثرة جداً في تكامل الإنسان ورقيّه.

فالإنصات إلى كلام المربّين الاكفّاء والجلوس مع رجال الخير والفضيلة يساعد على إخراج الاستعدادات الباطنية للمرء إلى حيز الفعل، ليصبح إنساناً واقعياً يتسم بمكارم الأخلاق والسجايا الإنسانية.

وحسن الإستماع إلى المتكلمين واستيعاب كلامهم هو أمر اكتسابي شأنه في ذلك شأن حسن التكلم للآخرين، ولا بد من بلوغه بالممارسة والتمرن.

يقول الإمام علي عليه السلام: *«اذا جلست إلى عالم فكن على ان تسمع احرص منك على ان تقول وتعلَّمْ حسن الاستماع كما تتعلّم حسن القول ولا تقطع على*

احد حديثه»[١] .

ان حسن الاستماع يعني الإصغاء بدقة إلى كلام العالم في أي من الفروع العلمية، هو الشرط الأساسي لتعلم ذلك العلم وسلوك طريق الكمال المختص بذلك العلم.

ومن يتوخى معرفة سعادة الإنسان وشقائه والتمييز بين الطريق المستقيم عن المنحرف، فعليه ان يعطي اذناً صاغية للقول الحكيم المنقذ الصادر عن القادة الدينيين وهداة طريق الحق، ويحسن الاستماع اليهم ليقف على عمق اهدافهم ويحتفظ بها في ذاكرته ويعمل وفقها.

وانسان كهذا جدير بأن تشمله الرحمة الإلهية الواسعة لينتهل من محيطات فيوضها، وحق ان يصيبه دعاء مولى الموحدين الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول:

«رحم الله امرأً سمع حُكْماً فوعى ودُعي إلى رشادٍ فدنا واخذ بحُجزةِ هادٍ فنجا»[٢] .

وقد أُرسي النظام التكويني والنظام التشريعي بارادة الحق تعالى على أساس العلم، ولا بد لمن يريد معرفة اي جزء من اجزاء هذا النظام ان يدخله عن طريق العلم والمعرفة.

قال الإمام علي عليه السلام: *«يا كميل ما من حركة الا وانت محتاج فيها إلى معرفة»*[٣] .

وعن الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: *«العامل على غير بصيرة كالسائر على غير طريق ولا تزيده سرعة السير الّا بُعدا»*[٤] .

---

(١) مشكاة الانوار: ١٣٤.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ٧٦.

(٣) تحف العقول ١٧١.

(٤) مشكاة الانوار: ١٣٤.

فمن يحاول ان يطوي طريق الشرع المقدس وينال مراتب الكمال فعليه اما ان يكون عالماً بمقررات الدين أو ان يتبع احد علماء الدين ويستمع اليه ويأخذ عنه التعاليم الإلهية.

عن الإمام علي عليه السلام قال: «*اذا لم تكن عالماً ناطقاً فكن مستمعاً واعياً*»[٥].

حُجّتان إلهيتان

قال الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام في وصية له لهشام بن الحكم:«*يا هشام ان لله على الناس حجتين، حجة ظاهرة وحجة باطنة، فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء والائمة وأما الباطنة فالعقول*»[٦].

فمهمة الحجة الظاهرة هي ابلاغ الناس بالأوامر الإلهية ووضعهم امام مسؤولياتهم، اما العقول وهي الحجة الباطنة فواجبها دراسة الحجة الظاهرة والتحقيق فيها لتدعو الناس إلى المثول والطاعة وإرساء أساس السعادة بعد ان تتيقن بصحة تلك الحجة واصالتها.

وحاسة السمع لدى الانسان هي وسيلة ارتباط هاتين الحجتين الالهيتين مع بعضهما، فإذا اراد ان يقف على عمق التعاليم السماوية ويسلك طريق السعادة، فعليه ان يستمع بكل وجوده وبدقة تامة إلى كلام الحجج الظاهرة ونقله إلى الحجة الباطنة اي العقل بلا زيادة أو نقصان ليهتدي بهدى المرسلين والأنبياء والأئمّة.

وبما ان التحكم في الإستماع هو بيد الانسان نفسه، عندئذ يستطيع أن يستمع إلى حديث الحجة الظاهرة بالصورة التي يشاء، فيمكنه الاستماع مثلاً كما هو مطلوب بوعي وانفتاح ذهن وعرض ماسمعه على العقل، ويمكنه أيضاً ان يكون مستمعاً شارد

---

(٥) ميزان الحكمة٤: ٥٥٠.

(٦) تحف العقول: ٣٨٦.

الذهن ميت القلب لا ينتفع من اقوال هداة الحق، ومن الطبيعي ان لا يستطيع مثل هذا الاستماع ان يكون رابطاً سليماً بين الحجج الإلهية والعقل.

وقد يحز في القادة الإلهيين هذه اللامبالاة عند الاشخاص الميتة قلوبهم الجافة نفوسهم، فيوجهون إليهم خطاباً قاسياً يحمل في طياته غضبهم وعدم إرتياحهم لهذه الحالة ويحمّلون إياهم مسؤوليتها.

حضر عند الإمام الباقر عليه السلام ذات يوم جماعة تزعم انها من الشيعة، فوعظهم وحذّرهم وهم ساهون ولاهون فاغاضه ذلك فاطرق ملياً ثم رفع رأسه اليهم فقال: يا أشباحاً بلا أرواح وذباباً بلا مصباح كانكم خشب مسندة وأصنام مُرَبَّدة[٧].

حسن الاستماع

يرتبط العقل وهو الحجة الإلهية الباطنة مع الرسل والانبياء والائمّة وهم الحجج الظاهرة بحسن الإستماع والاصغاء الصحيح، اما الاستماع الخالي من الإنتباه فلا يستطيع إيصال كلام الحجج الإلهية الظاهرة إلى العقل وعقد رابطة متينة بينهما تهدي المستمع إلى طريق الصواب.

ان حسن الاستماع هو سجية أخلاقية طيبة تعبر عن ادب المستمع قبال المتكلم، ويلزم لنيل هذه الفضيلة الانسانية والميزة الاجتماعية مجاهدةً وسعياً متواصلاً. ومن يريد ان يتسم بحسن الاستماع فعليه ان يجعل هذه الصفة ملكة دائمة فيه، ويرسخها في ضميره كعادة ثابتة مستقرة.

عن الإمام علي عليه السلام قال: «*عوّد أُذنك حسن الإستماع*»[٨].

ولا تعود فائدَةِ حسن الإستماع على المستمع فقط، وتثريه من العلم، بل هي ذات نفع أيضاً للمتحدث العالم، لان المستمع الذكي الواعي يحرك بحسن استماعه

---

(٧) ن. م: ٢٩١.

(٨) الفهرست الموضوعي لغرر الحكم: ١٦٧.

فكـر الـرجـل العالم ويحفزه على النشاط، ويُعد فيه ارضية تتدفق عليها المعلومات والكنوز من الباطن الى الظاهر، فيتفوه بها ليعطي المستمع المزيد منها.

دعوة الرسول(ص) واستماع الناس

واجه الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله منذ اوائل نبوته وبدايات دعوته اناساً تختلف فيهم كيفية الاستماع، وفئات كانت لهم ردود فعل متباينة ازاء دعوته(ص).

فبعضهم وهم قلة نسبياً أحسن الاستماع، فكانوا يحضرون عند الرسول(ص) بفكـر حر خالٍ من اللجـاجة والعناد، ويصغون بدقة إلى أقواله، فيتحرون فيها ويتـدارسـونها ثم يعاودون الكرة بالحضور عند الرسول للاستماع أكثر فأكثر إلى كلامه(ص) ليعلنوا إيمانهم أخيراً. وكان معظم هذا البعض يتألف من جيل الشباب الذي هو أكثر استعداداً لقبول الحق من جيل الشيوخ.

وكانت هناك مجموعة أُخرى لم تتعود على حسن الاستماع ولم تكن تدقق في ما تسمع، فكانت تواجه رسول الإسلام(ص) احياناً وتسمع كلامه(ص) دون ان يؤثر بها.

امـا العـدد الاكبر من قريش ومن عباد الأصنام فكانوا لا يريدون تركيز اهتـمامهم على كلام الـرسول(ص) حينما كان يدعو الناس إلى الدين الإسلامي يحسنون الإستماع له لعنادهم معه وظنهم السيء بأقواله، فكانوا يستمعون في الظاهر إليه لكنهم لا يعون وينظرون له لكنهم لا يرون، وقد بيّن القرآن الكريم عداءهم وعنادهم بالصورة التالية:

﴿وَاِنْ تَدْعُوهُمْ اِلَى الْهُدى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرونَ اِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُون﴾[٩].

وعن الإمام علي عليه السلام قال: «*ليس كل ذي عين ببصير ولا كل ذي أُذن*

---

(٩) الاعراف: ١٩٨.

بسميع»[١٠].

وفضلاً عن فقدان المعاندين من عبدة الأصنام وقريش لحسن الإستماع وعدم تعمّقهم في أقوال الرسول الاكرم(ص)، فانهم كانوا يحاولون عزل الآخرين عن الرسول واقواله لكيلا تجذبهم وتبصرهم بدين الإسلام قال تعالى: ﴿وَقالَ الذينَ كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾[١١].

خاصية الجذب في القرآن الكريم

من أجل الوقوف امام إنتشار الإسلام ومنع التبليغ له وضع مشركو مكة عقبات كثيرة في طريق الرسول(ص)، بيد ان هذه العقبات لم تستطع ان تقطع الطريق تماماً وتعيق الرسول عن اداء فعالياته، ذلك ان عدداً كبيراً من الناس كان يؤمّ مكة من مناطق قريبة وبعيدة في شهري رجب وذي الحجة من كل عام لاداء مراسم العمرة والحج طبق التقاليد التي كانت سائدة قبل الاسلام، وكان النبي(ص) ينتهز فرصة الاشهر الحرم فيجلس في حجر إسماعيل ويواصل تبليغه للدين الحنيف بتلاوة آيات من القرآن الكريم والتحدث إلى الناس.

ولم يكن المشركون يتوقفون حتى في تلك الاشهر عن وضع العراقيل والاشواك في طريق الدعوة الاسلامية ويحذرون الواردين الجدد من الإستماع إلى كلامه(ص)، غير ان سماع آيات من القرآن الكريم كان يترك آثاراً عميقة في الناس، وكانت الآيات تتغلغل في أعماقهم وتجذبهم نحو الإسلام، فيعتنق بعضهم الدين الجديد ويحمل بعض معه إلى قومه نبأ دعوة الرسول(ص) كحدث مهم من احداث مكة. وفيما يأتي نذكر حالة من حالات العراقيل التي كان يضعها مشركو مكة في طريق الدعوة إلى الإسلام وإيمان رجلين قدما إلى مكة لاداء العمرة:

---

(١٠) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: الكلمة ١٠٤.

(١١) فصلت: ٢٦.

قدم اسعد بن زرارة وذكوان بن عبد القيس في موسم من مواسم العرب وهما من الخزرج، وكان بين الاوس والخزرج حرب قد بقوا فيها دهراً طويلاً وكانوا لا يضعون السلاح لا بالليل ولا بالنهار، وكانت آخر حرب بينهم يوم بعاث، وكانت للاوس على الخزرج، فخرج أسعد بن زرارة وذكوان إلى مكة في عمرة رجب يسألون الحلف على الاوس، وكان أسعد بن زرارة صديقاً لعتبة بن ربيعة فنزل عليه، فقال له: انه كان بيننا وبين الآوس حرب وقد جئناك نطلب الحلف عليهم، فقال له عتبة: بعدت دارنا من داركم، ولنا شغل لا نتفرغ لشيء، قال: وما شغلكم وانتم في حرمكم وامنكم؟ قال له عتبة: خرج فينا رجل يدّعي انه رسول الله، سفّه احلامنا وسب آلهتنا، وأفسد شبابنا، وفرّق جماعتنا، فقال له اسعد: من هو منكم؟ قال: ابن عبدالله بن عبدالمطلب من اوسطنا شرفاً، وأعظمنا بيتاً، وكان اسعد وذكوان وجميع الاوس والخزرج يسمعون من اليهود الذين كانوا بينهم: النضير وقريظة وقينقاع ان هذا أوان نبي يخرج بمكة يكون مهاجره بالمدينة لنقتلنكم به يا معشر العرب، فلما سمع ذلك اسعد وقع في قلبه ما كان سمع من اليهود، قال: فأين هو؟

قال: جالس في الحجر، وانهم لا يخرجون من شعبهم الّا في الموسم، فلا تسمع منه ولا تكلمه فانه ساحر يسحرك بكلامه، وكان هذا في وقت محاصرة بني هاشم في الشعب، فقال له أسعد: فكيف اصنع وانا معتمر لا بد لي ان اطوف بالبيت؟ قال: ضع في اذنيك القطن، فدخل أسعد المسجد وقد حشا أُذنيه بالقطن، فطاف بالبيت ورسول الله جالس في الحجر مع قوم من بني هاشم، فنظر إليه نظرة فجازه، فلما كان في الشوط الثاني قال في نفسه: ما اجد اجهل مني؟ أيكون مثل هذا الحديث بمكة فلا اتعرّفه حتى ارجع إلى قومي فأخبرهم، ثم أخذ القطن من أُذنيه ورمى به، وقال لرسول الله: انعم صباحاً، فرفع رسول الله(ص) رأسه اليه وقال: قد ابدلنا الله به ما هو احسن من هذا، تحية اهل الجنة: السلام عليكم، فقال له اسعد: ان عهدك بهذا لقريب، إلى ما تدعو يا محمد؟

فتلا عليه رسول الله(ص) بعض الآيات الكريمة التي تحتوي بعض الوصايا

والتعاليم القرآنية وعدم الشرك بالله وتوحيده.

فلما سمع منه اسعد قال: اشهد ان لا اله الاّ الله وانك رسول الله...[١٢].

وقد كانت قريش ومعها المشركون كافة يبثون الموانع والسدود في طريق الرسول لمنعه(ص) عن التبليغ لدين الحق، ويتهّموه بمختلف التهم المشينة ليتفرق الناس عنه، فتارةً يصفونه(ص) بالساحر واخرى يرموه بالجنون، واحياناً يوحون إلى انّ دعوته (ص) هي بسبب الفقر وقلة ما في اليد.

قيل ان اهل مكة قالوا لرسول الله صلى الله عليه وآله يا محمد تركت ملة قومك وقد علمنا انّه لا يحملك على ذلك الاّ الفقر فانّا نجمع لك من أموالنا حتى تكون من اغنانا[١٣].

وبالرغم من ان تقولات المشركين لم تستطع ان تمنع النبي(ص) عن مسؤوليته الثقيلة في الدعوة لدين الله، الا انها كانت تحزنه، فانزل الله تعالى آية اسكنت أحزانه وآلامه.

قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ اِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذي يَقُولُونَ فَإنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالمينَ بِآياتِ الله يَجْحَدُونَ﴾[١٤].

روي ان رسول الله صلّى الله عليه وآله لقي ابا جهل فصافحه ابو جهل فقيل له في ذلك، فقال والله اني لأعلم اِنَّه صادق ولكن متى كنا تبعاً لعبد مناف[١٥].

ولهذا دلالة على ان المشركين وبالاضافة إلى تكذيبهم لرسول الله(ص) فانهم كانوا ينكرون آيات الله ويجحدون بها. فأبو جهل يعترف من جهة بصحة وصدق دعوة الرسول ويقسم انه يعلم بصدقه، غير انه يتجرأ من جهة أُخرى مرتكزاً على عصبية قومية على إنكار آيات الله والتغافل عن رسوله وهذا مصداق للآية الشريفة التي

---

(١٢) بحار الانوار١٩: ٨.

(١٣) بحار الانوار١٨: ١٥٧.

(١٤) الانعام: ٣٣.

(١٥) تفسير مجمع البيان٤: ٢٩٤.

ذكرناها.

فعلى خطباء الإسلام بذل السعي والجهد في التبليغ للدين الحق ونشر معارف القرآن اتّباعاً للرسول الاكرم صلّى الله عليه وآله، وقول الحق ما قدروا على ذلك وتقديم النصائح المفيدة واللازمة.

عن الإمام علي عليه السلام قال: «*اخسر الناس من قدر على ان يقول الحق ولم يقل*»[١٦].

ففي كل مجتمع ثمة افراد معاندون ينظرون إلى دين الحق بعين البغض والعداء ولا يخضعون للحق. وعليه ينبغي ان لا يقف مثل هؤلاء الافراد حائلاً أمام الخطباء الاسلاميين في بيان معارف الدين والتبليغ له، لان هناك وفي الجهة المقابلة يوجد عدد كبير من افراد المجتمع يستسلمون للحق اذا قاله الخطيب بنحوٍ مُقنع. اما الفئة المعاندة فان نصح الواعظ لها هو اتمام للحجة على الاقل اذا امتنعت ورفضت قبول الحق والاذعان له، ويأتي يوم تعض فيه على أصابع الندم على ما بدر منها من لجاجة وغرور، ولكن الفرصة قد فاتت ولات حين مندم.

ولم يتوقف رسول الله صلّى الله عليه وآله عن سعيه وتحركه في أعسر الظروف التي مرّت به، وواصل مسيرته في الدعوة إلى دين الله في اوضاع اقل ما يقال عنها انها شديدة مهلكة لا طاقة لاحد على تحملها، وكان يتقدم كل يوم خطوة حتى حلّت فرصة النصر النهائي.

ففتح(ص) مكة وكانت يومذاك مركز الجزيرة العربية، وحطم اَصنامها، ودخل الناس في الإسلام افواجاً، وكان نصر من الله كبيرٌ حَمَد ربه عليه وسبّح ذاته القدسية.

﴿إذا جَاءَ نَصْرُ الله وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ في دِينِ الله اَفْوَاجَاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ اِنَّهُ كانَ تَوَّابَا﴾[١٧].

---

(١٦) الفهرست الموضوعي لغرر الحكم: ٣٣٢.

(١٧) سورة النصر.

وخلاصة القول: فان مسؤولية الخطباء والمبلغين الذين يهمهم نشر المعارف الإسلامية هي استثمار الفرص، والسعي من اجل اعلاء كلمة الحق في مختلف الظروف اليسيرة والعسيرة مُتأسين في ذلك بالرسول(ص)، ودعوة الناس للتمسك بدين الله لما فيه من السعادة المادية والمعنوية وخير الدارين.

وعلى المستمعين المؤمنين الأَجلّاء أن يجدّوا في استيعاب المواضيع العلمية والدينية والمواد التي يطرحها الخطباء الإسلاميون، ويحسنوا الاستماع اليهم، ويحصروا الانتباه إلى أقوالهم، ويحتفظوا بالنصائح والمواعظ في الذاكرة لترتفع مستوياتهم الفكرية من الخزين الديني والعلمي.

عن النبي صلّى الله عليه وآله قال: «*أعلم الناس من جمع علم الناس إلى علمه*»[١٨].

ونختتم بحث الاستماع وحسن الاستماع بنقل حديثين عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«*كان علي عليه السلام أن يسمع احرص منه على ان يتكلم*»[١٩].

وعنه عليه السلام قال: «*من احسن الإستماع تعجّل الإنتفاع*»[٢٠].

---

(١٨) مشكاة الانوار: ١٣٧.

(١٩) و(٢٠) الفهرست الموضوعي لغرر الحكم: ١٦٧ و١٦٨.

الفصل الحادي عشر

«يا أيُّها الناسُ اتَّقوا الله في نِعم الله عليكُم فلا تُنفّروها عنكُم بمعاصيه».

الإمام الرضا(ع)

الخطابة ومراعاة الإنسجام

ان جسم الإنسان وروحه متحدان مع بعضهما بنحو طبيعي، وتبعاً لهذا الإتحاد، يجمعهما تناسق وانسجام على الصعيد العملي، فالحالات الروحية تؤثر في الجسم والحالات الجسمية تؤثر في الروح هي الاخرى، فمثلاً الخوف حالة نفسية يتغير بظهورها لون الوجه ويفقد وضعه الطبيعي ويفقع لونه وتبدو عليه علامات الرعب، والخوف اَيضاً يترك أثره على الكلام ويؤدي إلى تعثره وتقطعه، بل قد لا يستطيع الانسان من الكلام لشدة الخوف. كذلك فان اليدين والرجلين تتأثران بهذه الحالة النفسية فترتعش اليدان ويتوقف عمل الركبتين وتتسمر الرجلان في الارض.

القلق الشد يد والاضطرابات المستمرة قد تُخل بعمل الجهاز الهضمي وتؤدي إلى مرض القرحة في المعدة، وتفقد الإنسان سلامته.

الاعمال الجسمية هي الأُخرى تترك اثارها على النفس وتغيرها، فالتمرن على الخط والرسم مثلاً بواسطة اليد يوجد في النفس مَلَكَة الخط والرسم، كذلك فان ممارسة الخطابة يؤكّد في النفس بالتدريج ملكة النطق ويبلغ المتمرس حداً ان يلقي خطبته دون

عناء وتكلّف.

ان الآصرة الرابطة بين الروح والجسم هي من القوة بحيث يتخذ الجسم لا شعورياً حالة من البهجة والسرور حينما تسر النفس، فتنبسط اسارير الوجه وتتبسم الشفاه ويتحدث اللسان بحيوية ومحبة، وينتشي الجسم باكمله من حالة السرور هذه. وحينما تغتاض النفس تتغير حالات الجسم تلقائياً، فينكمش الوجه، وتقرأ في نظرات العيون الغضب وعدم الارتياح ويتغير لحن الكلام وقد يتحول إلى صراخ احياناً.

فإذا كان مصدر سرور الانسان وانعكاسه في جسمه هو فعل مستحسن اداه غيره، واذا كان سبب الغضب وعدم الارتياح في نفس الانسان وانعكاسه على الاعضاء والجوارح هو عمل سيء ارتكبه الاخر، فلا بد من القول ان الحركات التي تصدر عن ذلك الإنسان المسرور والتي تنم عن حب وعطف وحرارة اقواله تؤدي إلى تحفيز من ادى العمل الحسن وتشجيعه، بينما يعبر الخطاب الحاد الغاضب عن توبيخ وتقريع لمن ارتكب العمل السيء.

مثال:

تصور طفلاً في الثامنة من عمره في المرحلة الدراسية الابتدائية الثانية وقد كتب واجبه البيتي بخط جميل وكلّه شوق ليُري اباه خطه.. ينشر الظلام استاره ويحل الليل ويعود الأب إلى المنزل فيأخذ الابن اليه دفتر الواجبات المدرسية ويفتح صفحاته امام الأب، فتسر نفسه لرؤية خط ولده الجميل فيحتضن طفله والإبتسامة لا تفارق محياه ويقبل وجهه ويمسح على رأسه ويثني عليه بكلم طيب ولحن دافىء ويقول له أحسنت يا بني ثم يشجعه على ذلك.

ان جميع حركات التودد والدفء الصادرة عن الأب وكلامه الحنون يتناسق مع هدفه الاصلي وهو الثناء على ولده واستحسان جهده، وتنطبع الصورة عند الطفل عن كل تلك الحركات بانها جرت ثناءً عليه وتحفيزاً له، فينتشي فرحاً جذلاً ويغمره السرور لما لقي من حب وعطف ابوي.

بعـد عدة ايام يعود الطفل نفسه من المدرسة، وعوضاً من ان يجلس ليؤدي واجباته المدرسية يركض إلى اكبر غرف المنزل، محل استقبال الضيوف، وينهمك في لعب الكرة، فيمتلأ جو الغرفة بالغبار، وفجأة واثناء اللعب يضرب الكرة بشدة فترتطم بزجاجة كبيرة تحطمها في الحال.

تسمع الأم صوت تهشم الزجاجة ووقوعها على الارض، فتهرع إلى ولدها والقلق يمزق فؤادها وتصرخ في ابنها: اهذا هو مكان لعب الكرة، سأشكوك إلى أبيك عند عودته مساءً، فيضطرب الصغير ويستغرق في تفكير عميق ويتساءل من نفسه: ما هي العقوبة التي سيوجهها لي أبي؟

يحل المساء ويأتي رب الأسرة إلى المنزل، فتشكو اليه زوجته من تصرفات ولدها وتنقل اليه حادث تحطم الزجاجة. فتتألم روح الاب من سماع هذا النبأ بشدة وينتفض غاضباً منادياً على ولده بصوت عال، فيمتثل امامه مطأطىء الرأس خجلاً، فيصرخ في وجهه وقد ملأ الغضب كيانه ويعنّفه ويوبخه ويصفعه في وجهه ويوجه اللوم اليه بلحن قاسٍ ووجه عبوس ليعبّر بهذا الاسلوب عن تألمه.

الهدف الرئيسي للاب من استدعائه ولده واسماعه كلاماً قاسياً هو توبيخه وتوجيه اللوم له على دخوله غرفة استقبال الضيوف ولعبه الكرة فيها الامر الذي ادى إلى تحطم الزجاج.

وتنطبق حالة الاب من اكفهرار الوجه وتجهم الملامح وتأنيب الابن وصفعه واي سلوك أو قول يصدر عنه مع هدفه الاصلي.

ان الصورة التي رسمت في مخيلة الطفل من مجموع حركات الاب وكلماته ادت إلى اثارة قلقه وتألمه وجعلته يندم على عمله الخاطىء الذي سلب منه عطف الاب.

فإذا لم يراع الاب في التشجيع والتقريع سياق الانسجام والموازنة الطبيعية، وادى في حالـة الخط الحسن كلمات الثناء والإستحسان بصوت حاد ووجه مكفهر وحركات غير مستساغة، وتفوه في حالة تحطم زجاج الغرفة بكلمات التوبيخ الغاضبة بلحن دافىء حنون ووجه مبتسم وحركات تنم عن شفقة وعطف فان الطفل سيعاني

من التضاد الباطني، فلا يدري في حالة الخط الحسن ايسَرّ من كلام أبيه المحفّز أم يخشى صراخه المخيف ووجهه العبوس، ولا يعلم في حالة تحطم الزجاجة أيخاف اباه لكلماته الغاضبة ام يسر للحنه العطوف وشفاهه المبتسمة ووجهه المنبسط.

في كلتا الحالتين لا يترك هذا التشجيع والتقريع المتضاد اللامتزن أثراً تربوياً في الطفل ولا يعود على الاب باي نفع أو فائدة، فلا الطفل يتحفز بهذا الحث على كتابة واجباته المنزلية ويتحسن خطه، ولا هو بالذي يندم بهذا التوبيخ على تحطيم الزجاجة ويترك اللعب في الغرفة.

الأُسوة ومراعاة الإنسجام

كان الرسول الاكرم صلّى الله عليه وآله والأئمّة المعصومين عليهم السلام يلتزمون بضرورة الكلام الصادر عنهم وأُطره المنسجمة معه من اجل ان يقتدي بهم المسلمون ويعمقوا فيهم التعاليم الإلهية على افضل وجه، فكانوا يوائمون بين موضوع الكلام وبين مستوى الصوت والشكل وحركات اليد والجسم، وهذا ما تؤكده بعض الروايات الواردة.

كان رسول الله صلّى الله عليه وآله اذا خطب قال في خطبته: «*اما بعد، فاذا ذكر الساعة اشتد صوته واحمرّت وجنتاه*»[1].

والمراد بالساعة التي تكرر ذكرها في القرآن الكريم قيام القيامة، فكان يشتد صوت الرسول(ص) حينما يأتي على ذكر القيامة وتحمر وجنتاه، اذن فهو(ص) يحذر المستمع بهذا التغير في الصوت والشكل ويرسم في ذهنه وعياً عن اشد ما سيلاقيه، وهذا بحد ذاته توازن وتناسق بين موضوع البحث وبين لحن الصوت وشكل السحنة وحركات الجسم عند الخطيب.

عن النبي صلّى الله عليه وآله: «*انه كان اذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته*

---

(١) بحار الانوار٢: ٣٠١.

واشتد غضبه كانه منذرُ جيش»[٢] .

بينما كان الرسول(ص) يتمتع باخلاق حميدة وسجايا طيبة في التعامل مع الناس كما تشير إلى ذلك الكثير من الروايات، ومنها:

كان اكثر الناس تبسماً ما لم ينزل عليه قرآن أو يعظ أو يخطب[٣].

اذن: فالرسول الاكرم(ص) ومن اجل ان تترك دعوته الاثر المباشر في الناس ويعبّد لهم ارضية السعادة على وجه السرعة، كان يوازن لدى بيان العقائد الاسلامية والمواعظ الدينية ويناسق بين مادة الكلام وبين قسمات الوجه وحالة العين ولحن الصوت وحركة اليد والجسم.

الإمام علي عليه السلام أيضاً كان يوجه كامل رعايته إلى بعد التوازن والإنسجام في خطبه، لا سيما حينما كان يرى الامة لا تهتم لفريضه الجهاد ولا تلتحق بجبهة القتال فيتألم اشد الالم ويطلق غضبه الباطني من لسانه في قالب من الالفاظ الحادة العنيفة، ومنها خطبته عليه السلام حول عصيان أهل الكوفة من الحرب مع الخوارج، حيث قال(ع) في جانب منها:

«*الذليل والله من نصرتموه والمغرور من غررتموه واصبحت ولا اطمع في نصركم ولا أُصدق قولكم فرّق الله بيني وبينكم وأبدلكم بي غيري وأبدلني بكم من هو خير لي منكم*[٤] .

في هذه الخطبة، تحدث الإمام عليه السلام مع أهل الكوفة بكثير من التفصيل والوضوح، واعرب عن غضبه وعدم رضاه بتعابير مختلفة، ثم نزل عن المنبر واتجه إلى منزله وهو يقول (انا لله وإنا إليه راجعون).

وقد تركت أقوال الإمام علي(ع) في اهل الكوفة أثرها. فتنبهوا لحالهم واحسوا بخطأهم وتبعه(ع) أحد أصحابه إلى منزله معلناً له ندم الناس ودعاه للعودة إلى

---

(٢) ميزان الحكمة٣: ٤٩.

(٣) سفينة البحار١: (خلق): ٤١٦.

(٤) بحار الانوار٧٤: ٣٣٨.

المسجد وتعبئة القوم لاداء مسؤولياتهم، وفي اليوم التالي القى الإمام عليه السلام خطبة أُخرى في الناس كان لها أثرها الإيجابي.

وقد يلقي الخطيب المؤمن كلمته من صميم قلبه لا تنسجم انسجاماً تاماً مع اداءه وحركاته، فيقع الخطيب نفسه تحت التأثير وتدمع عيناه اثناء الالقاء.

ان بكاء الخطيب في هذه الحالات يزيد من تأثير كلامه على الآخرين ويهيج مشاعر المستمعين أكثر من الحد الطبيعي.

والإمام علي عليه السلام كان يبكي اثناء بعض الخطب كالدعوة إلى الجهاد وتعبئة الناس إلى الحرب أحياناً وفي مجال الموعظة والنصيحة أحياناً أُخرى، نكتفي هنا بذكر صورتين عن تلك الحالات التي كان يمر بها أمير المؤمنين عليه السلام:

خطب الإمام علي عليه السلام في الناس لتعبئتهم للحرب مع معاوية، فتحدث عن التوحيد ثم عن الدنيا الزائلة، بعدها ذكر اسماء بعض الشهداء الكبار في معركة صفين، وقال: .....باعوا قليلاً من الدنيا لا يبقى، بكثير من الآخرة لا يفنى. ما ضرّ اخواننا الذين سفكت دماؤهم ـ وهم بصفين ـ ألا يّكونوا اليوم احياءً؟ .... ثم قال الراوي (نوف البكالي): ثم ضرب بيده على لحيته الشريفة الكريمة، فأطال البكاء، ثم قال عليه السلام : أَوِّه على اخواني الذين تلوا القرآن فاحكموه وتدبروا الفرض فاقاموه واحيوا السنة واماتوا البدعة دُعوا للجهاد فأجابوه ووثقوا بالقائد فاتبعوه، ثم نادى باعلى صوته: الجهاد الجهاد عباد الله...[٥].

وفي حديث ان أمير المؤمنين عليه السلام دخل سوق البصرة فنظر إلى الناس يبيعون ويشترون فبكى بكاءً شديداً ثم قال: «*يا عبيد الدنيا وعمّال أهلها اذا كنتم بالنهار تحلفون وبالليل في فِراشكم تنامون وفي خلال ذلك عن الآخرة تغفلون فمتى تجهّزون الزاد وتفكرون في المعاد*»[٦] .

---

(٥) نهج البلاغة: الخطبة ١٨٢.

(٦) سفينة البحار١: ٦٧٤.

نستنتـج من مجموع البحث ان باطن الإنسان وظاهره متطابقان منسجمان بنحو طبيعي عند التكلم، فالذي يستبطن غضباً أو مسرة أو خوفاً من شيء أو حادث، فان ظاهره سيعكس باطنه بشكل لا شعوري لو أراد التحدث حول تلك الاشياء أو الحوادث، والخطيب الكفوء هو الذي يراعي هذا الوضع الطبيعي بحالة شعورية ويناسق عن عمد وارادة وضعه الظاهري مع موضوع بحثه.

الخطباء والموائمة

يلزم بالخطيب الإسلامي الذي يعمل على نشر تعاليم القرآن الكريم ويسعى إلى حث الناس على التكاليف الإلهية وابلاغهم بالاوامر والنواهي الصادرة عنه تعالى، ان يعير كامل اهتمامه بالمبدأ الطبيعي ـ الفطري ـ للتناسق والانسجام الذي يعد من الفنـون المهمة والمهارات الخطابية على منبر الخطابة، ويتحدث بشكل يتطابق فيه موضـوع بحثـه مع ادائه الصوتي وحركات جسمه ويديه ولحن كلامه وشكله الظاهري من أجل ان يترك كلامه اعمق الاثر في المستمعين ويهدي اكبر عدد منهم إلى الصراط المستقيم.

فحينـما يتحدث لبث الامل في قلوب الصالحين وتحفيز الخيّرين عن الجزاء الإلهي ورحمته اللانهائية، او يبشر المذنبين التائبين النادمين بمغفرة الله وتوبته على عباده ويمنيهم بالعفو الإلهي، فعليه ان يتحدث بصوت شفيق وكلمات رقيقة ولحن مرن وظاهر يبعث على الاصل، وبخلاصة، ان يتكلم بما يملأ المجلس باجواء الرحمة ليفيض المستمع دموع الشوق اثناء استماعه للخطيب، ويختتم المجلس بالرجاء بفضل الله اللامحدود.

وحينما ينوي الخطيب تحريك مشاعر العاصي المتجرىء على الذنوب دون وجل، ويمزق ستار غفلته ويوعيه بالقيامة وعقاب الذنوب، فيجدر به ان يعلن الخطر بلحن يبعث على القلق، ويتلو عدة ايات وروايات عن اوضـاع القيامة واحوالها ويفسر الآيات ويشرح الروايات بصوت مرتفع يفهم منه التحذير، وبخلاصة: ينبغي بالخطيب

ان يملأ اجواء المجلس من خلال حديثه اشمئزازاً من الذنب وخوفاً من العقاب الإلهي، ويلزم به مباشرة القيام بعملية موازنة بين الخوف والرجاء عند المستمعين كي لا يطغى الاول على الثاني، فيذكّر بوجوب التوبة والعفو الإلهي عن التائبين، كي لا يخرج المستمع من المجلس وهو يحمل في صدره همّ اليأس والقنوط.

آثار عدم الموائمة

اما اذا لم يراع الخطيب عملية الإنسجام والتلائم، فيبشر بالرحمة والمغفرة الإلهية بصوت حاد وظاهر غير مستساغ، او يتحدث عن الغضب الإلهي وعقاب العاصين بلحن مرن وظاهر مرح، عندئذ سيعاني المستمع من تضاد باطني، فلا يأمل الصالحون ويرجو الاتقياء من البشرى والامل كما هو مطلوب، ولا يشعر المذنبون والعصاة باي خوف أو خطر من التحذير والإنذار بالنحو المراد.

التعلم السمعي والبصري

يفتح المرء كتاباً أمامه ويطالع فيه، أو يدير قرص المذياع ليستمع إلى خطبة تذاع منه، فيطلق على الطريقة الأولى بالتعلّم البصري وعلى الثانية بالتعلم السمعي، غير ان الذي يحضر مجالس الخطابة يسعى ما امكنه ليتخذ لنفسه مكاناً يرى فيه الخطيب ويستمع اليه في نفس الوقت، أي يريد ان يستثمر في الحقيقة بُعدي السمع والبصر، وتنتابه حالة من عدم الارتياح ويبدو وكأنه يشعر بالنقص اذ استقر في مكان يسمع فيه صوت الخطيب دون ان يراه.

وبالنظر الى ان جلسات الخطابة للحاضرين هي ذات بعدين سمعي وبصري كما هي عليه الحال في مشاهد التلفزيون للمشاهد ، فيفترض بالخطيب ان يتنبه بدقة لهذا الامر ويراعي التناسق في الموازنة بين البعدين ليتمكن من النفوذ في المستمعين ويترك عليهم بصمات واضحة في خطابه.

شعبية الخطيب

قد يتمتع الخطيب لاسباب خاصة بشعبية كبيرة في صفوف الناس ويحتل مكانة خاصة في قلوبهم تجعلهم ينصتون اليه بكل جوارحهم، فلو كان الإنسجام ـ في هذه الحالة ـ ضعيفاً بين مادة الخطبة وبين لحن الصوت وحركة العين واشارة اليد والجسم وغيرها، فان مكانته تلك تعوّض عن عدم التماسك ذاك.

والرسول الاكرم(ص) كان يلقي خطبه قبل الهجرة المباركة في محيط عدائي يملؤه اعداء الإسلام ومعارضيه، وكان لزاماً عليه ان يهتم لجانب التماسك والانسجام، بيد ان الاجواء تغيرت بعد الهجرة، وكان معظم مستمعيه(ص) من محبيه، فلم تكن هناك ضرورة لمراعاة التناسق في كل الاحوال، لهذا كان(ص) يلقي احاديثه في بعض الاحيان في جماعة المسلمين بشكل عادي ومع ذلك فقد كان يترك اثره فيهم.

وقد مرّت هذه الظروف أيضاً على الإمام علي عليه السلام وبقية الائمة الطاهرين وقال كل منهم كلمته حسب الظروف والاجواء المحيطة، وها نحن نشير هنا إلى حالة واحدة من تلك الحالات التي وقعت في عهد الإمام الرضا عليه السلام:

لما جعل المأمون الإمام علي بن موسى الرضا(ع) ولي عهده احتبس المطر، فجعل بعض حاشية المأمون والمتعصبين على الرضا(ع) يقولون انظروا لما جاءنا علي بن موسى الرضا صار ولي عهدنا فحبس الله تعالى عنا المطر، فاتصل ذلك بالمأمون، فاشتد عليه، فقال للرضا(ع): قد احتبس المطر فلو دعوت الله عزّ وجلّ ان يمطر الناس.

فقال الإمام الرضا(ع): نعم، قال: فمتى تفعل ذلك، وكان ذلك اليوم الجمعة، فقال يوم الاثنين، فان رسول الله صلّى الله عليه وآله أتاني البارحة في منامي ومعه أمير المؤمنين وقال: يا بني انتظر يوم الاثنين فابرز إلى الصحراء واستسق فان الله عزّ وجلّ سيسقيهم.

فلما كان يوم الاثنين غدا إلى الصحراء وخرج الخلايق ينظرون فصعد المنبر فحمد الله واثنى عليه، ثم قال: اللهم يا رب انت عظّمت حقنا أهل البيت فتوسلوا

بنا كما امرت وامّلوا فظلك ورحمتك وتوقعوا إحسانك ونعمتك فاسقهم سقياً عاماً نافعاً غير رائب ولا ضامر وليكن ابتداء مطرهم بعد انصرافهم من مشهدهم هذا إلى منازلهم ومقارهم.

ولم يكن طلب المأمون من الإمام ان يغدو إلى الصحراء مع الناس للدعاء والاستسقاء معاً، بل طلب من الإمام ان يدعو بمفرده، وربما كان الهدف من وراء ذلك ان يدعو الإمام ثم لا يستجاب له الامر الذي يهبط شخصيته في نظر عامة الناس، الا ان الرسول الكريم(ص) كان قد أبلغ حفيده الرضا(ع) في عالم الرؤيا بمشيئة الله، واستجيب دعاء الإمام، يقول الراوي:

فوالذي بعث محمداً بالحق نبياً لقد نسجت الرياح في الهواء الغيوم وارعدت وابرقت وتحرك الناس كانهم يريدون الهرب عن المطر، فقال الرضا(ع): على رسلكم ايها الناس فليس هذا الغيم لكم انما هو لاهل بلد كذا، فمضت السحابة وعبرت ثم جاءت سحابة أُخرى تشتمل على رعد وبرق فتحركوا، فقال: على رسلكم فما هذه لكم هي لاهل بلد كذا، فما زال حتى جاءت عشر سحابات وعبرت يقول لهم علي بن موسى الرضا(ع) في كل واحدة منها على رسلكم ليست هذه لكم انما هي لاهل بلد كذا، ثم اقبلت سحابة حادية عشر، فقال، ايها الناس هذه سحابة بعثها الله عزّ وجلّ لكم فاشكروا الله تعالى على تفضله عليكم فقوموا إلى منازلكم ومقاركم فإنها مستأمنة لكم ولرؤوسكم ممسكة عنكم إلى ان تدخلوا منازلكم، ثم يأتيكم من الخير ما يليق بكرم الله عزّ وجلّ، ونزل عن المنبر وانصرف، فما زالت السحابة ممسكة إلى ان قربوا منازلهم ثم جاءت بوابل المطر فملأت الاودية والحياض والغدران والفلوات، فجعل الناس يقولون: هنيئاً لولد رسول الله كرامات الله عزّ وجلّ، حتى برز اليهم الرضا(ع) وحضرت الجماعة الكثيرة منهم، فقال: اتقوا الله في نعم الله عليكم فلا تنفروها عنكم بمعاصيه بل استديموها بطاعته وشكره على نعمه وايادية[٧].

(٧) عيون اخبار الرضا: الباب ٤٠.

ان كلمات الإمام في ذلك الظرف الذي جعل له مكانة خاصة في القلوب كانت تنفذ إلى اعماق النفوس دون الحاجة إلى الحدة في الكلام، والتنسيق بين موضوع بحثه وبين مستوى الصوت وحركة اليد وحالة العين، ذلك ان المودة الشديدة من قبل الناس تغني عن الموائمة وتفعل فعلها في التأثير عليهم واستيعاب ما يقوله الإمام عليه السلام عن رغبة وشوق.

التناسق في بيان الحديث

تحتوي بعض الاحاديث على واقعة أو حادثة طريفة ودقيقة، فإذا استطاع المتكلم ان يتلو نصها وهو على منبر الخطابة للناطقين بالعربية أو ترجمته لغير العرب، وراعى في ذلك كل جوانب التناسق من كيفية الصوت والشكل الظاهري وحالة العين وحركة اليد والجسم، وجسّد صورة الحديث للمستمعين، فيمكن وصفه حينئذ بانه يمتلك قابلية الفن الخطابي، واذا نقل الحديث أو ترجمته إلى المستمع وابلغه بالحادث دون الاخذ بعين الاعتبار عملية الانسجام بين الاداء والنقل فهو مجرد ناقل ليس الاّ، وليس خطيباً، وليس لعمله أية قيمة فنية.

وكمثال على هذا القول، نكتفي بذكر حادثة وقعت في عهد الإمام علي عليه السلام، وخلالها نشير إلى عدة حالات تتطلب التنسيق بين الموضوع وبين الصوت وحركات اليد.

دخل أمير المؤمنين عليه السلام ذات يوم المسجد فوجد شاباً حدثاً يبكي وحوله قوم، فسأل أمير المؤمنين(ع) عنه فقال: ان شريحاً قضى عليّ قضية لم ينصفني فيها، فقال: وما شأنك؟

قال: ان هؤلاء النفر ـ واومأ إلى نفر حضور ـ اخرجوا أبي معهم في سفر فرجعوا ولم يرجع أبي، فسألتهم عنه فقالوا: مات، فسألتهم عن ماله الذي استصحبه فقالوا: ما نعرف له مالاً، فاستحلفهم شريح وتقدم اليّ بترك التعرض لهم، فقال امير المؤمنين(ع) لقنبر: اجمع القوم وادع لي شرطة الخميس، ثم جلس ودعا النفر والحدث معهم، ثم سأله

عمّا قال، فاعاد الدعوى وجعل يبكي ويقول: انا والله اتهمهم على أبي يا امير المؤمنين، فانهم احتالوا عليه حتى اخرجوه معهم، وطمعوا في ماله، فسأل أمير المؤمنين(ع) القوم، فقالوا كما قالوا لشريح: مات الرجل ولا نعرف له مالاً، فنظر في وجوههم ثم قال: ماذا تظنون؟ اتظنون أني لا اعلم ما صنعتم بأبي هذا الفتى، اني اذن لقليل العلم؟

[على الخطيب هنـــا ان يردد قول الإمام هذا بصوت ثابت تملؤه الثقة].

ثم امر بهم ان يُفَرّقوا، ففرقوا في المسجد، وأُقيم كل رجل منهم إلى جانب اسطوانة من اساطين المسجد.

[هنا يوضح الخطيب للحاضرين بإدارة كلتا يديه وهما مدودتان ليشكل بهما امامه نصف دائرة وهمية، مساحة المسجد الواسعة، ثم يشير باصبعه وهو يقول: واقيم كل رجل منهم إلى جانب اسطوانة من اساطين المسجد].

ثم دعا عبيد الله بن أبي رافع كاتبه يومئذ فقال له: اجلس، ثم دعا احداً منهم فقال له: أخبرني ولا ترفع صوتك.

[ينبغي بالخطيب هنا ان يخفض صوته، ويستمر نقل الرواية بصوت خفيض كما تتطلب عملية الاستجواب التي اجراها الإمام علي عليه السلام مع المتهمين].

س: في اي يوم خرجتم من منازلكم وابوالغلام هذا معكم؟

ج: في يوم كذا وكذا.

فقال لعبيد الله: اكتب.

س: في أي شهر كان؟

ج: في شهر كذا.

قال: اكتب.

س: في أي سنة؟

ج: في سنة كذا.

س: بأي مرض مات؟

ج: بمرض كذا.

س: في أي منزل مات؟

ج: في موضع كذا.

س: من غسله وكفّنه؟

ج: فلان.

س: بم كفنتموه؟

ج: بكذا.

س: من صلّى عليه؟

ج: فلان.

س: من أدخله القبر؟

ج: فلان.

وعبيد الله بن أبي رافع يكتب ذلك كله.

فلما انتهى اقراره إلى دفنه كبّر أمير المؤمنين عليه السلام تكبيرة سمعها أهل المسجد.

[يفترض بالخطيب هنا ان يُكبّر بصوت عال مقلداً تكبيرة أمير المؤمنين عليه السلام، ويستجلب انظار كل الحاضرين كما لو كانوا يسمعون التكبير من الإمام علي].

ثم امر الرجل فرد إلى مكانه، ودعا بآخر من القوم فأجلسه بالقرب منه، ثم سأله عما سأل الاول عنه، فأجاب بما خالف الاول في الكلام كله، وعبيد الله بن أبي رافع يكتب ذلك، فلما فرغ من سؤاله كبّر تكبيرة سمعها أهل المسجد.

[مثلما هو الحال في الحديث عن المتهم الاول، على الخطيب ان يفعل حينما يتكلم عن المتهم الثاني، الاستجواب بصوت واطىء، والتكبير بصوت مرتفع].

ثم أمر بالرجلين جميعاً أن يخرجا من المسجد نحو السجن فيوقف بهما على بابه، ثم دعا بالثالث فسأله عمّا سأل الرجلين، فحكى خلاف ما قالا، واثبت ذلك عنه، ثم كبّر وامر بإخراجه نحو صاحبيه، ودعا برابع القوم فاضطرب قوله وتلجلج فوعظه

وخوّفه، فاعترف انه واصحابه قتلوا الرجل واخذوا ماله، وانهم دفنوه في موضع كذا وكذا بالقرب من الكوفة، فكبّر أمير المؤمنين عليه السلام وأمر به إلى السجن، واستدعى بواحد من القوم وقال له: زعمت ان الرجل مات حتف انفه وقد قتلته اصدقني عن حالك والاّ نكلت بك، فقد وضح الحق في قصتكم، فاعترف من قتل الرجل بما اعترف به صاحبه، ثم دعى الباقين فاعترفوا عنده بالقتل وسقطوا في أيديهم، واتفقت كلمتهم على قتل الرجل وأخذ ماله، فأمر من مضى معهم إلى موضع المال الذي دفنوه فاستخرجوه منه وسلموه إلى الغلام ابن الرجل المقتول.

ثم قال له: ما الذي تريد؟ قد عرفت ما صنع القوم بأبيك، قال: أُريد ان يكون القضاء بيني وبينهم بين يدي الله عزّ وجلّ، وقد عفوت عن دمائهم في الدنيا[٨].

نستنتج من مجموع البحث: ان على الخطيب ان يوائم بين موضوع البحث وبين الشكل الظاهري واللحن في الكلام وحركات اليد ليترك في المستمعين اكبر الاثر، وهذا بحد ذاته شرط أساسي في فن الخطابة والافضل أيضاً ان يأخذ هذه المطابقة بعين الاعتبار حتى في سرد قصة من قصص التاريخ أثناء خطبته، والا فانها ـ أي الخطبة ـ ستتخذ شكل التقرير والنقل المجرد.

---

(٨) بحار الانوار٤٠: ٢٦١.

الفصل الثاني عشر

«الثقة بالله تعالى ثمن لكل غالٍ وسلم إلى كل عالٍ».

الإمام الجواد(ع)

الخطابة والشجاعة

الشجاعة من الصفات الحميدة والخصال الحسنة لبني البشر، والشجاعة ملكة نفسية وحالة روحية تستقر في اعماق من يتصف بها وتنطلق عند الضرورة لتظهر وتترك أثرها على الجسم.وعند الكلام يصبح اللسان مفوهاً، ويتحدث الإنسان الشجاع بكل قوة وكمال الصراحة. وفي ميدان المعركة تمنح الايدي والارجل قوة فيتقدم الشجاع باقدام راسخة وثابتة نحو العدو ويمسك سلاحه بعزم لا يلين ويندفع نحو العدو محارباً اياه بلا خوف أو وجل.

وللَكة الشجاعة درجات متفاوتة عند من يتسمون بها كما هو الحال في سائر الملكات النفسية، وكلما ازدادت قوة كلما تركت أثراً اشد على اعضاء الجسم.

عن الإمام علي عليه السلام قال: *«شجاعة الرجل على قدر همته»*[1].

و(الْهَمُّ بالامر حديث النفس بفعله) كما جاء في مجمع البحرين.

فيوم اَراد خليل الرحمن ابراهيم ان يحطم الاصنام كان يحدّث نفسه ويبلور هذه

---

(١) ميزان الحكمة: ٢٧.

الفكرة في رأسه: عليٌّ ان انتهز الفرصة حينما يترك الناس المدينة إلى خارجها، واتجه إلى معابد الاصنام لاحطمها وامحو هذا العار عن المدينة التي اسكنها.

وبالمعيار الذي وضعه الإمام علي عليه السلام في قياس وتحديد شجاعة الرجال، يمكن ان نتوصل إلى الشجاعة الفائقة في إبراهيم عليه السلام من حيث كونها شجاعة لا مثيل لها عند غيره او قلّ مثيلها، لانه همَّ بمواجهة سكان مدينة كاملة لوحده، والوقوف امامهم دون ان يخشى اعصار غضبهم وانتقامهم، ولم يجعل للخوف له طريقاً، وقد قام بهذا العمل المدهش بتمام القدرة والنباهة.

والقرآن الكريم يصف إبراهيم عليه السلام وهو الفرد بانه امة، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْراهيمَ كانَ أُمَّةً قانتاً لله حَنيفاً﴾[٢].

ووضعت في تفسير كلمة (امة) احتمالات عديدة، منها: ان إبراهيم العالم الموحد ومع كل كمالاته المعنوية وخصاله الباطنية لم يكن فرداً واحداً قام لمواجهة أُمة الشرك، بل كان لوحده امة موحدة وقف بوجه الامة المشركة وجابهها بكل قوة واقتدار.

لقد كانت الشجاعة سمة من سمات الرسل وخلفائهم بالحق، لما تتطلبه مسؤولياتهم من مكافحة الشرك والمعتقدات الفاسدة كل حسب درجته ووسعة منطقة مهمته وعمله، وتخليص الناس من أسار التقليد الاعمى للآباء الجاهلين، ودعوتهم إلى التوحيد. كان عليهم ردع الناس عن عبادة الهوى وهي أساس الذنوب والمعاصي ودعوتهم إلى التقوى والفلاح وهدايتهم إلى طريق السعادة، ويستحيل تحقيق هذا الهدف الكبير واداء هذه المهمة الثقيلة بغياب الشجاعة وقوة النفس، ولهذا كانت الشجاعة تلازمهم جميعاً على قدر مهامهم الجسيمة لتنفيذها باقتدار في الوقت المحدد وفي المنطقة المعينة.

واليوم أيضاً، على الخطيب الاسلامي والداعي إلى الله، الذي اختار هذه المهمة المقدسة، وأخذ على عاتقه هداية الناس، ووضع قدمه موضع اقدام الانبياء ليدعو

---

(٢) النحل: ١٢٠.

الناس إلى الدين الحق، ان يتسم بالشجاعة كما القادة الالهيون،ويتحدث بكل قوة وصراحة، لأنّ الشجاعة وقوة الضمير تؤثر في كيفية حديث المتكلم، وينطق بحزم، بحيث لا يجد احد في كلامه منفذ لضعف ووهن.

عن الإمام علي عليه السلام قال: «*بيان الرجل ينبيء عن قوة جنانه*»[٣] .

وعن الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: «*ان السريرة اذا صحّت قويت العلانية*»[٤] .

فشجاعة الخطيب وحزم كلامه يقوّي من نفوذ خطابه، ويجعل المستمع يصغي اليه بثقة واستقرار بال وهو ما يُسرع في اقناعه، ويسرع ايضاً في التوافق مع هدف الخطيب ومسايرته والانسجام معه.

والشجاعة للخطيب الديني هي حاجة ملحة وضرورية شريطة ان لا تتجاوز حدود الشرع، وتتخذ شكل التهور، لانه ـ أي الخطيب الديني ـ يتحدث عن دين الله ويبلغ الناس اوامره جل وعلا وهي تخالف هوى النفس والممارسات اللامشروعة، وإن لم يكن شجاعاً، يستسلم امام تهديد الحاكم المستبد ويتراجع أمام تحذيرات العاصين والذين يرتزقون بالطرق اللامشروعة، فان ثمن ذلك سيكون غالياً وعاقبته وخيمة تعود بالضرر على الدين الإسلامي المبين والعار والخجل على المسلمين.

ومن المؤكد ان يتصف المبلّغ البصير المؤمن بنعمة الشجاعة وهو ما يرضي الله تعالى، لانه يتكل في خطبه الدينية على الذات الالهية المقدسة وينفتح حديثه باسمه المبارك ويرى في نفسه انه منفذ لاوامره جل وعلا، فلا يتخلف عن اداء مسؤوليته، ولا يخشى أحداً أو يختلط عليه الامر امام أي تهديد.

ويصف القرآن الكريم هذه الفئة الشجاعة المقتدرة التي تقوم بمهمة ابلاغ رسالات الله ونشر التعاليم الإلهية، كالتالي:

---

(٣) غرر الحكم: ٣٤٣.

(٤) وسائل الشيعة١: ٤٧.

﴿اَلَّذينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ الله وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ اَحَداً اِلّا الله وَكَفى بالله حَسيباً﴾[٥].

القدوة الكاملة في الشجاعة

الرسول الاكرم(ص) هو المصداق الاكبر والمثال الكامل لهذه الآية الكريمة في تبليغ رسالات الله، فقد وقف(ص) بكل قدرة وقوة امام التهديدات المختلفة في طريق تبليغ رسالات الله، ولم يبد منه أي ضعف أو عجز في هذا الطريق.

فقد كانت قريش تعلم ان أبا طالب هو الحامي الحقيقي لرسول الله(ص) يدافع عنه ويدعمه ويرعاه، فقررت ان تمارس ضغطاً على أبي طالب لإرغامه على تسليم ابن اخيه، بيد انه وقف صامداً امام ضغوطها، وظل الرسول(ص) يمارس مهمته التبليغية.

وذات مرة، اشتدت ضغوط المشركين على أبي طالب فخشي على نفسه وعلى الرسول من كيدهم، فقال:

يابن اخي ان قومك قدجاءوني فقالوا لي كذاوكذا- للذي قالوا له -فأبق عليّ وعلى نفسك ولا تحمّلني من الامر ما لا اطيق، قال فظن رسول الله صلّى الله عليه وآله انه قد بدا لعمّه فيه بداء انه خاذله ومسلّمهُ وانه قد ضعف عن نصرته والقيام معه، فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «*يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هذا الامر حتى يظهره الله او اهلك فيه ما تركته*»[٦].

ان مصدر شجاعة الرسول الاكرم(ص) وشهامته في سبيل التبليغ لدين الحق هو أيمانه العميق بالله تعالى وثقته بنصره، والّا لا يستطيع ان يبدي أي انسان هذا الثبات وهذه الاستقامة في تلك الظروف التي لا تطاق والتى تهدد حياته في كل لحظة.

---

(٥) الاحزاب: ٣٩.

(٦) سيرة ابن هشام١و ٢: ٢٦٦.

اثارت كلمة الرسول(ص) وقد صدرت من اعماقه وصميم قلبه، في نفسه انفعالاً بحيث دمعت عيناه الشريفتان.

ثم قام ولما ولّى ناداه أبو طالب فقال اقبل يابن أخي فاقبل عليه رسول الله صلّى الله عليه وآله، فقال: «اذهب يا بن اخي فقل ما احببت فوالله لا أُسلّمك لشيء ابداً»(٧).

فكان حديث الرسول(ص) نافذاً ومؤثراً إلى حد كبير بحيث غيّر ابا طالب وقد كان منهزم النفس مرعوب الجانب، وطرد الخوف عن ذهنه، ومنحه الشجاعة وقوة الجنان، حتى اقسم انه لن يسلمه للعدو مهما أُعطي أو هُدّد.

نستنتج من هذه الرواية التاريخية شيئين اثنين: اولاً: اتضح مدى قوة القلب والشجاعة عند الرسول المبعوث من قبل الله تعالى وثباته في تبليغ الامر الإلهي امام أقسى تهديدات العدو دون أن تؤثر فيه سلبياً أو تردعه عن اداء مهمته.

ثانياً: اصبح من المعلوم ان شجاعة رسول الله وقوته قادرة على منح أبي طالب الذي كان يعاني من تراجع نفسي،أو مَنْ مثله القوة والقدرة، وتجعل منه شجاعاً عالي الهمة ليستطيع من مواصلة طريقه الصحيح.

الشجاعة في ميدان الحرب

تجلت شجاعة رسول الله(ص) قبل الهجرة إلى المدينة في التبليغ لدين الله ودعوة الناس لإعتناقه، فلم يكن يرتب أي أثر على مؤامرات المشركين الخطيرة وتهديداتهم الجدية ويواصل تبليغ دعوته إلى دين الله ونشرها، ولكن بعد الهجرة الشريفة والانتصارات الاولية التي حققها الاسلام برزت شجاعته(ص) في ميادين القتال وساحات الوغى والمواجهات الدامية، فكان الرسول الاعظم(ص) هو الملجأ يتقي به المسلمون ساعة العسرة حينما ينتابهم القلق ويداخلهم الخوف ويتوقعون

(٧) نفس المصدر والصفحة.

مصرعهم وهزيمتهم في أية لحظة، فيثبت في تلك الظروف الحرجة والحساسة بكل قدرة ويمنح عسكر المسلمين القوة وروح الثبات والإستقامة.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «*انا كنا اذا اشتد البأس واحمّرت الحدق اتقينا برسول الله صلّى الله عليه وآله فما يكون احد أقرب إلى العدو منه*»[٨].

ابلاغ سورة البراءة

من نماذج الشجاعة الاخرى في تبليغ امر الله، هي المهمة الخطيرة التي اوكلها الرسول الكريم محمد(ص) إلى الإمام علي عليه السلام في ابلاغ الآيات العشر الأُولى من سورة البراءة، وكما جاء في تفاسير العامة والخاصة ان الرسول(ص) ولما نزلت سورة البراءه كلّف أبا بكر للذهاب إلى مكة وقراءة الآيات العشر الأُولى للملأ وابلاغ المشركين براءة الله ورسوله اليهم، فاتجه أبو بكر إلى مكة، غير ان الامر جاء بعد حين يطلب من الرسول ان يقوم بالمهمة بنفسه أو يوكلها إلى من هو منه وله معه رحم، فكلف علياً عليه السلام للّحاق بأبي بكر واخذ السورة منه لابلاغها بنفسه، فلحق به في منطقة يقال لها ذو الحليفة واخذ منه السورة بينما رجع أبو بكر إلى المدينة، ولما حضر عند الرسول سأله عن سبب هذا الاجراء، فقال(ص) بما مؤداه ان أمراً قد نزل بهذا الشأن فاما ان أبلغها بنفسي أو ان يبلغها من هو منّي، لذلك بعثت علياً.

قطع علي عليه السلام الطريق بين مكة والمدينة، ودخل مكة يوم النحر العاشر من ذي الحجة، وحضر في منى حيث يحتشد الناس لابلاغ آيات سورة البراءة.

عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «*خطب على الناس واخترط سيفه فقال لا يطوفن بالبيت عريان ولا يحجن البيت مشرك ومن كانت له مدة فهو إلى مدته ومن لم يكن له مدة فمدته اربعة اشهر وكان خطب يوم النحر وكانت عشرون من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الاول وعشر من شهر ربيع الآخر*». وروي

(٨) كحل البصر للمحدث القمي: ٨٩.

انه عليه السلام قام عند جمرة العقبة [٩] .

وقـد يتبادر إلى بعض الاذهان الخالية سؤالٌ حول الفقرة الأُولى من كلام الإمام علي عليه السلام: اكان هناك ثمة من يطوف عرياناً في المسجد الحرام ليمنعه الإسلام؟ الجواب على ذلك: نعم، وقد جاء شرح ذلك في حديث للامام الصادق عليه السلام.

عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «..... *وكان سنّة العرب في الحج انه من دخل مكة وطاف البيت في ثيابه لم تحل له امساكها وكانوا يتصدقون بها ولا يلبسونها بعد الطواف فكان من وافى مكة يستعير ثوباً ويطوف فيه ثم يرده ومن لم يجد عارية اكترى ثوباً ومن لم يجد عارية ولا كرىً ولم يكن له الّا ثوب واحد طاف بالبيت عرياناً*»[١٠] .

المادة الأُولى التي ابلغها علي عليهُ السلام بامر الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله هي منعه من الطواف عري، وقد وضع هذا النهي الإلهي الذيْ ابلغه علي عليه السلام بشكل حاسم حداً لاحدى السنن الجاهلية الباطلة للمشركين.

نستنتج ان رسول الله صلى الله عليه وآله وعلياً عليه السلام كانا في ذروة الشجاعة وقوة الإرادة لدى تبليغ الاوامر الإلهية ونشر التعاليم الاسلامية السماوية، ينفـذان تلك الاوامـر في وقتها المحـدد لها دون أن يخافا من أية تهديدات توجه نحوهما لانهما كانا على قمة الإيمان بالله تعالى.

فالقلب الـذي يذكـر الحق تعالى على الدوام ويتكل عليه سبحانه في جميع الاحوال، لا يتراجع امام الاهوال والاحداث مهما كانت عسيرة ومروعة ولا يخشاها، وله قلب مطمئن قرير.

قال تعالى: ﴿اَلا بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[١١].

---

(٩) تفسير مجمع البيان٥ـ٦: ٣

(١٠) تفسير البرهان٢: ١٠٠

(١١) الرعد: ٢٨

ان شجاعة الرسول الكريم محمد(ص) وأمير المؤمنين وبقية الائمة المعصومين عليهم السلام واستقامتهم انما هي متأتية من اعلى المستويات الإيمانية، وتلك الخصال مختصة بهم دون غيرهم، فليس هناك من خطيب يبلغ ما بلغوه من المستوى الإيماني الرفيع لينال تلك الدرجة من الشجاعة، لكن الخطيب الإسلامي يستطيع ـ لو أَراد ـ من السعي لتقوية إيمانه وترسيخ مبادئه الدينية وشد اواصر علاقته بالله تعالى، ليطمئن قلبه وتزداد شجاعته في ظل السمو المعنوي والإيماني.

فالمتاع الدنيوي المادي يمكن تقييمه وشراءه مهما كان نفيساً وثميناً، فمثلاً يمكن ابتياع الجوهرة الثمينة واللوحة الفريدة والسجادة الحرير وغيرها من البضائع الثمينة بالمال، غير ان السجايا الإنسانية والكنوز المعنوية التي تؤدي إلى السعادة لا يمكن تقييمها أو تثمينها بسعر، ولا يستطيع اثرى أثرياء العالم من شراءها والحصول عليها بالتعامل المالي.

فمن يواجه الاحداث الجسيمة والمصائب التي لا تطاق لا يمكنه من شراء الصبر والحلم وتوقي الجزع.

ومن يتعرض لتهديد الأقوياء ويخاف على حياته منهم ويفقد لذلك راحته ويسهر لياليه، لا يستطيع ابتياع استقرار البال وراحة الفكر والخلاص من القلق مهما دفع من أموال.

هذه الكنوز الثمينة والعناصر النفيسة لا تُنال الّا بالإيمان بالله والإتكال على الذات القدسية الإلهية، وهذه الحقيقة هي مصداق الحديث التالي المنقول عن الإمام الجواد عليه السلام :«*الثقة بالله تعالى ثمن لكل غالٍ وسلّم إلى كل عالٍ*»[١٢] .

شجاعة الخطيب الإسلامي الداعي إلى تطبيق الشريعة والتعاليم الإلهية وشهامته هي من هذا الصنف من الذخائر والكنوز النفيسة التي لا تستحصل بالاموال بل تُنال فقط بالإيمان بالله والإتكال على الذات القدسية لتستقر في القلب. وعلى هذا

(١٢) بحار الانوار٧٥: ٣٦٤.

فان ايمان الخطيب وتوجهه إلى الله يتناسب طردياً مع شجاعته في بيان الحقائق والإستقامة امام المعارضين.

أجر هداية الناس

يحتل الخطيب الفصيح البليغ والشجاع الذي يتحدث بحزم باثر اتكاله على الله مكانة مهمة في القلوب، ويهدي الناس في فترة اسرع إلى الصراط المستقيم ويحصل على أجر كبير من الله تعالى، وتتضح جلياً قيمة هداية الناس إلى الطريق القويم من كلام الرسول صلى الله عليه وآله إلى علي عليه السلام:

عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «*بعثني رسول الله صلّى الله عليه وآله إلى اليمن فقال لي: يا علي لا تقاتلن أحداً حتى تدعوه وايم الله لان يهدي الله على يديك رجلًا خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت ولك ولاؤه يا علي*»[١٣].

وكأن الرسول(ص) يريد ان يقول ان اجر علي عليه السلام من هداية رجل هو أكبر من اجر اقامة حكمه العادل على كل الكرة الارضية واينما اشرقت الشمس.

الشجاعة هي الحد الوسط بين التهور والجبن، والخطيب الذي يتوخى في ان يكون شجاعاً، يحتج من فوق منبر الخطابة على المعاصي والمحرمات ، ولا يمر على الجرائم الاجتماعية مرور الكرام، عليه ان لا يقع تحت تأثير مشاعره، ويميل إلى التهور، ولا يتجاوز حدود الدين والحق، ولكي يصان من الخطر ولا يدخل الدائرة الممنوعة، ينبغي به وقبل ان يتفوه بكلامه ان يعرض افكاره وتصوراته على الشرع المقدس، فيقولها اذا وافقها الإسلام ويتجنب النطق بها اذا خالفت الدين والشرع.

ويتمتع الخطيب الذي يبرمج عمله كالذي ذكرنا بضمير مستقر ووجدان مطمئن، واذا ما تعرض على سبيل الفرض إلى ملاحقة النظام بسبب انتقاداته واودع السجن او اخذ يستشعر بالخطر، فانه لن يقلق أو يندم في المحيط الاجتماعي أو

---

(١٣) مجموعة ورام٢: ٢٧٧.

السجن لانه اخذ بنظر الاعتبار موازين الشرع المقدس وتحدث بما يرضي الله تعالى في خطبه وكلماته، فلا يتراجع عن كلامه أو يندم على اقواله ولا ينفيها خلافاً للواقع أو يذل نفسه ويخضع طالباً العفو والشفقة لإطلاق سراحه من السجن أو التخلص من الضغوط، بل يقولها بصراحة تامة وشجاعة كاملة: ان ما تحدثت به واتخذت من موقف انما فرضته عليّ مسؤوليتي الدينية، فكان لزاماً عليّ بان اقوله، وانا الآن على اتم الإستعداد لتقبل نتائج ذلك.

ومن الطبيعي ان المنتقدين في المجتمع يتفاوتون من حيث الشجاعة الروحية والقوة المعنوية، سواء اكانوا من فئة الخطباء والمتكلمين أو من عامة الناس.

فالشجاعة وقوة الجنان عند البعض تجعلهم يحتفظون بالقدرة المعنوية ويمسكون بزمام انفسهم اذا تعرضوا للسجن بسبب انتقاداتهم، بينما يتراجع بعض الضعفاء الذين يستولي عليهم الجبن والخوف عن اقوالهم الانتقادية ويستسلمون للذل تخلصاً من الخطر، وفيما يلي عدة مواقف تاريخية لكلتا الحالتين:

اولاً: ساد في العهود الماضية ان يخرج أحياناً احد رجال الدولة أو الخليفة خارج المدينة للتجوال أو الصيد برفقة عدد من اعوانه وحاشيته من مدنيين وعسكريين، ويوماً خرج عبد الملك بن مروان عن مركز خلافته بمعية عدد من خواصه ورجاله، وبعد ان قطع بعض الطريق اسرع عبد الملك في سيره وانفصل عن قومه مبتعداً عنهم بعض الشيء، فلقي اعرابياً، فكبح جماح فرسه وتوقف محادثاً اياه، فقال: اتعرف عبد الملك بن مروان؟

قال: نعم جائر بائر.

قال: ويحك انا عبد الملك.

قال: لا حيّاك الله ولا بيّاك ولا قرّبك اكلت مال الله وضيعت حرمته.

لقد تصور عبد الملك ان الاعرابي سيخفف من وطأة هجومه لو عرفه من يكون ويعتذر عن ما بدر منه، لكنه وخلافاً لما تصوره عبد الملك استمر الرجل بهجومه الحاد كما رأينا.

فقال عبد الملك: ويحك انا اضر وانفع.

قال: لا رزقني الله نفعك ودفع عني ضرك.

فسكت الاثنان، ولما اقترب من كان مع عبد الملك منهما، قال الاعرابي: اكتم ما جرى فان المجالس بالامانة[١٤].

لقد قال هذا الاعرابي الشجاع والحكيم كلمته حول عبدالملك بصراحة تامة قبل ان يتعرف اليه وبعده، ولم يبد منه ضعفاً وذلاً، وكان عالي الهمة عزيز النفس بحيث ذكر حديثاً واحداً فقط للرسول (ص) في نهاية الامر لتوقي إحتمال اذاه واعتقاله فنجى، وحتى لو افترضنا ان رجال عبدالملك كانوا قد اعتقلوه واودعوه السجن، فان الاعرابي الشجاع ـ على اكبر الظن ـ كان يرى نفسه أكبر من ان يخضع للذل ويطلب العفو والصفح للخروج من السجن.

ثانياً: خرج الحجاج يوماً متنزهاً فلما فرغ من نزهته صرف عنه اصحابه وانفرد بنفسه، فإذا هو بشيخ من بني عجل، فقال له: من اين ايها الشيخ؟

قال: من هذه القرية.

قال: كيف ترون عمالكم؟

قال: شر عمال يظلمون الناس ويستحلون أموالهم.

قال: فكيف قولك في الحجّاج.

قال: ذاك ما ولى العراق شر منه، قبّحه الله وقبّح من استعمله.

قال: أتعرف من أنا؟

قال: لا .

قال: انا الحجّاج.

قال: جعلت فداك او تعرف من أنا؟

قال: لا.

---

(١٤) (ن.م) ١: ٣١.

قال: أنا فلان بن فلان مجنون بني عجل اصرع في كل يوم مرتين.

فضحك الحجاج منه وأمر له بصلة[١٥].

في بدء المواجهة مع الحجاج، تحدث هذا الشيخ بقوة وثبات كما تحدث الاعرابي مع عبد الملك، الا انه ضعف عندما علم ان الشخص الذي يتكلم اليه هو الحجاج نفسه، وتظاهر بالجنون وتحدث بكلام لا حقيقة له لإنقاذ نفسه من المصير المجهول، غير ان الاعرابي الشجاع القوي النفس واصل كلامه على نفس الوتيره بعدما علم بانه أمام عبدالملك نفسه، ثم نحّى عنه الخطر بذكر حديث الرسول الاكرم(ص) في نهاية المطاف.

فإذا تطرق الخطيب الشجاع إلى موضوع تمليه عليه مسؤوليته الدينية وواجه بسببه مشاكل وعقبات، فانه لا يقوم بنفي ما تحدث به ولا يندم على ما قاله، فيتكيف مع المشكلة ويتجنب أي عمل من شأنه أن يوصمه بالذل والحطة.

ان الثبات والاستقامة في طريق الحق يؤدي إلى العز والرفعة، وقد يؤدي أيضاً إلى نجاة أهل الحق.

خطب الحجاج يوماً فأطال، فقام رجل فقال: الصلاة، فان الوقت لا ينتظرك والرب لا يعذرك. فأمر بحبسه، فأتاه قومه وزعموا انه مجنون وسألوه ان يخلي سبيله، فقال: أن أقرَّ بالجنون خليته، فقيل له، فقال: معاذ الله لا ازعم أن الله ابتلاني وقد عافاني، فبلغ ذلك الحجاج فعفا عنه لصدقه[١٦].

---

(١٥) المستطرف١: ٥٩.

(١٦) (ن.م)٢: ٨.

الفصل الثالث عشر

«المِـراءِ يُفسِـدُ الصـداقـة القديمةَ ويُحَلِّلُ العقدة الوثيقة».

الإمام الهادي(ع)

مادة الخطيب ومحتوى كلامه

كان على الرسول الاكرم صلّى الله عليه وآله ان يقيم دعوته المباركة على ثلاثة مبادىء أساسية حددها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم، ويدعو الناس إلى دين الله من خلال هذه المبادىء:

١ـ الحكمة والمنطق المستدل.

٢ـ الموعظة الحسنة والنصيحة النافعة.

٣ـ المجادلة المنزهة عن الداء والعداء.

قال تعالى:

﴿اُدْعُ إلى سَبيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَة وَجَادِلْهُمْ بِالَّتي هِيَ اَحْسَنُ﴾[1].

ويفسر الراغب في مفردات القرآن الحكمة على انها: اصابة الحق بالعلم

---

(١) النحل: ١٢٥.

والعقل.

ووفقاً لهذا التعريف، فان الحكمة تطلق على الأُمور التي تثبت صحتها وصوابها بطريق الدليل العقلي والبرهان العلمي.

وقد نعت الله سبحانه وتعالى بعض القوانين والضوابط الإسلامية التي جاءت على شكل آيات قرآنية متتالية بالحكمة، وصوابها لا يخفى على العقلاء والعلماء من الناس:

- ﴿لَا تَجْعَلُوا مَعَ ٱللهِ اِلٰهاً آخراً ... وَلاَ تَعْبُدوا اِلاَّ اِيَّاه﴾.
- ﴿بِالْوَالِدَيْنِ اِحْسَاناً .. وَلاَ تَقُلْ لَهُمَا اُفٍ .. وَلاَ تَنْهَرْهُمَا .. وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾.
- ﴿آتِ ذا ٱلْقُرْبَى حَقَّهُ وٱلْمِسْكِين﴾.
- ﴿لَا تُبَذِّر تَبْذِيراً﴾.
- ﴿لَا تَجْعَل يَدَكَ مَغْلُولَةً اِلى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْها كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾.
- ﴿لَا تَقْتُلوا اَوْلاَدَكُمْ خِشْيَةَ اِمْلاقٍ﴾.
- ﴿لا تَقْرَبُوا الزنـا﴾.
- ﴿لَا تَقْرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيم اِلاّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَن﴾.
- ﴿لَا تَمْشِ فِي الارْضِ مَرَحاً﴾.
- ﴿لَا تَقْتُلوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱلله﴾.
- ﴿اَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾.
- ﴿اَوْفُوا ٱلْكَيْلَ .. وَزِنُوا بِالْقِسْطاس ٱلْمُسْتَقِيم﴾.
- ﴿لَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾.

بعد بيان هذه التعاليم الدينية والقوانين الإسلامية، تأتي الآية الشريفة:

- ﴿ذَلِكَ مِمّا اَوْحَى اِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾[٢].

---

(٢) الاسراء: ٣٩.

الخطباء وبحوث الحكمة

حينما يكون ذهن المستمع خصباً ومهيأ للاصغاء في مجالس البحث الديني، ينبغي بالخطيب الذي يتوفر فيه عنصر الوعي والعلم ان يخصص جزءً من خطبته للقضايا الحكمية، ويبحث في المواضيع التي يمكن برهنتها بالادلة العلمية والعقلية، لان مناقشة مثل هذه المواضيع في الاجتماعات العامة تؤدي إلى نمو الفكر وتقوية قابلية الاستدلال لدى المستمعين وترفع من مستوياتهم الفكرية والثقافية، زد على ذلك فان طرح البحوث البرهانية والإستدلالية تلقى قبولاً لدى الحاضرين وتقنعهم سريعاً مما يرفع عن الخطيب عناء التكلف والمشقة في الوصول إلى الهدف، ويجعلهم بالتالي يواكبونه سريعاً في خطبته

التتلمذ

يجدر بنا هنا، لما للكلمة الحكيمة للخطباء من أثر حسن في أذهان المستمعين، أن نشير الى امرٍ ذو أثر مهم في تنمية قابليات الخطيب وبناء افكار المتكلم.

فيلزم بمن يرغب في ان يشخذ همته ويعد نفسه للنطق والخطابة واعتلاء منابر الكلمة في المجتمع، ان يحضر لفترة في مجالس الخطباء الكبار المتمرسين، ويتابع كيفية البحوث ومهارة تناول القضايا المختلفة والدخول إليها والخروج منها، لان هذه المجالس هي بمثابة دروس مستمرة، غير ان هذا الحضور يجب ان يكون عند من يتمتع بتفكير سليم وكلام مستدل، لان اقوال الخطيب المتمرس المجرّب لها أعمق الأثر في الاشخاص الحديثي العهد، وتضع لبنات مماثلة لها بنحو شعوري أو لا شعوري، وقد يرسخ ما يقتبسه الجدد من هذه المجالس ويصبح ملكة روحية لا تفارقهم حتى نهاية العمر ولا يفارقونها.

وعلى هذا، وبنفس الميزان، فان الحضور في مجالس الخطباء الذين تخلو خطبهم من المادة النافعة والاساس الرصين يبلور الشخصية الخطابية على هذه الشاكلة، فلا ينتفع المجتمع من اقوالها في المستقبل ولا هي بالتي تحصل على المكانة اللائقة من تلك

الاقوال.

الموعظة الحسنة

الموعظة الحسنة هي الاسلوب الثاني الذي أمر الله عزوجل نبيه محمد صلّى الله عليه وآله باتباعه وحدده تعالى منهجاً لإبلاغ دين الحق والدعوة إليه.

ويعرف الراغب الوعظ في مفرداته بانه:

زجر مقترن بتخويف.

فالأب الذي يريد ان ينصح ولده في اجواء الاسرة المحدودة بشأن اختيار الصديق ويعظه ويقول له: بُني، تجنب اصدقاء السوء وابتعد عن مجالسة الفاسدين العاصين، لان الصديق السيء من عوامل انحراف المرء عن الطريق المستقيم، وصديق السوء يترك لا شعورياً أثراً في الإنسان ويسوقه نحو طريق الفساد والانحراف، وصديق السوء يجر صاحبه إلى إرتكاب الآثام والخطايا وينفرّ عنه المجتمع ويسلك به بالتالي سبيل الشقاء والبؤس.

والواعظ الذي ينوي تقديم النصح للناس في اجواء المجتمع الواسعة بشأن الغضب ويعظهم، يقول لهم: الغضب هو كالسنة النار الخطيرة التي تلتهب في باطن الانسان الغاضب ، فاسعوا إلى الإبتعاد عن الغضب وتجنب النقاش الذي يسبب الغيض ويرفع وتيرة الغضب، واذا ما غضبتم يوماً فاكظموه، ولا تتحدثوا بشيء ولا ترتكبوا عملاً اشباعاً لهذه الشهوة، واعلموا اذا مافسحتم المجال للغضب ليصول ويجول واججتم ناره، فانكم ستقدمون على ممارسات غير مشروعة وبالتالي ستحرقون انفسكم بنيرانه.

لقد خلق الله الإنسان بشكل جعله يتاثر بالإيحاء الخارجي ويتقبله، سواء اكان هذا الإيحاء نافعاً صالحاً له أو مضراً به، والموعظة هي نوع من الإيحاء الذي يلقيه الواعظ في المستمع.

والموعظة ذات تأثير كبير في تغيير افكار الناس وتبديل بناءهم العقائدي،

فجعلها الله تعالى واحدة من طرق دعوة رسوله الكريم محمد(ص) إلى جانب الحكمة.

ولمعرفة اَهمية الموعظة ومكانتها، يكفينا ان نمعن في هذا الحديث الشريف:

عن الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: «*قال رسول الله صلّى الله عليه وآله لجبرئيل عليه السلام: عظني، فقال يا محمد عش ما شئت فانك ميت واحبب ما شئت فانك مفارقه واعمل ما شئت فانك ملاقيه*»[٣].

والله عزوجل قد وعظ الناس في القرآن الكريم في اكثر من آية، ومنها:

﴿إِنَّ اَللهَ يَأمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ والبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٤].

ومواعظ الرسول الكريم(ص) هي الاخرى كانت كثيرة جمعها المحدثون في كتب الاخبار، ووضعوها في متناول طلابها ومنها:

عن اَنس قال خطبنا رسول الله(ص) على ناقته فقال: «*ايها الناس كأنّ الموت فيها على غيرنا كتب وكأن الحق فيها على غيرنا وجب وكأن الذي يُشَيَّع من الاموات سفر عما قليل الينا راجعون*»[٥].

وكان أمير المؤمنين وبقية الائمة الطاهرين عليهم السلام ينصحون الناس ويعظونهم بمختلف العظات، محفوظة هي في بطون كتب الاخبار، فليراجع مصادر الحديث من اَراد.

النقطة الجديرة بالملاحظة هنا هي: ان الله تبارك وتعالى اَمر نبيّه في دعوة الناس بالموعظة الحسنة، بمعنى الموعظة الخالية من أي نقص أو عيب، فهي القادرة على ادخال الناس في دين الله وهدايتهم إلى الصراط المستقيم واحاطتهم بهالة الإنسانية، وقد أفلح رسول الإسلام (ص) في دعوته في ظل مواعظه الحسنة.

---

(٣) سفينة البحار٢: (وعظ): ٦٦٩.

(٤) النحل: ٩٠.

(٥) ميزان الحكمة١٠: ٥٦٠.

فإذا أَراد الخطيب الإسلامي الذي يتبع خطى رسول الله(ص) ان يدعو الناس الى الطريق الحق بواسطة الموعظة، فعليه ان يتكلم بما أمر به الله ويتبع سلوك رسول الله(ص)، وأن تكون مواعظه حسنة خالصة ليتمكن من أن يترك أثراً طيبا فى مستمعه ويهديه الى الصراط المستقيم وهو طريق الحق الذي لا عوج فيه.

في الموعظة جانبان مهمّان لا بد من ملاحظتهما:

اولاً: ان يتوفر في فحوى كلام الواعظ عنصر التوعية والتنبيه.

ثانياً: ان يقرن كلامه بالإخلاص.

ولا بد ان تتوفر الشروط اللازمة في المستمع أيضاً من حسن الإستماع والإيمان بالله ليترك الوعظ فيه أثره الكامل، وإلّا فان اثر الوعظ سيكون نسبياً أو عديماً.

«روي ان بعض الوعاظ دخل على الرشيد يوماً فقال: عظني فقال له: اتراك لو منعت شربة من ماء عند عطشك بم كنت تشتريها؟ قال بنصف ملكي، قال أتُراها لو حبست عند خروجها بم كنت تشتريها؟ قال بالنصف الباقي، قال فلا يغرنك ملك قيمته شربة ماء»[٦].

فمادة كلام الوعظ كانت مثيرة ومؤثرة جداً، الا ان الاهواء والميول النفسية منعت عن هرون العودة إلى نفسه والاستيقاظ من نوم الغفلة، وسلوك طريق العدل.

فإذا كانت مادة كلام الواعظ مؤثرة يقولها عن إيمان تام واخلاص كامل، وكان مستمعه مؤمناً بالله وبتعاليم السماء يستقبل اقوال الواعظ بحسن استماع، فانه يقع تحت تأثيرها ويسعى لاصلاح اخلاقه واعماله، وقد ترى من بين المستمعين مَن ينقلب حاله بأثر سماع نصائح الواعظ ويفقد طاقة تحمله، فيشهق ويسقط ميتاً في الحال، والتاريخ الإسلامي يحمل في طياتهُ مثل هذه المشاهد.

يروى انَّه كان عالم من العلماء مؤثر الكلام قوي التصرف في القلوب وكان كثيراً ما يموت من اهل مجلسه واحد أو اثنان من شدة تأثير وعظه، وكان في بلده

---

(٦) لئالى، الاخبار: ١٤٧

عجوز لها ابن صالح رقيق القلب سريع الانفعال وكانت تحترز عليه وتمنعه من حضور مجلس الواعظ، فحضره يوماً على حين غفلة منها فوقع من امر الله تعالى ما وقع، ثم ان العجوز لقيت الواعظ يوماً في الطريق، فقالت:

لتهدي الانام ولا تهتدي
الا ان ذلك لا ينفع
فيا حجر الشحذ حتى متى
تسن الحديد ولا تقطع

فلما سمعه الواعظ شهق شهقة فخر من فرسه مغشياً عليه فحملوه إلى بيته فتوفى إلى رحمة الله[٧].

بعباره قصيرة ونافذة، وعظت هذه المرأة واعظ المدينة واثرت فيه إلى درجة انه شهق شهقة وخر من فرسه مغشياً عليه فحملوه إلى بيته، لكنه لحق سريعاً ببعض مستمعيه المؤمنين ورحل إلى دار الخلود.

فعلمت هذه المرأة ان واعظ المدينة كان رجلًا الهياً مؤمناً يتحدث عن إخلاص وحق، فإذا كانت موعظته قد اودت بحياة ولدها الطاهر المؤمن، فان موعظتها أيضاً قد وضعت حداً لحياة هذا الواعظ الكبير.

وخلاصة القول: فان الواعظ المؤمن الذي يتحدث بنية مخلصة، هدفه هداية الناس إلى الصراط المستقيم بالموعظة الحسنة وتأمين السعادة لهم، هذا الواعظ يترك ـ مما لا لبس فيه ـ أثراً في نفوس المنزهين عن العناد واللجاجة من مستمعيه ويهديهم إلى سبيل الفلاح والصلاح.

اما اذا اتخذ الخطيب موقفاً ممالئاً لطاغوت زمانه، وحاول تنفيذ مآربه في لباس

---

(٧) تفسير أبي السعود١: ذيل الآية ٤٤ من سوره البقرة: ٥١٥.

الموعظة، او انه كان واقعاً تحت تأثير افكار شيطانية وهدفه تحقيق نواياه الباطلة، أو أية عوامل أُخرى تركت فيه أثرها كحب الجاه ورغبة التفوق والغرور، وسعى بطريق الموعظة للوصول إلى اغراضه، فان ذلك ليس من الموعظة الحسنة في شيء، بل هي رغبات نفسية تتخذ من صبغة الموعظة واجهة لها.

فلما أراد الشيطان خداع آدم وحواء في الجنة وحثّهم على الاكل من الشجرة المنهية، تلبس بلبوس النصيحة، واقسم لهما انه من الناصحين لكسب ثقتهما.

﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾[٨].

المعصية وعذاب القيامة

حينما يدخل الخطيب الإسلامي في الموعظة وهو على منبر الخطابة، ويريد تحذير الناس من المعصية والرذيلة، يلزم به ـ لكي تؤثر مواعظه في المستمع وتوقظ الغافلين وتحيي القلوب الميتة ان يشير في موعظته إلى يوم القيامة وجزائه والعقاب الإلهي، ويورد بعض الآيات والاحاديث التي تناسب البحث ويشرحها للمستمع ويوضح معانيها له ويدعوه إلى التدبر في الايات والاحاديث ويشجعه على ذلك، عندها يستطيع الواعظ ان يؤثر في المستمع النَّقيّ السريرة ويردعه عن إرتكاب المعاصي.

الأمر الجدير بالاهتمام هنا الذي اكدت عليه الاحاديث الشريفة هو ان يتجنب الخطيب الإسلامي الإسهاب في الكلام عن العذاب الإلهي والمبالغة في هذا الجانب والإصرار عليه، لانه يؤدي إلى يأس المستمع وقنوطه، وقد جاءت الكثير من الروايات بهذا الشأن:

عن الإمام علي عليه السلام قال: «*الفقيه كل الفقيه مَنْ لم يُقنط الناس من رحمة الله ولم يؤيسهم من روح الله ولم يؤمنهم من مكر الله*»[٩].

---

(٨) الاعراف: ٢١.

(٩) نهج البلاغة: الكلمة ٩٠.

ان معيار السعـادة الإنسانية في الاسلام هو حسن العاقبة، ولكي لا يقنط العاصون المذنبون من الرحمة الإلهية الواسعة ذكرت بعض الاحاديث الشريفة انه ربما يرتكب بعض الاشخاص في ايام العمر المعاصي والآثام ثم يرحلون عن الدنيا بعاقبة حسنة، أو بالعكس قد تنتهي حياة البعض بسوء العاقبة رغم حرصهم على الصلاح طيلة الحياة.

قال الإمام علي عليه السلام من جملة وصاياه للإمام الحسين عليه السلام:«*أي بُني لا تُؤيس مذنباً فكم من عاكف على ذنبه ختم له بخير وكم من مقبلٍ على عمله مفسد في آخر عمره سائر إلى النار نعوذ بالله منها*»[١٠] .

المُناظرة والجَدَل

الطريق الثالث الذي وضعه الله تبارك وتعالى امام رسوله صلّى الله عليه وآله لدعوة الناس إلى الدين هو المناظرة والمجادلة، ولكن أية مجادلة؟ المجادلة بالتي هي احسن التي لا تنتهي بالمراء والعداء.

قال تعالى: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ اَحْسَنُ﴾[١١].

ويقول الراغب في مفردات القرآن:

الجدل: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة.

وقـد جاء في القـرآن الكريم والروايات الاسلامية نماذج للجدل المشروع المسموح به الذي لم ينته إلى خصام، وفيما يلي نشير إلى بعضها وهي تحدد معايير خاصة يستطيع المسلمون اتباعها لو أرادوا الخوض في مناقشات ومناظرات خالية من المراء والعداء.

قال الإمام العسكري عليه السلام: قال الإمام الصادق عليه السلام وقد ذكر

---

(١٠) تحف العقول: ٩١.

(١١) النحل: ١٢٥.

عنده الجدال في الدين، وان رسول الله (ص) والائمة(ع) قد نهوا عنه: لم ينه عنه مطلقاً لكنه نهى عن الجدال بغير التي هي احسن اما تسمعون الله يقول:

﴿وَلاَ تُجادِلُوا اَهْلَ الْكِتابِ اِلاَّ بِالَّتي هِيَ اَحْسَن﴾[١٢].

وقوله تعالى: ﴿اُدْعُ إلى سَبيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتي هِيَ اَحْسَن﴾[١٣].

فالجدال بالتي هي احسن قد قرنه العلماء بالدين والجدال بغير التي هي احسن محرم حرمه الله تعالى على شيعتنا، وكيف يحرم الله الجدال جملة وهو يقول:

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ اَلْجَنَّةَ إلاّ مَنْ كَانَ هُوداً اَوْ نَصارى تِلْكَ اَمانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ اِنْ كُنْتُمْ صَادِقينَ﴾[١٤]

فجعل الله علم الصدق والإيمان بالبرهان، وهل يؤتى البرهان الا في الجدال بالتي هي أحسن؟

فيسأل الإمام الصادق(ع) عن الجدال بالتي هي احسن والتي ليس بأحسن، فيجيب عن السؤال، ويقول عن الجدال بالتي هي احسن:

فهو ما امر الله به نبيه ان يجادل به من جحد البعث بعد الموت واحيائه له فقال الله حاكياً عنه:

﴿وَضَرَبَ الله لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾.

فقال الله في الرد عليه:ـ

﴿قُلْ يُحْييها الَّذي اَنْشَأها أَوَلَ مَرَةٍ وَهُوَ بِكُلِ خَلْقٍ عَليم﴾[١٥].

فأراد الله ان يجادل المبطل الذي قال: كيف يجوز ان يبعث الله هذه العظام وهي رميم، فقال الله تعالى:

---

(١٢) العنكبوت: ٤٦.

(١٣) النحل: ١٢٥.

(١٤) البقرة: ١١١.

(١٥) يس: ٧٨ و٧٩.

﴿قُلْ يُحييها الذي اَنْشَأَها أَوَلَ مرَّةٍ﴾[١٦].

لقد بيّن الإمام الصادق عليه السلام هاتين الايتين الكريمتين في مقام الجدل المشروع والمجادلة بالتي هي اَحسن، وفي كلتا المجادلتين أجيب السائل وانتهى الجدل بلا مراء وعداء.

الجدل المنبوذ

الجـدل اللامشروع والمذموم هو الجدل الذي يراد من وراءه ابطال حق أو إحقاق باطل أو تحقير المجادل ووصمه بالعار، فهذا النوع من الجدل الذي يؤدي إلى العداء والخصام ويفرط عقد الاخوة الاسلامية مرفوض في الإسلام وليس له أية مشروعية.

الخطباء والجدال اللامشروع

لا يواجه الخطيب الإسلامي الذي طوى مدارج العلم وتبحر في علوم القرآن الكـريم أي مشكل في بيان الكلمة الحكيمة والموعظة الحسنة وهما البندان الاول والثاني في الأمر الإلهي للرسول الكريم(ص)، ويتمكن من الخوض في هذين البندين بمقدار معلوماته ويدعو الناس إلى سبيل الله، الا ان المشكلة الكبيرة التي تواجهه هي البنـد الثالث من الأمر أي الجدل (بالتي هي احسن)، لان الخطباء المتكلمين متمرسون على الكلام وقادرون منه ، لذا فربما تزلقهم القدرة على المجادلة والمناقشة فيخرجوا عن حدود الجدال المشروع الذي يرضي الله تعالى ويدخل نطاق المراء والخصام.

وللمزيد من التوضيح، نورد هنا مثالاً على الجدل المشروع وغير المشروع عند الخطيب، يجب ان يصبح معياراً لجميع المسلمين وعامة الناس المؤمنين، حيث يتوجب

---

(١٦) تفسير البرهان٢: ٣٨٨.

عليهم مراقبة اقوالهم ومجادلاتهم كي لا تؤدي إلى العداء والخصومة فيما بينهم:

يخطأ أحد الخطباء وهو على مِنبر الخطابة لدى توضيح آية كريمة أو حديث شريف أو إلقاء بيت شعري، ثم يغادر منبره بعد نهاية خطابه ويجلس عدة دقائق للاستراحة بين صفوف المستمعين، فيقوم اليه احدهم فيتكلم بحق حول خطأ الخطيب، فماذا سيكون رد فعل الاخير؟

اذا تقبّل كلام المستمع وشكره على انتقاده، فانه قد قام بمسؤوليته الإنسانية والإسلامية على أحسن وجه يستحق التقدير والثناء عليه.

واذا لم يطق الانتقاد الصحيح المحق واعتلاه الغضب واتخذ لنفسه حالة دفاعية وهاجم المتكلم ببيانه البليغ وهزمه ورده على اعقابه خجلاً من الناس، فهذا يعد جدل غير مشروع يثير الضغينة والعداء، وقد منعه الإسلام وحذّر منه.

وليس فقط على الخطيب ان يلتزم الصمت اذا كان هو مخطئاً والمستمع محقاً بإنتقاده، ويمتنع عن الجدال، بل يوصي الإسلام أيضاً ان يتجنب الخطيب الجدل اذا كان هو محقاً وانتقاد المستمع في غير محله.

عن النبي صلّى الله عليه وآله:«*لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يدع المراء والجدال وإن كان محقاً*»[١٧] .

ففي الجدال العدائي يحاول كل طرف من طرفي النقاش وبدافع غريزة حب الذات ان ينتصر على صاحبه ويلحق به الهزيمة، وهذا بحد ذاته عامل من العوامل المهمة في اثارة العداء وتأجيج الخصام.

عن الإمام أبي الحسن الهادي عليه السلام قال:«*المراء يفسد الصداقة القديمة ويحلل العقدة الوثيقة واقل ما فيه ان تكون فيه المغالبة والمغالبة أس أسباب القطيعة*»[١٨] .

---

(١٧) المحجة البيضاء٥: ٢٠٨.

(١٨) بحار الانوار٧٥: ٣٦٩.

وينبغي بالـواعظ والخطيب المعروف في المجتمع أن يلتفت إلى وجود بعض الافـراد الذين قد يصح ان نطلق عليهم بانهم مرضى البحث والجدال، ورغم قلة معلوماتهم الدينية، فهم يتلذذون في فتح موضوع مع عالم الدين تحت عنوان السؤال الديني، والدخول معه في نقاش وجدال لا طائل منه، ثم التحدث في المجتمع صدقاً أو كذباً عن تفوقهم وانتصارهم وهزيمة مباحثهم

فعـلى الخطيب الديني ان يتجنب البحث مع امثال هؤلاء والخوض في مراء وجدال غير مشروع معهم حتى لو انعكس في المجتمع انه يتهرب من النقاش لخلوه من المعلومات، وهذا السلوك الحكيم الذي يرضي الله تعالى هو مصداق للرواية التالية عن الإمام الحسين بن علي عليهما السلام:

روي ان رجلًا قال للحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام: «اجلس حتى نتناظر في الدين، فقال: يا هذا انا بصير بديني مكشوف على هداي فان كنت جاهلًا بدينك فاذهب فاطلبه، مالي وللمماراة وان الشيطان ليوسوس للرجل ويناجيه ويقول ناظر الناس في الدين لئلا يظنوا بك العجز والجهل»[١٩].

(١٩) مستدرك الوسائل٢: ٩٨.

الفصل الرابع عشر

«لا تطلُب الصَفا ممَن كَدرْتَ
عليه ولاَ النُصحَ ممن صَرفتَ
سُوء ظنـك اليه فانَّما قلبُ
غيرك لك كقلبك له».

الامام العسكري(ع)

الخطيب وإيصال مفاهيمه

من الأمـور ذات الاهمية الفائقة في فن الخطابة والتي تستند عليها أساس جلسات الخطابة، هي القدرة على ايصال المواضيع التي يتحدث بها الخطيب إلى اذهان المستمعين.

وعلى الخطباء ان يكونوا متمرسين مقتدرين من الكلام وقادرين على البيان في الجوانب الدينية والعلمية والقضائية والسياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية والاخلاقية وغيرها، ليستطيعوا من توعية المستمعين باهدافهم، وافهامهم بما جرى تنظيمه في اذهانهم، واذا لم يتحقق هذا الهدف ولم يدرك المستمع هدف الخطيب، فان عقد المجلس سيصبح لغواً من القول لا طائل منه.

ومن الطبيعي انه ليس من المشكل افهام مادة الخطبة إن كانت يسيرة قابلة للهضم، ولكنه يصبح عسيراً في حالات البحوث المعقدة، واكثر صعوبة حينما يكون موضوع البحث مسألة علمية دقيقة.

ولبلوغ هذا المقصد الاساسي يلزم بالخطيب ان يحقق ويتدارس ويبحث ـ ما استطاع على ذلك ـ ويتعلم السبل الكفيلة للتوضيح المقصود وافهام موضوع البحث التي يستطيع ان يستخدمها عملياً وهو على منبر الخطابة، ويتمرس عليها جيداً حتى يتمكن منها واحدة واحدة وينفذها عند الضرورة ليحصل على النتيجة المطلوبة.

وفي هذا الفصل سنتناول بعض السبل النافعة التي تساعد على إيصال مفاهيم الخطيب، وتعرف المستمعين على هدف المتكلم.

الكلمات الإنسيابية

الوسيلة الاولى لإيصال مفهوم الكلام هي مراعاة انسيابيته، وقد وضحنا في مبحث الفصاحة انه ينبغي بالخطيب ان يتجنب استخدام المفردات الغريبة والكلمات المعقدة، واستعمال الفاظ يسيرة الفهم على العامة في بناء الجمل والعبارات، لا يتوقف عندها المستمع لادراك معانيها ولا يغوص في ذهنه بحثاً عن مفهومها.

ويمتاز القرآن الكريم الذي أُنزل لهداية الناس بهذه الخصيصة وعباراته مفهومة للجميع، وقد اشار الله تبارك وتعالى إلى هذه الميزة في كتابه الكريم، وقال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾[1].

الجمل القصيرة

من الطرق الاخرى في توعية المستمع بهدف الخطيب، هي الجمل القصيرة والتقليل في الفاصل بين المبتدأ والخبر، واذا طالت الجمل احياناً فيجب ان لا يقطع طول الكلام العلاقة بين اللفظ والمعنى.

فمثلاً يقول الخطيب: المسلم لا يكشف سر المسلم، ولا يمزق استاره، ولا يخونه في الامانة، وبخلاصة فان مَن كتابه القرآن الكريم ودينه الاسلام لا يرتكب خيانة

---

(١) القمر: ١٧.

ازاء اخيه في الدين.

لاحظوا، ان الجملة الرابعة اطول من الجمل الثلاث الاولى الاّ ان طولها لا يقطع الرابطة بين اللفظ والمعنى ولا يفقد المستمع تبعاً لذلك سلسلة الحديث.

وقد جاء في القرآن الكريم وأحاديث ائمة الاسلام عبارات وجمل من هذا القبيل لا تحدث ارباكاً في فكر المستمع ولا تحول بينه وبين فهم مراد المتكلم.

المقايسة والمقارنة

المقارنة هي من جملة الاساليب التي يستطيع الخطيب من خلالها أن يوضح بحثه للمستمع ويكشف له عن الحقيقة ويبين القِيَم، وقد استعمل القرآن الكريم هذا الاسلوب مراراً وفي آيات عديدة.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الاعْمى وَالبَصيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ والنُّورُ﴾[٢].

وَيمكن اِستخدام عملية القياس والمقارنة في جميع القضايا الدينية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية وغيرها، للخطيب الاسلامي على منبر الخطابة او لسائر المتكلمين في جميع الحالات، وتوضيحاً لذلك نذكر باقتضاب عدد من تلك الحالات.

الإسلام والمساواة

ان قضية العنصرية هي نتاج الافكار اللاانسانية التي كانت سائدة قبل الاسلام ولا زالت تحكم بعض العقول وحتى المتعلمة والمثقفة منها في مناطق من العالم، وهي مصدر الكثير من الظلم والمفاسد الاجتماعية.

وقد كافح الدين الإسلامي المبين ومنذ بزوغ نوره هذا الفكر الباطل، ونظر إلى جميع بني البشر من أي عنصر أو لون كانوا نظرة انسانية واحدة، ومنحهم حقوقاً

---

(٢) الرعد: ١٦.

متساوية، واليوم وبعد اربعة عشر قرناً نشهد هذا البناء المقدس جلياً في المسجد الحرام في موسم الحج، ويشارك المسلمون على اختلاف طوائفهم وعناصرهم بنحو متساو في صفوف الجماعة دون تمييز بين شخص وآخر امام الله تعالى.

المقارنة

لكي نعي جيداً الخطوة الكبيرة التي خطاها الإسلام عندما اشرق على الدنيا، ونقف عند حدود الفصل العنصري الذي يسود عالم اليوم، نعقد مقارنة بين موقفين.

كان الإمام علي عليه السلام جالساً في المسجد وهو يقضي بين الناس اذ جاءه جماعة معهم اسود مشدود الاكتاف. فقالوا: هذا سارق يا أمير المؤمنين، فسأله ثلاث مرات عن التهمة فاعترف ثلاثاً، فأمر عليه السلام بقطع يده، فقطعت يمينه فأخذها بشماله وهي تقطر دماً، فاستقبله رجل يقال له ابن الكوّاء [وكان خارجياً] فقال له: يا أسود من قطع يمينك؟

فأخذ الرجل يكيل المديح والثناء إلى الإمام علي عليه السلام، فأخبر الإمام بالامر، فالتفت أمير المؤمنين عليه السلام إلى ولده الحسن وقال: «*قم هات عمك الاسود*»[٣].

لاحظوا ان الإمام علياً عليه السلام وهو على قمة الدولة الاسلامية يأمر ولده الإمام المجتبى بالقيام والبحث عن عمه الاسود والمجيء به إلى المجلس.

ولاحظوا الموقف التالي:

«قبل عدة سنوات شاءت الأقدار ان تصطدم السيارة التي كانت تقل فريقاً لكرة السلة لكلية خاصة بالسود في احد الطرق الرئيسية جنوب امريكا، وادّى هذا الحادث إلى اصابة ثلاثة من اعضاء الفريق بجروح خطيرة، ولم تمر دقائق حتى وصلت مكان الحادث سيارة اسعاف، لكن سائقها الذي كان

---

(٣) بحار الانوار٤٠: ٢٨٢.

أبيض اللون قال بلهجة خشنة انه لم يعتاد على مساعدة السود، ثم غادر المكان. وبعد مدة وصلت سيارة خاصة بأحد محبي الخير الذي قام بنقل الجرحى وبسرعة إلى أقرب مستشفى، لكن الطبيب الخفر قال بلهجة عدائية: اننا لا نستقبل السود في هذا المستشفى، فاضطر المشرف على الفريق إلى نقل الجرحى إلى مستشفى خاص بالسود تبعد عن المكان خمسين ميلاً. وعندما وصل بهم إلى هذا المستشفى كان احد الجرحى قد فارق الحياة وتبعه الآخران بعد ٣٥ و٥٠ دقيقة.»[٤].

ان مقارنة سريعة بين كلام الإمام علي عليه السلام رئيس الدولة الإسلامية قبل اربعة عشر قرناً وبين الموقف الظالم والسلوك اللاانساني لسائق سيارة الاسعاف وكذلك الكلام العدائي للطبيب الخفر في المستشفى وعدم ادخال المجروح إلى المستشفى، يكشف للمستمع عن هذه الحقيقة، وهي ان الدين الإسلامي المقدس قد رفع من مكانة الانسان منذ القرون الماضية وفي عالم متخلف وكرّم بني الانسان، بينما تعتدي امريكا الحالية ومع كل ما شهدته من تطور في العلم والصناعة على حقوق الإنسان الاسود عنصرية منها وتسحق قيمته الإنسانية لا لذنب ارتكبه ولكن لسواد لونه.

واستخدم الإمام علي عليه السلام أيضاً اسلوب القياس والمقارنة لمعرفة منزلة المعنويات والقيم الايمانية، وخاطب مستمعيه في إحدى كلماته بالقول:

«واعلموا انكم لن تعرفوا الرشد حتى تعرفوا الذي تركه ولن تأخذوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نقضه ولن تمسكوا به حتى تعرفوا الذي نبذه»[٥]

والإمام العسكري عليه السلام قارن بين قلب المستمع مع الاخرين لكي يهديه ـ اي السامع ـ إلى طريق السعادة وينبهه لمسؤولياته الاخلاقية.

---

(٤) (صرخة السود): ٣٥.

(٥) نهج البلاغة: الخطبة ١٤٧.

قال عليه السلام للمتوكل: «*لا تطلب الصفا ممن كدرت عليه ولا النصح ممن صرفت سوء ظنك اليه فانما قلب غيرك لك كقلبك له*»[٦] .

مقارنة الايام

كثيراً ما استخدم الائمة عليهم السلام أُسلوب القياس والمقارنة في تربية الناس وهدايتهم، واستعملوا هذا العامل في حالات مختلفة واشكال متنوعة لاعطاء زخم من الوعي للغافلين والاخذ بأيديهم إلى طريق السمو والتكامل، ومنها المقارنة بين الايام.

عن الإمام أبي عبدالله عليه السلام قال: «*من استوى يوماه فهو مغبون ومن كان آخر يوميه خيرهما فهو مغبوط ومن كان آخر يوميه شرهما فهو ملعون ومن لم ير الزيادة في نفسه فهو إلى النقصان ومن كان إلى النقصان فالموت خير له من الحياة*»[٧] .

فالامـام الصادق عليه السلام يقارن في الحديث اعلاه بين ايام العمر، لان الدنيا للانسان هي بمنزلة سوق للتجارة، وعمره رأسماله الذي بيديه، والبضاعة التي يتـاجـر بها بعمره هي الايمان والكفر والفضائل والرذائل والحق والباطل ... الخ. فيبحث البعض عن البضاعة ذات الجودة العالية، ويستثمر رأسماله (عمره) في تجارة نافعة لن تبور، بينما يلهث البعض خلف البضاعة الرديئة (هوى النفس) ولن يجني من تجارته الا الضرر.

مقارنة الاعداد

شاع في العالم المعاصر اسلوب المقارنة في الامور المختلفة، وقامت الكثير من

---

(٦) بحار الانوار٧٥: ٣٨٠.

(٧) معاني الاخبار: ٣٤٢.

البلدان باصدار نشرات احصائية خاصة، فلكي يطّلع الشعب ـ مثلاً ـ على ارتفاع او انخفاض الانتاج الزراعي والحيواني والصناعي والاحداث الجنائية وغيرها، تستخدم طريقة المقارنة بين ما تقوله الارقام في كل سنة عما كانت تشير اليه في العام السابق أو قبل عشرة أعوام، وبطريق الاحصائيات السنوية يتعرف افراد الشعب على اوضاع البلد. وقد تهز المقارنة بين بعض الارقام المجتمع بشدة أو تُلقي حزناً ثقيلاً على الناس.

«كتب الدكتور آدولف هود مؤلف كتاب (البشرية المضطربة) في احدى الصحف الالمانية قائلاً: (اربعة الاف مليار دولار ميزانية التسابق التسليحي العالمي في السنوات العشر القادمة)، لماذا لا يعي العالم على نفسه، ولم لا ينفق هذه الاموال على التربية والتعليم ومكافحة الفقر؟ الا يمكن طرد فكرة الحرب من ذهن البشر بهذه الاموال؟ لماذا لا تستيقظ البشرية؟ ولماذا تفكر ليلاً ونهاراً بالاستعداد للحرب؟» .

واليوم، فان الميزانية العسكرية تفوق بكثير ميزانية التعليم العام، وتقول الامم المتحدة ان معدل ما يكلفه جندي واحد في العام الواحد يبلغ ٧٨٠٠ دولار، بينما لا يتعدى متوسط كلفة التعليم السنوي لطفل واحد عن المائة دولار، فاي عالم هذا؟[٨]

وأي عالم هذا الذي نعيش فيه الآن، اذا علمنا ان الاحصائيات الانفة حول متوسط كلفة الجندي في السنة ومعدل الميزانية التعليمية لطفل في العام الواحد تعود إلى ثمانية عشر عاماً مضت!

واذا قامت الامم المتحدة بوضع احصاء جديد عن معدل النفقات على جندي واحد في العام الواحد ومتوسط ما يستهلكه الطفل من نفقات في التعليم لنفس العام، لرأينا ان الفارق لا يزال كبيراً كما كان عليه سابقاً إن لم يزدد سوءً الامر،الذي يحز في القلب ويؤلم الضمير.

---

(٨) صحيفة كيهان: ١٩٧٢/٥/١١.

وتعطي عملية المقارنة في بعض الحالات وعياً وانتباهاً خاصاً وتترك اثراً عميقاً نافذاً لا يستطيع ان يتركه أي منطق قوي وبيان استدلالي.

يروي التاريخ ان السلطان محمود الغزنوي سجلت له في الحروب فتوحات كثيرة، وقد قرر يوماً التوجّه إلى الهند لمحاربة عبادة الاصنام وعبّادها بوصفه جهاد شرعي، فنفذ قراره عملياً، وخاض معارك طويلة فتح على أثرها الكثير من المدن.

وقد فتح محمود الغزنوي بلداً فجاء اهلها يطلبون منه ان لا يكسر أصنامهم وعرضوا عليه مالاً عظيماً، فاستشار بعض خاصته، فاشاروا عليه ان يبيعها لهم، إلّا واحداً قال له: اتريد ان يقال بعدك ان ابراهيم عليه السلام كاسر الاصنام ومحمود بائع الاصنام، ففعلت هذه الكلمة في نفسه فعلاً رفض به ما كان محتاجاً اليه من تلك الكنوز التي عرضوها عليه[٩].

لقد وضع هذا المستشار تحطيم إبراهيم الخليل للاصنام إلى جانب بيع السلطان محمود لها، وقدّمها إلى السلطان بهذه الثنائية، فاثرت هذه المقارنة الذكية في السلطان وحركت ضميره وغيرت افكاره كليةً، وحصل ان قرر سريعاً رفض هذا العرض ولم يبال بالمال الذي كان في اشد الحاجة اليه.

وخلاصة القول: يستطيع الخطيب وبطريق القياس والمقارنة ان يوصل مغزى حديثه ومفهوم موضوعه إلى اذهان المستمعين ويأخذهم إلى هدفه. وطبيعي فان المقارنة ستكون ذات تأثير اكبر كلما كانت أقوى وافضل.

التشبيه والمثل

من الطرق الأُخرى التي يتمكن الخطيب من خلالها تقريب الموضوع إلى ذهن المستمع ويصور له هدفه هو التشبيه والمثل. فما اكثر المواضيع والمفاهيم المشكلة والمعقدة التي لا يمكن حلها كما هو مطلوب بطول الكلام والشرح والتوضيح، الّا انها

(٩) درس اللغة والادب: ٢٠٨.

تتضح للمستمع تماماً حتى لا يبقى فيها مجالٌ للغموض والابهام بمثال واحد فقط.

وقد جاء في القرآن الكريم وفي الاحاديث الشريفة الكثير من الامثال والتشبيهات لتقريب القضايا الدينية إلى الذهن وتوضيح المسائل التربوية، نتطرق إلى بعضها في هذا الفصل.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(١٠).

وذكرت احتمالات عديدة لكلمة (طيبة): كلمة التوحيد (لا اله الاّ الله)، القرآن الكريم، كلمة العدل، كلمة الحق وكل كلام امر الله تعالى به من الطاعات.

ويمكن القول ان جميع هذه الاحتمالات التي وردت في كتب التفسير تعود إلى حقيقة واحدة، وهي التوحيد أو دين الحق والعدل الذي قدمه الله تبارك وتعالى للانسانية في القرآن الكريم.

فجذور الشجرة الطيبة راسخة في الارض وفروعها صاعدة عن الارض إلى الجو، تعطي ثمارها في فصل معين كل عام ليستمتع ويتلذذ الناس بطعمها ومذاقها.

اما الكلمة الطيبة أو الشريعة الإلهية فهي ذات الشجرة المثمرة، غير ان الفارق مع تلك هي ان جذورها مستقرة في قلوب المؤمنين وثابتة في صدورهم بينما نشرت فروعها في اعنان السماء ووسعت جميع اتباعها تحت ظل الرحمة الوارفة فيها.

اما ثمارها وهي العدل والحق والانصاف والامن والاطمئنان وعناصر السعادة الاخرى فلا تختص بفصل محدد، بل ان ثمارها تعود بالفائدة على الناس في كل يوم وساعة، ويقطف المجتمع ثمار هذه الشجرة المقدسة بشكل دائمي.

وهذا المثل جاء في القرآن الكريم لينطبق على المؤمنين المسترشدين بدين الله حقاً وحقيقة، وفي المقابل ، ذكر مثل آخر للكافرين.

---

(١٠) ابراهيم: ٢٤ و٢٥.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّيْهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[١١].

ووردت لكلمة الكافر في القرآن الكريم والاحاديث الشريفة معاني عديدة، وذكر الراغب في المفردات تفصيلاً لمعنى (الكفر)، اما العلامة الشيخ الطبرسي فقد عَرَّف الكفر بعبارة قصيرة، وقال:

الكفـر في الشرع عبارة عن جحد ما اوجب الله تعالى معرفته من توحيده وعدله ومعرفة نبيه وما جاء به من اركان الشرع ومن جحد شيئاً من ذلك كان كافرا[١٢].

مثال:

قال العظيم: ﴿وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ﴾[١٣].

استخدم الباري تعالى في هذه الآية الكريمة كلمة الكفر وصفاً لمن ترك الحج، وينقل تفسير مجمع البيان في ذيل هذه الآية عن ابن عباس القول:

«ومن كفر» معناه ومن جحد فرض الحج ولم يره واجباً.

هناك عدد كبير من المسلمين لهم اراء معارضة لبعض المقررات المحسوم امرها في الاسـلام الخـاصة بالامور الاقتصادية كالملكية الفردية وحرمة الربا، أو الخاصة بالشؤون العبادية كوجوب الحج أو غيرها من الاحكام المماثلة، ويتبعون في الباطن تلك الآراء والافكار الذاتية، رغم انهم يؤدون الصلاة اليومية ويلتزمون بصيام شهر رمضان ولا يتخلفون عن ظواهر الشرع ويقومون بأعمال الخير، وكلهم امل بغد سعيد يُكافئون فيه على ما عملوه من خير في هذه الدنيا.

---

(١١) النور: ٣٩.

(١٢) تفسير مجمع البيان١: ٤٣.

(١٣) آل عمران: ٩٧.

وقد ضرب القرآن الكريم لهذه الفئة مثلاً جسّد فيه بنحو رائع يجتذب الانتباه خطأهم الفكري حيال آمالهم العريضة والذين كفروا أعمالهم كسراب .....

تتمسك الفئة المذكورة بأعمالها طوال العمر، متصورة انها ستنجيها يوم القيامة، لكنها ما إن تقف للحساب في ذلك اليوم إلى جانب أعمالها تلتفت واذا اعمالها كسراب لا يدفع عنها العقاب ولا يخلصها من شيء، بل تؤاخذ عليها وتحاسب على القيام بها.

في الآيتين الكريمتين المذكورتين آنفاً، ضرب الله تبارك وتعالى مثلين، أحدهما للمؤمنين بكلمة (طيبة)، والآخر للمخالفين للاحكام الإسلامية الصريحة المنحدرين إلى الكفر، فالمجموعة الاولى تنعم بعطايا الله الجزيلة، والثانية أعمالها الخير كسراب...

الاحاديث الشريفة هي الأُخرى استخدمت المثل لإيصال المفهوم إلى ذهن المستمع:

عن النبي صلّى الله عليه وآله: «*مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى*»[١٤].

يكشف هذا التمثيل عن أسمى درجات الارتباط والتعاضد في المجتمع الإسلامي.

قال الإمام ابو عبدالله الصادق عليه السلام: «*يابن جندب ان عيسى بن مريم عليه السلام قال لاصحابه أرأيتم لو ان احدكم مرّ بأخيه فرأى ثوبه قد انكشف عن بعض عورته أكان كاشفاً عنها كلها أم يرد عليه ما انكشف عنها، قالوا بل نرد عليها. قال: كلا بل تكشفون عنها كلها، فعرفوا انه مثل ضربه لهم، فقيل يا روح الله وكيف ذلك؟، قال: الرجل منكم يطّلع على العورة من أخيه فلا يسترها*»[١٥].

لقد احتوى هذان الحديثان على مثلين تربويين، ففي الرواية الأُولى شبّه الرسول الاكرم(ص) الرابطة التشريعية والتربوية بين المسلمين بالتلاحم التكويني

---

(١٤) ميزان الحكمة٩: ٤٥.

(١٥) تحف العقول: ٣٠٥.

بين اعضاء جسم واحد، مما جعل الانسان المسلم يفهم ان البلاء الذي يقع على المؤمن يجب ان يؤثر في مجتمع المؤمنين ليحملوا معه قسطاً من الالم والبلاء مثلما يسهر الجسم وتصاب اعضاؤه بالحمى حينما يصاب عضو واحد فيه بمرض.

وفي الرواية الثانية، نقل الإمام الصادق عليه السلام عن السيد المسيح ان كشف سرّ الاخ في الدين يماثل عملية الكشف الكامل عن عورة الاخ من الابوين وهو مستلقٍ في مكان ما وقد انكشفت بعض عورته لانكشاف ثوبه.

اذن: لو استطاع الخطيب ان يصب موضوع بحثه في قالب الامثلة والتشبيهات ومن ثم يقدمه إلى المستمع بهذه الصياغة، لتمكن من إيصال القضايا المشكلة إلى اذهان المستمع وبالتالي توضيح هدفه اليه.

ولجلال الدين محمد البلخي في كتاب المثنوي الكثير من الامثال والتشبيهات التي نظمت بشكل أبيات شعرية أو منها مجموعة أبيات شبّه فيها الشاعر الميول النفسية والغرائز الحيوانية بالكلاب الوحشية، ويستطيع الخطيب ان يقتبس هذا التشبيه ويقول مثلاً لمستمعيه:

غرائزنا الحيوانية في الحالات الطبيعية تكون صامتة راقدة كالكلاب الساكنة، وتحصل الاثارة والاهتياج حينما يبدو للغرائز صيد أو للكلاب لقمة شهية، عند ذاك تدخل الكلاب في معركة وكلٌ يسعى بالقوة باختطاف تلك اللقمة والاستئثار بها واخفائها عن الاخرين.

فإذا أَراد الانسان ان يستحوذ على صيده مثل الكلب، ويشبع ميله إلى الشهوة الجنسية وحب المال والغضب دون مراعاة للحق والانصاف، فانه لن يختلف عن الكلب الاّ بصورته، اما لو سيطر على غرائزه ولم يتعد حدود العدل ويُؤْثر في بعض الاحيان الآخرين على نفسه بدافع حب الغير، فهو انسان حقيقي يتسم بالاخلاق والسجايا الانسانية.

الرد على الاسئلة

التشبيه هو من الطرق التي يستطيع الخطيب استخدامها في الإجابة على أسئلة المثقفين وغيرهم واقناع السائل بها. ولا بد من مراعاة ملاحظتين في التشبيه والمثل.

اولاً: ان ينطبق المثل على الممثل تماماً حتى لا يستطيع السائل بعدها من نقضه.

ثانياً: ان تقتبس مادة المثل من شيء يفهمه السائل جيداً لا تبقى معه أي زاوية مبهمة له، ولمزيد من الإيضاح انقل بعض المواقف والتجارب الشخصية المتبقية في ذاكرتي لما لي من باع طويل بطول سنوات تجربتي في هذا المجال، حيث أجبت على اسئلة كثيرة كان بعضها يستهدف الاساءة للدين الحنيف، جاءت نتائجها مفيدة ومثمرة، ولا بد من ملاحظة اقولها هنا وهي ان الاسئلة والاجوبة التالية حصلت في السنوات التي سبقت إنتصار الثورة الإسلامية:

اولاً: دعاني إلى منزله احد التجار وكان قد انهى دراسته في الاقتصاد خارج البلاد وعمل لسنوات في التصدير،للمشاركة في حفل زواج ابنته واجراء مراسيم عقد القِران .. أجبت الدعوة وذهبت إلى منزله في الساعة المقررة، ولم يكن عدد المدعوين يتجاوز العشرين نصفهم من كبار الضباط حيث كان العريس ابن احد امراء الجيش. وبعد نصف ساعة ذهب والد العروس برفقة مسؤول مكتب الزواج الذي دُعي هو أيضاً لتسجيل العقد إلى المبنى المخصص للنساء من اجل القيام بالمراسم المطلوبة، فوكلتني العروس ووكله العريس لاجراء صيغة العقد.

فابتدأت المراسم بخطبة قصيرة باللغة العربية ثم جرت عملية القبول والإيجاب بلغتنا مرتان، ثم قرأنا صيغة الزواج بالعربية لعدة مرات وتمت اجراءات العقد ووزعت المرطبات والحلوى على الحاضرين.اثناء عملية التوزيع، سألني أحد الضباط وكان قد اصغى بدقة إلى مراسيم اجراء العقد: لماذا لم تُجر العقد بلغتنا؟

أجبت: لِمَ، قرأت صيغة العقد بلغتنا مرتان.

قال: ما أقصده هو انك لم تكتفِ بذلك بل استخدمت العربية أَيضاً.

قلت: لا بد من ان يجرى العقد باللفظ العربي حينما يتيسر ذلك طبق فتاوى الفقهاء.

قال: اننا مسلمون، لكن لغتنا هي غير العربية، فعليه يجب ان نجري العقد بلغتنا ونصلي بلغتنا أَيضاً.

اجبت: ليس من المناسب ان يكون مجلس العقد محلاً لمثل هذا النقاش.

قال: على العكس، هو مناسب جداً لذلك، لِمَ اجريت العقد بالعربية؟

قلت: أأنك مصر على موقفك وتريد الجواب؟ قال: نعم.

اجبت: أن القرآن وهو كتاب الإسلام السماوي نزل باللغة العربية، ولا بد ان تكون الأمور الرئيسية في الدين باللغة العربية.

قال: لا أفهم، القرآن عربي هذا في محله، اما واننا لسنا بعرب فعليه يلزم بنا ان نصلّي بلغتنا ونعقد القِران بلغتنا أَيضاً.

قلت: بالاضافة إلى قوميتنا، توجد في بلدنا قوميات أُخرى من العرب والاتراك والاكراد والبلوش وغيرهم، ويحق لي ان أسأل الآن: بكم لغة يُتلى النشيد الوطني لبلدنا؟

قال: بلغة قوميتنا فقط.

سألت ثانية: لم هذا التخصيص، ولِمَ لا يُقرأ النشيد الوطني بلغات عديدة؟

أجاب: يُنشد باللغة الرسمية فقط.

قلت: انك تمنح الحق لأربعين مليوناً هم سكان هذا البلد بامتلاك لغة رسمية، وتقول يجب ان يُقرأ النشيد الوطني باللغة الرسمية، لكنك لا تعطي الحق لمليار مسلم في العالم ومن مختلف الالسنة والقوميات بامتلاك لغة رسمية في شؤون الدين، وان يتلفظوا بالعربية وهي لغة القرآن في صلاتهم اليومية وهي أرقى نشيد ديني، وتقول اننا مسلمون ولغتنا هي غير العربية ولا بد ان نصلّي بها!

ترك هذا التشبيه في الحاضرين أَثراً عميقاً، وخيّم على المجلس صمت عجيب،

واستغرق الضابط الذي كان يشغل منصباً مهماً في الجيش في تفكير عميق لعدة لحظات، ثم قال: لقد فهمت، ارجو المعذرة.

ثانياً: تناولت من على منبر الخطابة في مجلس كان معظم حاضريه من المثقفين، موضوع الشعور بالمسؤولية وواجب كل فرد من افراد المجتمع ازاء الاخرين، واستنتجت من حديثي بان اجواء المجتمع الذي يصدق اعضاؤه في القول ويسلكوا سيرة حسنة في العمل ويتعاملوا مع بعضهم بحسن ظن، هي اجواء سليمة تحمل جزيئاتها عطر السعادة والهناء يعيش الناس فيها عيشة راضية ويوظفون طاقاتهم في قنوات الخير والصلاح فيعود عليهم بالنفع والفائدة.

والعكس صحيح أيضاً، فان اجواء المجتمع الذي تطبع الخطيئة كل حركات افراده وسكناتهم واقوالهم وافعالهم، وينظر كل منهم إلى الآخر بسوء ظن، هي اجواء بائسة تتراكم فيها سحب الشقاء التي تخيّم على الناس وتجعل من حياتهم مريرة وبالتالي تطلق طاقاتهم فيما لا طائل منه ولا فائدة فيه من مجالات انحرافية، وقد قال الامام علي عليه السلام عن شخص كهذا أو مجتمع كهذا:-

«اسوء الناس حالا من لم يثق بأحد لسوء ظنه ولم يثق به أحد لسوء فعله»[١٦] .

ومن اجل ان يتضح لدى المستمعين أهمية العمل الصحيح والدقيق في الإسلام، تطرقت باختصار في ختام البحث إلى وفاة سعد بن معاذ ودفنه وقلت:

لما مات الصحابي سعد بن معاذ ، قام رسول الله صلّى الله عليه وآله وقام اصحابه معه فأمر بغسل سعد وهو قائم على عضادة الباب، فلما حنط وكفن وحمل على سريره تبعه رسول الله صلّى الله عليه وآله بلا حذاء ولا رداء، ثم كان يأخذ السرير مرة يمنة ومرة يسرة حتى انتهى به إلى القبر، فنزل رسول الله صلّى الله عليه وآله حتى لحدّه وسوّى عليه اللبن وجعل يقول: ناولوني حجراً ناولوني تراباً، فسد ما بين اللبن، فلما ان فرغ وجثا التراب عليه وسوى قبره قال رسول الله(ص): *«اني لأعلم انه*

---

(١٦) ميزان الحكمة: ٦٢٨.

سيبلى ويصل اليه، ولكن الله عزّ وجلّ يحب عبداً اذا عمل عملًا احكمه»[١٧].

انتهت الخطبة فنزلت من المنبر وجلست على كرسي بجانبه بانتظار ان يغادر جموع الحاضرين ويفسح المجال للخروج، فاذا احد المستمعين يتجه نحوي ويسلّم عليّ، ثم تساءل:

ما الفائدة من ملء الشقوق بين الحجر رغم ان الرسول قد قال بنفسه اني لأعلم انه سيبلى ويصل اليه.

أجبت: فائدة ذلك هي التمرن على إحكام العمل وصحته.

قال: وضح اكثر.

فطلبت منه الجلوس، وقلت: قبل أن أُجيب أرجو ان تقل لي ما هي مهنتك؟

قال: وماذا تهمك مهنتي؟

قلت: لعلي اتمكن من ذكر مثال من مهنتك يكون عوناً في الإجابة.

قال: انا جرّاح.

فكرت لحظة، وقلت: من حسن الصدف ان تكون مهنتك عوناً لي في الجواب. وأضفت: لنفترض انك تشغل رئيساً لقسم الجراحين في مستشفى تابع للشرطة، وفي سجنها يقبع مجرمٌ حكم عليه بالاعدام لارتكابه جريمة قتل، في الساعة الثامنة مساءً أُخبر هذا المجرم بانه سيعدم في الرابعة من صباح اليوم التالي لكنه اصيب في العاشرة مساء بمرض ادخل على أثره المستشفى فاتصلت ادارتها بك فوراً ووضعت بين يديك ملف المريض وعقوبته التي سينالها صباح الغد الباكر وطلبت منك ان تجري له عملية جراحية عاجلة.

والآن اتساءل: هل تجري له العملية الجراحية كما هو مطلوب، وتراعي في ذلك جميع الشروط العلمية والصحية رغم انك تعلم بانه معدوم غداً لا محالة حسب رأي المحكمة، ام انك لن تهتم بالاسس العلمية للطب وتقول مع نفسك: ان المريض محكوم

---

(١٧) أمالي الشيخ الطوسي٢: ٤١

بالاعدام، فما الفائدة من مراعاة الشروط الصحية والمبادىء العلمية في العملية الجراحية؟

اجاب: بل سآخذ بعين الاعتبار جميع الاسس العلمية والصحية شأنه في ذلك شأن غيره من المرضى، ولا يتعلق الامر بي بعد العملية الجراحية. ان يُعدم ام لا.

قلت: اذن، الرسول(ص) استهدف هذا المعنى في حديثه الشريف، فاراد ان يركّز في اذهاننا ضرورة الإحكام في العمل والاخلاص اَيضاً في كل الاحوال فان الله عزّ وجلّ يحب العبد الذي يتم عمله ويتقنه.

فابتسم الدكتور الجراح ابتسامة تعبر عن اقتناعه بالجواب وقام مودعاً.

ثالثاً: طلب مني ثلاثة اشخاص بالهاتف تعيين موعد للالتقاء بي ولطرح سؤال ديني يشغل اذهانهم، وحضروا في الموعد المحدد، قال احدهم: اذا استحم المجنب ونظف جيداً دون نية الغسل، فهل يطهر ويسقط عنه الغسل ام لا؟

اجبت: كلا، لم يسقط عنه الغسل.

نظر إلى صاحبه وكان جالساً بجانبه نظرة ذات مغزى، وقال؛ أليست الطهارة هي المقصودة من غسل الجنابة، فما هو وجه اللزوم للغسل طالما ان هذا الشخص قد استحم جيداً؟

اجبت: ان رأي الشارع المقدس هو طهارة المكلف مع نية القربة لا مطلق الطهارة.

قال: ارجو اعطاء المزيد من التوضيح.

سألت: ماذا تشتغل؟

أجاب: انني رئيس دائرة المشتريات في الوزارة الفلانية وهذا زميلي في العمل.. اختلفنا في الغسل، انا قلت ان نظافة الجسم تعوض عن الغسل، بينما قال صاحبي، لا بد من الغسل بعد نظافة الجسم، فجئنا إلى هنا لنحتكم اليك.

قلت: سأُجيبكم بمثال من مهنتكم.

قانون المناقصة

ثم سألت: ما هو المعني بقانون المناقصة الذي يُفترض مراعاته من قبل دائرة المشتريات؟

أجاب: المراد من ذلك هو شراء ما تحتاجه الوزارة باقل كلفة ممكنة.

سألت ثانية: هل هناك ضوابط وقوانين خاصة بالمناقصة؟

قال: نعم، يُعلن عن البضاعة المطلوبة، ويودع المتقدمون مبلغاً من المال لحساب الوزارة ثم تثبت الاسعار المقترحة بشكل سري في اوراق مطوية ليعلن عنها في الموعد المقرر وتفتح جميع الاوراق بحضور من يستلزم حضوره، ويجري اختيار ادنى الاقتراحات المقدمة وتثبيتها وابلاغ الفائز بالمناقصة لتحويل بضاعته واستلام مبالغها.

قلت له: لو راجعكم شخص بعد انتهاء عملية الانتخاب والمراحل القانونية وتحديد اقتراح السعر الادنى وتوقيع الاتفاق، واقترح عليكم بانه على استعداد لتأمين مستلزمات الوزارة بسعر يقل خمسة بالمائة عن ادنى اسعار المناقصة، فهل ستوافقون على مقترحه؟

قال: كلا.

قلت: لماذا، اليس المعني بالمناقصة الشراء بالسعر الادنى؟، وها قد جاء من من يبيعكم بضاعته بسعر اقل من جميع المتقدمين للمناقصة، فتعاملوا معه اذن.

أجاب: نعم، المقصود بالمناقصة هو الشراء بالسعر الادنى، لكنه السعر الادنى الذي يدخل في اطار قانون المناقصة، وليس كل سعر رخيص.

فقلت: كلامك هذا هو جواب لك حول قضية الغسل، فأنت تقول اليس المعني بالغسل هو النظافة، فاذا تنظفت لم تعد هناك اهمية للغسل، والجواب هو ان المقصود بالنظافة هي الداخلة في اطار القانون على حد تعبيرك من خلال نية القربة وطريقتها الخاصة، وليس كل نظافة فغادروا المنزل شاكرين.

رابعاً: دُعيت قبل سنوات طويلة لارتقاء المنبر عصراً في احدى المناطق في مجلس

اقامه احد ابناء المنطقة، فاستأجر لي سيارة أجرة لتنقلني يومياً الى المكان المخصص للمجلس ثم تعيدني إلى المنـزل بعـد انتهائه، وكان سائق السيارة رجلاً ذكياً كثير الاستطلاع، يستفسر طوال الطريق عن أُمور فاجيبه عليها.

ويومـاً سألني: اَحقـاً ما يقولون عن إمكانية اقتلاع عيون الحديثي الوفاة وزرعها في المكفوفين ليعود اليهم البصر ثانية؟

أجبت: لقد سمعت عن إمكانية زراعة احدى طبقات العين وهي القرنية.

قال: وكيف يمكن للمكفوف ان يبصر؟

قلت له: ان معلوماتي لا تزيد عن معلوماتك في هذا المجال، لكنني اذكر لك مثالاً يختص بمهنتك، علّ ان تكون رواية الاعمى هي من هذا القبيل، ويتضح لك الموضوع اكثر.

ان منبّه السيارة يستمد قوته من البطارية عبر الاسلاك، وحينما تضغط على الزر تـقوم في الحقيقة بوصل الاسلاك الامر الذي يطلق صوت المنبه. فاذا عطل يوماً منبه السيارة لاي سبب كان دون ان تصاب البطارية والاسلاك بأي خلل، فانك ستشتري منبهاً جديداً وتستبدله بالعاطل، وتربط الاسلاك ثانية وتضغط على الزر فيَمر التيار ثانية ليُطلق صوت المنبّه الجديد.

كذلك فان البصر يستمد قوته من المخ، ويمثل العصب السلك الرابط والقرنية هي المنبّه، فحينما ترفع القرنية التالفة وتستبدل بأُخرى سليمة، ثم توصل السلاسل العصبية فيعود البصر إلى المكفوف. فلربما كان معنى عملية زرع القرنية هو بالشكل الذي وضحته لك.

ترك هذه المثل في السائق تأثراً كبيراً وعميقاً دفعه للضغط على كوابح سيارته والوقوف بها جانباً، فنزل منها وجلس على الرصيف وقد غرق في الضحك.

قلت له: عد إلى مقعدك وتحرك بنا.

قال: لو قدت السيارة بهذه الحـال فقـد اسبب حادثاً، اتركني لأضحك حتى استعيد وضعي الطبيعي ثم اجلس خلف المقود.

ذكرت هذه الامثلة من اجل ان ابيّن للسادة الخطباء والوعاظ ان بامكانهم تقديم اجوبة شافية كافية مقنعة مقرونة بالمثل والتشبيه لاسئلة السائلين سواء اكانوا من فئة المثقفين أو عامة الناس ، فوق المنابر أو في المجالس الخاصة، بحيث لا تبقى اية نقـطة مجهولة ويتضح الموضوع للسائل وضوحاً كاملاً، وقد ذكرت هذه الامثلة للمستمعين في بعض الاحيان وحسب المناسبة فكان لها اثرها المفيد وتلقاها المستمعون بقبول حسن.

الفصل الخامس عشر

«وأمّا الحوادثُ الواقعة
فارجعوا فيها إلى رواة
حديثنا فانّهم حجتّي عليكم
وأنّا حجة الله».

الإمام المهدي المنتظر(عج)

الخطيب والرد على الشبهات

طرحت في الماضي والحاضر شبهات عديدة حول بعض العقائد الاسلامية، فقام علماء الاسلام بدراستها والتحقيق فيها واجابوا عليها واحدة واحدة بردود مقنعة، وقد جاءت بعض هذه الشبهات وردودها في متون الكتب.

فعلى الخطيب الاسلامي ان يتجنب قدر الامكان طرح بعض الشبهات من على منبر الخطابة، ويبتعد عن الخوض فيها، لان مستويات الحاضرين ودرجاتهم الفكرية والادراكية تتفاوت فيما بينها تبعاً لتفاوت الفئات المشاركة في مثل هذا التجمع العام.

وان اراد الخطيب التطرق الى احدى الشبهات في مجلس عام، فعليه، اولاً: ان يشرح جيداً اصل الشبهة، ثم يوضح اهداف الذين يقفون وراءها، وبعدها يخوض في الاجابة عليها، ورغم هذا فان التطرق الى الشبهات قد يؤدي الى اضرار من جوانب عديدة للاسباب التالية:

أولاً: ربما تستحوذ الشبهة على بعض المستمعين ويستغرق فيها ويقع تحت تأثيرها بشكل لا يعير بعده اهمية لجواب الشبهة وردها، ولا يتابعه بالدقة المطلوبة، فتستقر الشبهة في ضميره ويعتقد بها او ان يظل متردداً مشككاً فيها طوال فترة العمر.
ثانياً: قد يستوعب بعض المستمعين اصل الشبهة استيعاباً تاماً، غير انه لا يفهم الرد عليها بسبب هبوط مستوى الفهم والادراك وتتركز باثر ذلك الشبهة في ضميره.
ثالثاً: حينما يكون بيان الخطيب في الرد على الشبهه ضعيفاً لا يفي بالمطلوب، ولا يستطيع ازالتها من ذهن المستمع، فانه ـ اي المستمع ـ سيعاني من التضاد الباطني ويطوي عمره في نزاع داخلي.
رابعاً: عندما يعدم رد الخطيب الاستدلال والبرهان فانه لا يستطيع اقناع المستمع وبالتالي فان الشبهة ستبقى عالقة في ذهن المستمع الامر الذي سيدخله في متاهات الضلال لمدة أو ربما إلى الابد.
فإذا اضطر الخطيب يوماً إلى طرح شبهة ما ومن ثم الاجابة عليها، فالأولى به ان يوضح في بداية الخطبة جواب الشبهة بوصفه مبحث أساسي ويسلط عليه الضوء الكافي ويبين الموضوع للمستمعين حتى يكونوا قد فهموا جميعاً جواب الشبهة حين طرحها. وهذا الفصل يضم على انموذج لهذا النوع من الخطب، ففي البدء يشرح بالتفصيل جواب الشبهة، ثم يطرح اصل الشبهة على المستمعين.

قوانين التكوين والتشريع

تشكل مجموعة عالم الوجود بكل المجرات والاجرام الكبيرة والصغيرة الكتاب التكويني لخالق العالم الذي وضعه بإرادته الحكيمة.
ويمثل القرآن الكريم بما يحويه من تعالم دينية وقوانين اسلاميه تاب التشريعي لله تبارك وتعالى الذي أنزله بطريق الوحي على رسول الاسلام محمد(ص) وامره بتبليغه ونشره.
وتوجد في كتاب التكوين سلسلة من القوانين والسنن الثابتة تدير هذا العالم

العظيم بنظم خاص وثبات دائم. وقد وضعت هذه القوانين المتقنة منذ ان خلق العالم بمشيئة خالقه الحكيم وستبقى هذه السنن معه طالما هو باق، دون ان تبلى أو تفقد فاعليتها في ادارة عالم الخلقة بمرور ملايين السنين والقرون.

وفي كتاب التشريع توجد أيضاً سلسلة من القوانين والسنن السماوية تنظم عملية بناء الانسان وتضع اسس سعادته في جميع العهود والادوار دون ان تبلى وتفقد اهميتها في تكامل الانسانية ورقيها وتأمين السعادة الشاملة لبني البشر مهما انقضت عليها السنون والاعصار.

وقد استطاع الانسان اليوم وفي ظل التقدم الذي احرزه في مجال العلوم الطبيعية من التعرف على بعض القوانين الثابتة لنظام التكوين التي كان يجهلها الماضون، واستثمرها لتأمن حياة افضل لبني جنسه، وهذه حزمة منها:

سرعة الضوء

احد القوانين الثابتة التي وضعت في عالم الخلقة بارادة الله ولها دور مؤثر في ادارة نظام التكوين هي سرعة الضوء. ففيما مضى كانت هذه السرعة وحركة الضوء مجهولة على الانسان بينما هو توصل اليوم إلى هذا السر، وقاس هذه السرعة، واستطاع بصناعة انواع المرسلات والمستقبلات من استثمار هذه الظاهرة العجيبة، وابصال انباء الغرب إلى الشرق واخبار الشرق إلى الغرب في أقصر مدة، واصبحت الكرة الارضية بفضل هذا التقدم كبيت صغير نزلاءه قريب من بعضهم البعض يعلم كل منهم أوضاع الآخر واخباره.

القانون الثابت

لا يمكن للانسان التلاعب بهذا القانون الإلهي المتقن فيزيد من سرعة الضوء أو يقللها، بل انه استطاع بصناعة اجهزة الاتصالات من استخدام سرعة الضوء استخداماً هامشياً فقط، فقرّب بين سكان العالم واخذ يبث اخباره سريعاً وغيّر بالتالي

وجه الحياة.

الحياة والموت

من جملة القضايا المهمة والمعقدة جداً في كتاب التكوين الإلهي هو قانون الحياة والموت. فالله الخالق يصنع من المواد المعدنية والعناصر الطبيعية الميتة في هذا العالم كائن حي، ثم يميته بعد انتهاء ايام العمر ويحلله، ويعيده ثانية إلى مخازن طبيعته.

قال عزّ اسمه: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾[١].

ان ظهور الكائنات الحية من نبات وحيوان وانسان يقوم في نظام الخلقة على أساس قوانين ومقررات خاصة. فحينما تتوفر الظروف القانونية لظهور كل كائن من الكائنات الحية يخرج حياً، ويموت لما تنتهي الظروف القانونية لحياته.

وقد بُذلت في العالم المتطور الحالي مساع وجهود كبيرة لصناعة موجودات حية، بيد ان هذه الجهود قد باءت بالفشل، تماماً، بل لم تُعرف لحد الان حقيقة الحياة وبقيت هذه الحقيقة لغزاً خفياً محيراً.

«بعد الف عام آخر سيقف الانسان على سر الحياة، الا ان هذا ليس دليلاً على ان الانسان سيتمكن من صنع ذبابة أو حشرة أُخرى أو خلية حية.

وقد كشف عن هذا الموضوع في مؤتمر عقد باسم داروين، واعلن العالم الامريكي البروفسور هانز في ختام المؤتمر ان العلماء سيبحثون ويحققون خلال الالف عام المقبلة حول سر الحياة»[٢].

لقد استطاع الانسان المعاصر من مسايرة قانون حياة الانسان والحيوان الذي وضع في نظام التكوين بالمشيئة الإلهية الحكيمة واحرز بعض النجاح في ذلك.

فقانون الحياة الذي تقتضيه خروج افراخ الدجاج، هو استقرار بيضة ملقحة

---

(١) الروم: ١٩.

(٢) صحيفة اطلاعات: العدد ١٠١٦٠.

تحت اجنحة الدجاجة لتتحول بعد فترة إلى فرخ صغير، وفق هذا القانون استطاع الانسان من قياس درجة حرارة الدجاجة وصناعة مكائن خاصة بالتفقيس بدرجة حرارة مساوية لدرجة حرارة الدجاجة وظروف مشابهة توفر للبيض الملقح الذي يفقس بعد مدة محددة عن فراخ دجاج صغيرة.

فالقانون الثابت في خروج الدجاج هو البيضة الملقحة، حيث تتكون هذه البيضة في داخل الدجاجة ثم تنتقل اليها نطفة الديك، وهذا قانون لا يتغير في نظام التكوين، ولا يستطيع الانسان مهما تقدم في العلم من صنع البيضة ولا هو بالقادر على تلقيحها، فهذا هو قانون الطبيعة، ولا يتحقق الاّ في الاطار الذي رسمته المشيئة الإلهية.

التلقيح الصناعي

سادت عملية التلقيح الصناعي في تحسين أُصول الابقار، وذلك بسحب نطفة ثور من أُصول جيد بنحو اصطناعي وزرقه ثانية في عدد من البقرات لتلقيحها.

وهذا عمل يساير قانون الخلقة في هامشه ولا يعني تغيير هذا القانون بأي حال من الاحوال.

فالتلقيح الصناعي لا يعني صناعة الحيمن والبويضة، بل لا بد من ان يؤخذ هذان العنصران الحيويان والاساسيان في وجود الكائن الحي من النظام التكويني ومن الذكر والانثى.

وقد وجد التلقيح الصناعي رويداً رويداً طريقه إلى الانسان، بان يؤخذ المني من الرجل الذي لا يستطيع الاقتراب من زوجته الشرعية لاي سبب كان، ثم تلقح به المرأة لتحمل منه.

خلاصة الامر فان قانون الحياة في نظام التكوين قانون ثابت لا يتغير، وليس بمقدور الإنسان ان يغيره مهما تقدم في العلم، أو ان يصنع كائن حي صغير كالذبابة مثلاً أو اصغر منها كالحيوان المنوي، ويخرج ظاهرة الحياة عن مسير الإرادة الالهية إلى

طريق جديد خاص به.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾[٣].

قانون الموت

قانون الموت هو الآخر ثابت لا يتغير في كتاب التكوين الإلهي، ولا يستطيع الانسان ومهما طوى من مدارج العلم والتقدم وتسلّط على العلوم الطبيعية من تعطيل قانون الموت في هذا العالم وتأمين حياة أبدية للكائنات الحية في هذه الدنيا.

واقصى ما يمكن لعلماء البشر من تحقيقه هو استخدام معلوماتهم على هامش القانون، وارجاء تحقق ظروف الموت لفترة معينة، والحفاظ على حياة المريض لاشهر أو سنوات أُخرى بتقدم العلوم الطبية.

قانون الجاذبية

من القوانين الاخرى في نظام التكوين هو قانون الجاذبية. وقد وجد هذا القانون منذ ان وجدت الخليقة في هذا العالم وسيبقى ببقاءها، والانسان بدوره وهو ظاهرة من ظواهر الكرة الارضية كان ولا زال وسيبقى واقعاً تحت تأثير هذا القانون ولا يمكن له الانفلات من هذه القوة.

فمنذ ان كان الانسان البدائي يعيش في الكهوف وإلى يومنا هذا حيث يعيش في المدن الكبيرة والبيوت الفارهة، فانه يتحرك باحتياط وحذر حينما يسير في منطقة جبلية مرتفعة كي لا تزل قدمه، لانه يعلم ان زلة القدم تعني السقوط إلى قعر الوادي والهلاك فوراً أو بعد فترة من المعاناة والآلام بسبب الكسور والجروح.

واليوم أيضاً فان الانسان الذي صنع الطائرة بفضل تقدم العلم، فانه يعلم ان

---

(٣) الحج: ٧٣.

قانـون الجاذبية يقف في المرصاد كصياد ماهر، فيجذب الطائرة إلى الارض اذا ما اصيبت في الجو بخلل فني أو انتهى وقودها فيرميها في البحر أو يرطمها بالارض.

كتاب التشريع

مثلما هي قوانـين كتاب التكوين، فان القوانين والسنن التي وضعها الخالق لتأمين سعادة البشرية في كتاب التشريع هي ثابتة لا تنغير في ادارة الخلقة ونظامها. وكما ان تطور العلوم الطبيعية وانتشار الصناعات الآلية لم يغير من قوانين التكوين شيئاً أو يطيح بها، كذلك فان انتشار العلوم وتطور المدنية الصناعية لا يستطيع ان يزيل اهمية قوانين كتاب التشريع ويرفع الحاجة عن الانسان في تطبيق تلك التعاليم.

ان دراسة قوانين كتاب التشريع والتدقيق في تفاصيلها واحدة واحدة يستلزم بحثاً واسعاً متوغلاً لا يستوعبه هذا الحديث المقتضب. ونكتفي هنا بتوضيح بعض مواد سنن التشريع، نأمل ان تفتح الطريق امام القراء لبنودها الاخرى.

العدل

من القوانين المهمة لكتاب التشريع الذي انزله الله تبارك وتعالى والذي لا يبلى بمرور الزمان وإنتشار العلوم ولا يزول، هو قانون العدل قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ والإِحْسانِ﴾[٤].

وقضية العدل لا تختص فقط بقوانين الكتاب التشريعي الإلهي في الاسلام، بل ان اقامة العدل كانت الهدف لاساسي لبعثة جميع الانبياء في جميع الأديان السماوية بصريح عبارة القرآن الكريم.

قال عز اسمه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنا بالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[٥].

---

(٤) النحل: ٩٠.

(٥) الحديد: ٢٥.

فإذا أَرادَ الإنسان ان ينعم بالسعادة في جميع مراحل الحياة، فعليه ان يأخذ بعين الاعتبار قانون العدل حول الصديق والعدو والضعيف والقوي وكل الناس في جميع الحالات، ولا يعتدي على احد أو يظلمه بدافع الهوى والنزوات النفسية، وهذا هو منطق الكتاب التشريعي.

﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلى الاّ تَعْدِلُوا اِعْدِلُوا هُوَ اَقْرَبُ لَلتَّقوى﴾(٦).

نسأل: هل هناك من يستطيع القول ان قانون العدالة في القرآن الكريم جاء لمخاطبة من كان في القرون الماضية فقط، ولا شأن له بعالمنا المعاصر وسكانه؟ وهل يحق ان يقول قائل: اليوم يوم الظلم والعدوان، اليوم يوم الجور والتعدي .. اليوم على الدول القوية ان تفرض هيمنتها على الدول الصغيرة وتعتدي على حقوقها، لان العلوم قد انتشرت وتقدمت واحتلت الآلة مكانها في هذا العالم ووصلت البشرية إلى مستوى عال من الحضارة والمدنية، والعدل الذي جاء به القانون قبل أربعة عشر قرناً لا ينفع هذا العالم المتطور!!؟

قتل النفس

من ا لقوانين الثابتة الأُخرى في كتاب التشريع الإلهي هو النهي عن قتل النفس المحترمة.

قال تعالى: ﴿وَلا تَقْتُلوا النَّفْسَ الَّتي حَرَّمَ الله إلاّ بِالْحَقّ﴾(٧).

نسأل: اهناك من يقول ان قانون حرمة قتل النفس البريئة الذي جاء في كتاب التشريع الإلهي يتعلق بأربعة عشر قرن قبل هذا ولا علاقة له بوضعنا الحاضر من قريب أو بعيد؟.. لقد فقد هذا القانون قيمته في عالمنا المتطور الحالي بتقدم العلوم ونمو الصناعات الآلية فيه، وبات يُعمل بمناقضه في الكثير من الاحيان، ومنها:

---

(٦) المائدة: ٨.

(٧) الاسراء: ٣٣.

يقوم زعماء البلدان المتقدمة بمراقبة منافسيهم السياسيين وملاحقتهم بواسطة وكالات المخابرات والتجسس، وفي فرصة مناسبة وحينما ينوي المنافس السفر بالطائرة كواحد من الناس مع المئات من الاطفال والنساء والرجال، يقوم رجال المخابرات بزرع الطائرة بالمتفجرات قبل تحليقها لكي تنفجر في الجو مع من فيها، والمستهدف هو المنافس، او ان تُفجر في الجو بعد تحليقها بالصواريخ ويُقضى على من فيها في لحظات.

واذا وُجّه السؤال إلى هذا الحاكم الجائر عن سبب قتل كل هؤلاء الناس الابرياء من اجل القضاء على شخص واحد، لأجاب: ان الغاية تبرر الوسيلة!

الخمر والميسر

من القوانين الثابتة الاخرى في كتاب التشريع الإلهي هي حرمة الخمر ولعب القمار.

قال تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾[٨].

يضع العالم الغربي سنوياً احصائيات بالجرائم والجنايات الناجمة عن الخمر ولعب القمار والاعراض الخطيرة الناتجة عنها، وليس بوسعنا في هذا الحديث المختصر من الاسهاب والشرح، ولكن نقتبس عدة جُمل قصيرة في توضيح اضرار الخمر والميسر وما فعلته في تلك المجتمعات من فساد وجرائم:

«حتى عام ١٩٤٩ كانت هناك حانة واحدة لكل ٨٦ نسمة في فرنسا، واليوم فان هناك محلاً واحداً لبيع المشروبات لكل ٦٨ شخصاً.

القضية الاهم هي الوضع المالي للحكومة نفسها التي تحصل خزانتها على ضرائب باهظة من انتاج الكحول وتوزيعه واستهلاكه. وامام هذا الدخل

---

(٨) البقرة: ٢١٩.

ماذا تهم الحكومة افواج المرضى والمجانين والوفيات السريعة واحداث المرور وانخفاض مستوى العمل.

يقول البروفسور برن: ان الحكومة الفرنسية تفكر بحساب دخل يومها، ولا تستطيع ان تأخذ بعين الاعتبار خسارة وعجز الدخل القومي بعد عامين أو خمسة وعشرة. وينظر وزراء المالية في فرنسا إلى التوازن الفوري للميزانية ولم يستطيعوا ان يفكروا بمستقبل مطمئن»[٩].

«عامل يبلغ من العمر ٣٩ عاماً.خسر جميع اجوره الاسبوعية على مائدة القمار، وبالنتيجة ثارت ثائرته وسحب سكينه، فقال له شخص لم يكن ضمن اللاعبين، (جان) ضع السكين جانباً، لكن هذا العامل ادخل السكين في قلبه فوراً»[١٠].

اهتم الاسلام اهتماماً فائقاً للشؤون المالية والاقتصادية، ووردت في ذلك الكثير من الروايات عن الرسول(ص) والأئمّة(ع)، غير ان الاسلام وضع المال في خدمة الانسان وليس العكس، بعبارة ثانية. فان الاصالة للانسان والاقتصاد فرع على ذلك الاصل.

لكن العالم المعاصر اعار اهتماماً مبالغاً فيه لقضية الاقتصاد، حتى اكتسى الاقتصاد رداء الاصالة واصبحت الانسانية ضحية للاقتصاد، وهذا المعنى ذكره الإمام الحسين بن علي عليهما السلام في احد احاديثه.

يقول(ع): *«مالك ان لم يكن لك كنت له»*[١١].

ونظراً إلى الاهمية والقيمة التي يصنعها الاسلام للانسان، فانه حظر لعب القمار وتناول الخمر على الإنسان، لانهما يضران بانسانيته، فيمرض الجسم بأثرهما ويضعف العقل ويخفت وهج الفكر، ويؤديان إلى اثارات وانفعالات ضارة، ويفسدان الاخلاق ويجران إلى ارتكاب انواع الجرائم، وبكلمة مختصرة: فانهما يلحقان اضرار بالانسان

---

(٩) و(١٠) علوم جنائي: ٩٧٠ و٨٤٦.

(١١) بحار الانوار٦٨: ٣٥٧.

وانسانيته.

فالانسان هو الاصل في كتاب التشريع الإلهي، والهدف من التعاليم السماوية هوتأمين السعادة المادية والمعنوية للبشرية وفق قانون التكوين.

والقرآن المجيد يحاول ان يصنع من الفرد البشري انساناً بمعنى الكلمة ويبث فيه مكارم الاخلاق وكل صفات الانسان الحقيقي جنباً إلى جنب الاشباع العادل لغـرائـزه الحيوانية، ويهديه إلى طريق السمو المعنوي، ويوقظ فيه المعرفة الفطرية والضمير الاخلاقي وقوة الذكاء والميول النفسية السامية.

اما في عالم الصناعة الحالي، فقد اصبح الاقتصاد اصلاً، وبات الهدف من الحياة لا يتعدى الالتذاذ الاكثر والاشباع الاكبر للغرائز الحيوانية، وطوى النسيان الابعاد المعنوية والروحية التي تشكل نصف وجود الانسان، ولا يوجد بصيص من الأمل والعمل لإحياء تلك الابعاد.

وفي عالم كالذي ذكرنا حيث غفل الانسان عن بعده الانساني ولف النسيان شأنـه المعنوي وهو الوتد الأساسي في سعادته،وهبط إلى حضيض الحيوانية، ليس عجيباً ان يتوسل بالخمر والميسر للحصول على دخل مالي وتعزيز البنية الاقتصادية، ويلهث وراء لعب القمار ومعاقرة الشراب من اجل اللذة والمتعة، ويغض عن السمو المعنوي والسعادة الابدية، ولا يتورع عن ارتكاب اية جريمة أو يهتم للامراض التي تنجم عن الخمر والميسر.

ومن تحدوه الرغبة إلى السمو المعنوي والتحلي بالسجايا الانسانية، لا ينقاد إلى الممارسات الخاطئة لعالم اليوم، ولا يلهث خلف الخمر والقمار، ولا يبالي بعائداتها الاقتصادية، وبالتالي يذعن إلى ان حكم الحظر والتحريم الذي جاء في كتاب التشريع الالهي هو قانون ثابت لا يتغير.

حرمة الزنا

حرمة الزنا ومقاربة المرأة الأجنبية هو قانون آخر من القوانين الثابتة التي جاءت في كتاب التشريع الإلهي.

قال تعالى:

﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنى إِنَّهُ كانَ فَاحِشةً وَساءَ سَبيلاً﴾[١٢].

فبأثر الزنا يتهرأ حبل المودة والرحمة بين الزوج والزوجة، وينظر إلى اولاد الزنا نظرة سوء، ويرحل الحب والعطف عن الاسرة الواحدة وتتقطع اواصره أو تضعف على اقل تقدير، وبخلاصة: تزول الثقة المتبادلة وينعدم الاستقرار في الحياة وهو عنصر السعادة اذا مورست عملية الزنا من قبل الرجل أو المرأة، وحرمة الزنا في الكتاب التشريعي الإسلامي هي من القوانين الثابتة التي لا تتغير.

الزنا بالعنف

تضع نشرات الاحصاء في عالم اليوم المتمدن الزنا في حقل الجرائم اذا اقترن بارغام المرأة والعنف، غير انه لا يُعد جرماً اذا تم بموافقة الطرفين ورضاهما!، اذن فان عالم اليوم في الحقيقة لا يعتبر الزنا جريمة، بل الجريمة هي سلب الحرية من المرأة.

الإسلام وخلافاً للتصور الآنف وهو باطل لا محالة يعتبر عملية التقارب الجنسي بين الرجل والمرأة الاجنبية جريمة يستحق العقاب عليها كلا الطرفين اذا ثبت لدى محكمة القضاء ارتكابها، سواء جرت العملية بموافقة الطرفين أو بالعنف.

جاءني شخص كان قد اتم دراسته في الغرب لطرح سؤال ديني يشغل باله عليّ، وكان يعرب عن حبه للدين الإسلامي وينوي تطبيق قوانينه وتعاليمه عملياً.

سألني: هل يرتكب الرجل والمرأة معصية اذا مارسوا العملية الجنسية عن رضا خاطر وبلا تهديد أو ضغط؟

اجبته: نعم.

سأل ثانية: وَلِمَ يُعد ذنباً طالما ان العملية تمارس عن تراض بينهما؟

قلت: لان عملية الزنا في الاسلام جريمة بحد ذاتها، ورضا الطرفين لا يغير

---

(١٢) الاسراء: ٣٢.

طبيعة الجريمة.

لمحت فيه انه لم يدرك تماماً ما ذكرته، فاتيت له بمثال يقنعه وقلت:

تصـور ان شخصاً قد انهكته ضغوط مشاكل الحياة ونفد صبره عليها وقرر الانتحار، لكنه لا يمتلك سلاح ناري ليصوبه نحو رأسه وينهي حياته باطلاقة واحدة تريحه، وليس لديه المال الكافي لشراء السم وتناوله، كذلك فانه يفتقر إلى الجرأة في طعن جسمه بسكين ليموت بالنزيف.

غير ان هذا البائس اليائس يعرف شخصاً يمتلك مسدساً يستطيع ان ينقذه من هذا المـازق وينهي حياتـه ويريحه برصاصة واحدة يفرغها في رأسه. فيأتي اليه ويتوسل به ان يمنّ عليه ويخلصه من الجحيم الذي يعيش فيه باطلاقة واحدة، فيرفض صاحبه هذا الاقتراح رفضاً باتاً لانه سيمثل امام المحكمة بعد تنفيذ القتل ويحكم بالاعدام.

فيقـول له المتـطوع للمـوت، انني سأكتب لك بخـطي عن رضاي وسابق تصميمي هذا، واطلب من الحاكم أو القاضي ان لا يلاحقك بسبب قتلي. يأخذ قلماً بيده ويكتب.

السيد الحاكم المحترم: لقد مللت الحياة، واردت الانتحار، ولكني لم اكن امتلك الوسيلة، فطلبت من الشخص الفلاني الذي يمتلك سلاحاً نارياً والححت في الطلب عليه ورجوته ان يقتلني ويخلصني من هذا الجحيم. فرفض اقتراحي ورجائي، واخذت اتوسل اليه وابكي عند رجليه حتى نزل عند رجائي وتوسلاتي ووافق على قتلي بسلاحه.

السيد الحـاكم، لقد قام صاحب السلاح بفضل كبير ووافق على قتلي بعد اصراري الشديد ورجائي المتواصل، فيرجى ان لا تلاحقوه على قتلي وتحاكموه لهذا السبب.

سوف لا يهتم الحاكم أو القاضي سواء أكان امريكياً أو اوربياً أو شرقياً أو غربياً لما كتبه المقتول وهو دليل صريح على رضاه، فيعتقل القاتل وتأخذ القضية

مجراها في المحكمة.

وطبيعة الزنا تماثل في الشرع الإسلامي طبيعة القتل ومن حيث انها جريمة يعاقب عليها مرتكبها، وكما ان جريمة القتل لا ترفع برضا القاتل والمقتول، فان جريمة الزنا لا تمحى برضا الزاني والزانية.

نستنتج من مجموع البحث: ان الله تبارك وتعالى قد امّر في كتابه التكويني أي مجموعة عالم الوجود قوانيناً وضوابطاً من اجل اضفاء النظم على الاجرام والمجرات السماوية لكي يتحرك مصنع الخلقة العظيم في ظل تلك القوانين في المسير المحدد، وباقية هي تلك المقررات حتى انقراض العالم، ولا يستطيع الإنسان بعلومه الطبيعية ومعلوماته الاكاديمية أن يغير في تلك القوانين بمقدار انملة، وانما يمكنه فقط من تحسين وضعه الحياتي بالنسبة التي يجري فيها بعض التغييرات الهامشية ـ كما وضحنا ـ.

وفي الكتاب التشريعي ـ أي القرآن الكريم ـ وضعت قوانين ومقررات من اجل سعادة البشرية واحياء الابعاد المادية والمعنوية فيها، لا تزول أو تُفسخ بتقدم العلم وتطور المعارف الاكاديمية والصناعات الالية وهي باقية راسخة إلى الابد.

أي يفترض بكل من يطلب السعادة الانسانية والكمال ان يتبع هذه القوانين وينفذها على الصعيد العملي. بيد ان الانسان حرّ في قبول التعاليم الدينية والقوانين التشريعية أو رفضها، فيستطيع ان يسلك طريق السعادة ويعمل بجميع الاوامر والنواهي القرآنية ليبلغ غاية الكمال المادي والمعنوي، ويستطيع أيضاً ان يضرب بعرض الحائط كماله الانساني ويتجاهل بعده المعنوي ويفرط في اشباع الغرائز والاهواء النفسية بحثاً عن اللذة والمتعة، فيعيش كالحيوان ويموت مثله.

ومثلما يقدر الانسان من تحسين وضعه الحياتي على هامش القوانين الثابتة للنظام التكويني من خلال قوة العلم، كذلك فهو قادر ـ وبواسطة قوة العلم أيضاً ـ وبمراعاة قوانين التشريع الثابتة من استثمار ابداعات العلم الحديث واختراعاته، وطبيعي فان هذه المهمة تقع على عاتق الفقهاء وعلماء الدين في كل عصر الذين يعلمون بدقائق الكتاب والسنة ومن خلال فتاويهم واراءهم الفقهية.

عن الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: «*انما علينا ان نلقي اليكم الاصول وعليكم ان تفرّعوا*»[١٣].

وعن الإمام الرضا عليه السلام قال: «*علينا القاء الاصول اليكم وعليكم التفريع*»[١٤].

وقال الإمام المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف في رسالة إلى المسلمين:

«*واما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا فانهم حجتي عليكم وأنا حجة الله*»[١٥].

في الاحاديث المذكورة اعلاه، القى الإمامان الصادق والرضا عليهما السلام على عاتق فقهاء الامة استنباط الفروع من الاصول المحددة من قبل الرسول(ص) والأئمّة عليهم السلام، اما رسالة الإمام المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف جاءت على ذكر الحوادث الواقعة والوقائع المستحدثة، فنظراً لان الإمام المهدي عليه السلام يعلم من الله ان فترة غيبته الكبرى ستطول، وان تطورات متلاحقة ستحدث في عالم الإنسان خلال الغيبة، فانه(ع) امر بالرجوع إلى رواة احاديث اهل البيت عليهم السلام لكي لا يقف المسلم حائراً أمام تلك الاحداث والتطورات، ويعمل بمسؤوليته مميزاً المباح من المحرم والحق عن الباطل.

المسائل المستحدثة وفتاوى الفقهاء

استطاع علماء عصرنا الحاضر من الحوم حول قوانين كتاب التكوين الثابتة واستغلال الفرص المتاحة الواقعة في الحيّز الجانبي من تلك القوانين من خلال بسط العلوم واتساعها وانتشار الصناعات الآلية لصالح حياة افضل واكثر رفاهاً للناس.

---

(١٣) و(١٤) بحار الانوار٢: ٢٤٥.

(١٥) بحار الانوار٧٥: ٣٨٠.

إلى جانب ذلك، تمكن كبار فقهائنا المعاصرين من استثمار المجالات الثانوية لقوانين كتاب التشريع الثابتة، واصدار فتاوى حول بعض المسائل المستحدثة كالتلقيح الصناعي للمرأة بنطفة الزوج الشرعي، والتبرع بالدم وبيعه لانقاد مريض، وبيع الكلية، وقضايا البنوك، والتأمين وغيرها كثير، ليتطابق المسلمون مع ظواهر المدنية الجديدة بما لا ينافي سعادة الانسان.

شبهة حول صلاحية الإسلام

بالنظر إلى ان الإسلام هو خاتم الاديان، وان حلال محمد(ص) حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة، فهناك من يلقي الشبهة التالية ويقول: هل تستجيب القوانين التي نزلت قبل أربعة عشر قرناً لمتطلبات العصر الحاضر؟ وهل تستطيع القوانين الإسلامية ان تدير هذا العالم المتقدم؟

لقد تغيرت كل شؤون الحياة البشرية في دنيانا الحالية، الطب والجراحة والصيدلة والزراعة والبيطرة والنسيج والعمارة والهندسة وعلم التربة والمعادن والفلزات والسفر بوسائط النقل البري والبحري والجوي والخ، كلها تبدلت في عالم اليوم، وتم اكتشاف الذرة وفلق النواة وتسخير قواها وطاقتها الجبارة، وحط الانسان على سطح القمر ودرس ظروفه وجاء بأحجار منه إلى الارض، فالى جانب كل هذا التغيير لا بد وان تتغير القوانين والمقررات.

قوانين التكوين والتشريع الثابتة

بعد الغور والبحث الموسع حول قوانين كتاب التكوين وكتاب التشريع وادخال مادة البحث في وعي المستمعين، يطرح الخطيب الإسلامي الشبهة حول صلاحية الإسلام في هذا العصر، ثم يقول: وضحت قبل قليل ان القوانين التكوينية انما وضعت لحفظ نظام الخلقة، سُنّت القوانين التشريعية لتأمين سعادة الإنسانية، ولا تَبلى أي من تلك القوانين بمضي الزمان وانصراف الدهر ولا تزول تأثيراتها أبداً.

فالمستمع الذي تابع البحث مع الخطيب بشأن قوانين التكوين والتشريع، وتوغل في عمق البحث، يدرك سريعاً ان الشبهة المطروحة حول صلاحية الإسلام لا أساس لها، لانه عرف من خلال البحث الذي اصغى اليه قبل قليل ان قانون ضرورة العدل ومذمومية الظلم وحرمة اراقة الدم البريء ولزوم مراعاة العفاف وغيرها من القوانين التشريعية التي تسلك بالانسان طريق السعادة لا تَبلى بمرور الزمان ولا يغير من قيمتها واهميتها تطور العلوم والصناعات الآلية، مثلما لا تتغير قوانين التكوين كقانون الجاذبية وقانون الموت والحياة وقانون سرعة الضوء بتقدم العلوم وانتشار الصناعات الآلية ولا تفقد أثرها وأهميتها.

اما اذا كان الخطيب قد طرح شبهة صلاحية الاسلام في مستهل حديثه وقبل الخوض في البحث الرئيسي حول قوانين التكوين والتشريع، فانها قد تشغل بال بعض المستمعين وتصرفهم عن متابعة الخطيب بدقة والإصغاء إلى كلامه ورده على الشبهة، أو ان تبقى عالقة في اذهانهم نتيجة عدم اقتناعهم بالرد، فتترك الخطبة تأثيراً سلبياً ضاراً معاكساً لما يُراد له من الهداية والإرشاد.

من ثنايا هذا البحث وهو الفصل الاخير من الكتاب نستخلص:

١ـ على الخطيب ان يتجنب طرح الشبهات التي تُلقى حول بعض العقائد أو الاحكام الاسلامية من على منبر الخطابة وبحضور مستويات متفاوتة من الناس من حيث المعلومات وقابلية الاستيعاب.

فليس هناك من تكليف شرعي او ضرورة اجتماعية لسلوك هذا المسلك في الخطابة، بل قد تعود بمردودات عكسية يتحمل الخطيب مسؤولياتها امام الله تعالى، ونعني بالمردود العكسي هو الضعف الذي قد يصيب ايمان الشخص بسبب سماعه للشبهة.

٢ـ اذا آحاطت بالخطيب ظروف معينة اضطرته إلى طرح الشبهة، فيحق له طرحها فقط في حالة علمه تماماً بالاجابة الاستدلالية وقدرته على توضيحها ببيان مقنع ومفهوم.

امـا اذا كان جاهـلاً بالاجـابة أو ببعضها أو غير واثق بقدرته على اقناع المستمعين بها، فعليه ان يقول بكل صراحة: لا استطيع تقديم الجواب الوافي والرد على الشبهة بشكل دقيق، لذا سأتجاوزها ولا اطرحها على المنبر.

٣ـ في حالة وضوح رد الشبهة لديه واحاطته به ولزوم طرحها ـ أي الشبهة ـ، فمن الاجدر بالخطِيب ان يوضح في مستهل حديثه رد الشبهة كمبحث رئيسي، ثم يطرح الشبهة، من اجل أن لا يواجه المستمع أية مشكلة من ناحية تشتت ذهنه والردة على معتقداته الدينية الصحيحة، وقد قدمنا نموذج لهذا النوع من الخطب في هذا الفصل حول شبهة صلاحية الاسلام بعد مرور اربعة عشر قرناً من بزوغه.

قال الإمام أمير المؤمنين وهو يوصي ابنه الحسن عليهما السلام:«*... ودع القول فيما لا تعرف والخطاب فيما لم تكلف وامسك عن طريق اذا خفت ضلالته فان الكف عند حيرة الضلال خير من ركوب الاهوال*»[١٦] .

(١٦) نهج البلاغة: الرسالة ٣١.

مصادر الكتاب

١ـ الآمال الجديدة (أميدهاى نو). *لرسل ـ باللغة الفارسية.*

٢ـ اسد الغابة. *للعلامة ابن الاثير.*

٣ـ الاصول العامة لعلم النفس.

٤ـ اقرب الموارد.

٥ـ الامام الصادق والمذاهب الاربعة.

٦ـ الامالي. *للشيخ الصدوق.*

٧ـ الامالي. *للشيخ الطوسي.*

٨ـ الامالي. *الشيخ المفيد.*

٩ـ بحار الانوار. *للعلامة المجلسي.*

١٠ـ تاريخ اليعقوبي. *لأحمد بن ابي يعقوب.*

١١ـ تحف العقول. *للحسن بن شعبة الحّراني.*

١٢ـ تفسير ابي السعود. *للعلامة ابي السعود.*

١٣ـ تفسير البرهان. *للسيد البحراني.*

١٤ـ تفسير الدر المنثور. *للعلامة عبد الرحمن السيوطي.*

١٥ـ تفسير مجمع البيان. *للشيخ الطبرسي.*

١٦ـ تفسير الصافي. *للفيض الكاشاني.*

١٧ـ جوامع الحكايات. *لمحمد عوفي.*

١٨ـ درس اللغة والادب.

١٩ـ الدمعة الساكبة.

٢٠ـ سفينة البحار. *للشيخ عباس القمي.*

٢١ـ السيرة النبوية. لابن هشام.
٢٢ـ صحيفة اطلاعات ـ الايرانية.
٢٣ـ صحيفة كيهان ـ الايرانية.
٢٤ـ الطفل بين الوراثة والتربية. للعلامة محمد تقي الفلسفي.
٢٥ـ علم الاجتماع (جامعه شناسى). لصاموئيل كوينك ـ باللغة الفارسية.
٢٦ـ العلوم الجنائية (علوم جنائى) ـ باللغة الفارسية.
٢٧ـ عيون اخبار الرضا(ع). للشيخ الصدوق.
٢٨ـ غرر الحكم ودرر الكلم. للآمدي.
٢٩ـ الفهرست الموضوعي لغرر الحكم. باللغة الفارسية.
٣٠ـ كتاب الانسان. لجان رستان ـ باللغة الفارسية.
٣١ـ الكافي. لثقة الاسلام الكليني.
٣٢ـ كتاب الشهاب.
٣٣ـ كحل البصر. للمحدِّث القمي.
٣٤ـ الكشاف. للعلامة جاد الله الزمخشري.
٣٥ـ لسان العرب. للعلامة ابن منظور.
٣٦ـ لئالئ الاخبار. لمحمد بني التوسيركاني.
٣٧ـ مجموعة ورام. للشيخ الورام.
٣٨ـ المحجة البيضاء. للفيض الكاشاني.
٣٩ـ مستدرك الوسائل. للمحدث النوري.
٤٠ـ المستطرف في كل فنٍ مستظرف. للأبشيهي.
٤١ـ مشكاة الانوار. للشيخ علي الطبرسي.
٤٢ـ مصباح الشريعة.
٤٣ـ معاني الاخبار. للشيخ الصدوق.
٤٤ـ ميزان الحكمة. للعلامة ري شهري.
٤٥ـ النداء الاسود (ندای سیاه). لمارتين ورتر كينغ ـ باللغة الفارسية.
٤٦ـ نفس المهموم. باللغة العربية.
٤٧ـ نهج البلاغة. للامام علي بن أبي طالب(ع).

٤٨ـ **نهج البلاغة**. *شرح ابن ابي الحديد*.
٤٩ـ **وسائل الشيعة**. *للحر العاملي*.

فهرس الموضوعات

على عتبة الكتاب ٥

مقدمة المؤلف ٩

الفصل الأول: حول النطق ١١

الحيوان وقدرة التعلم ١٤

عجز الحيوان من التعليم ١٦

صوت الحيوان وتكلم الإنسان ١٦

الإنسان وقدرة التعليم ١٨

الكلام والصمت ٢٣

الفصل الثاني: الخطيب ونفوذ الكلام ٢٧

الناطق وفن الكلام ٢٨

الفرق بين العلم والفن ٢٩

المعرفة والتوعية ٢٩

اقناع المستمعين ٣١

الأدلّة العقلية والشرعية ٣١

الترغيب ٣٢

الخطيب الإسلامي ٣٣

شروط قبول العمل ٣٦

تصور خاطىء ٣٧

العقل والشعور ٣٧

الفصل الثالث: الخطابة والبصيرة ٤١

الكلام دون علم ٤٢
الكلمة الإرتجالية ٤٣
الحديث المتناسب ومستوى المستمع ٤٤
الفصل الرابع: تقوى الخطيب وإخلاصه ٤٩
اسلوب الرسول(ص) ٥١
التخلف اللاشعوري ٥٢
هداية الضالين ٥٦
الفصل الخامس: الخطيب ومدخل الخطبة ٥٩
الجانب الأول ٥٩
حديث الرسول(ص) مع الأوس والخزرج ٦٢
خطبة زينب(ع) في الكوفة ٦٤
الجانب الثاني ٦٦
كيفية المقدمة ٦٦
كمية المقدمة ٦٨
الفصل السادس: الإلتواء على الموضوع ٧١
الخطابة والالتواء على الموضوع ٧٢
الدعوة إلى الشرك ٧٤
بلاغ ٧٦
الخطيب والبلاغ في الخطبة ٧٦
مثـــال: ٧٧
الخطيب والمزاج المتعادل ٧٨
عمل القاضي والخطيب ٧٩
شر القول ٨٠
مثال: ٨٢
الفصل السابع: الخطيب ومعرفة القدر ٨٥
النزاهة والتقوى ٨٧
الوزن الاجتماعي ٨٧

الغرور ومعرفة القدر ٨٩
عن ماذا يتحدث؟ ٩٠
كيف يتحدث؟ ٩١
نقل المسموع ٩٣
انعكاسات الخطبة ٩٤
الانحراف الفكري ٩٦
الحديث اللاموزون ٩٨
الفصل الثامن: الخطيب والفصاحة ١٠١
فصاحة المتكلم ١٠٢
السيطرة على الاداء ١٠٣
ضرورة التمرّن ١٠٣
الجمال ١٠٥
اختيار المفردات ١٠٧
السمات الفطرية ١٠٨
الكلمات المستهجنة ١١٠
الرتج ١١٢
تلكؤ اللسان ١١٢
الخطباء الجدد ١١٢
المتمرسون ١١٣
القصور العلمي ١١٣
تردد الخطيب ١١٤
التحدث بما يخالف الرأي والمعتقد ١١٥
مثـــال: ١١٥
مواجهة الكبار ١١٦
سرعة الكلام ١١٧
مستوى الصوت ١١٨
دور الفصاحة في التبليغ ١١٨

الفصل التاسع: بلاغة الخطيب ١٢١
البلاغة وكمية الكلام ١٢٢
الإقلال أو قصور الكلام ١٢٤
الإطالة والإكثار ١٢٤
أقسام الثرثرة ١٢٥
مراعاة خصوصيات المجلس ١٢٨
معرفة الزمان ١٣٠
الزمان الطبيعي ١٣٠
الزمان الطبيعي وبلاغة الخطيب ١٣٢
الزمان التاريخي ١٣٤
الزمان التاريخي وبلاغة الخطيب ١٣٤
مثال: ١٣٥
الزمان الاجتماعي ١٣٧
الزمان الاجتماعي وتربية الابناء ١٣٨
خطباء الإسلام وتطور العلوم ١٣٩
علم الإجتماع ١٣٩
علم النفس ١٤٠
التحليل النفسي ١٤١
الجو السياسي ١٤٢
الخطيب والغفلة عن الجو السياسي ١٤٣
الزمن الأهم من الناحية البلاغية ١٤٥
معرفة أهل الزمان ١٤٦
الإستحسان والثناء ١٤٦
الخطيب واحترام شخصية المستمع ١٤٨
القول اللين ١٤٩
النظرة الشاملة ١٥١
النقد الموضوعي ١٥١

فهرس الموضوعات ٢٥٣

الإنتقادات الاجتماعية ١٥٢
مثال: ١٥٣
الإحتكار ١٥٤
مثال: ١٥٦
الفصل العاشر: الخطيب والمستمعون ١٥٧
حُجتّان إلهيتان ١٥٩
حسن الاستماع ١٦٠
دعوة الرسول(ص) واستماع الناس ١٦١
خاصية الجذب في القرآن الكريم ١٦٢
الفصل الحادي عشر: الخطابة ومراعاة الإنسجام ١٦٧
مثال: ١٦٨
الأُسوة ومراعاة الإنسجام ١٧٠
الخطباء والموائمة ١٧٣
آثار عدم الموائمة ١٧٤
التعلم السمعي والبصري ١٧٤
شعبية الخطيب ١٧٥
التناسق في بيان الحديث ١٧٧
الفصل الثاني عشر: الخطابة والشجاعة ١٨١
القدوة الكاملة في الشجاعة ١٨٤
الشجاعة في ميدان الحرب ١٨٥
ابلاغ سورة البراءة ١٨٦
أجر هداية الناس ١٨٩
الفصل الثالث عشر: مادة الخطيب ومحتوى كلامه ١٩٣
الخطباء وبحوث الحكمة ١٩٥
التتلمذ ١٩٥
الموعظة الحسنة ١٩٦
المعصية وعذاب القيامة ٢٠٠

المناظرة والجدل ٢٠١
الجدل المنبوذ ٢٠٣
الخطباء والجدال اللامشروع ٢٠٣
الفصل الرابع عشر: الخطيب وإيصال مفاهيمه ٢٠٧
الكلمات الانسيابية ٢٠٨
الجمل القصيرة ٢٠٨
المقايسة والمقارنة ٢٠٩
الإسلام والمساواة ٢٠٩
المقارنة ٢١٠
مقارنة الايام ٢١٢
مقارنة الاعداد ٢١٢
التشبيه والمثل ٢١٤
مثال: ٢١٦
الرد على الاسئلة ٢١٩
قانون المناقصة ٢٢٤
الفصل الخامس : الخطيب والرد على الشبهات ٢٢٧
قوانين التكوين والتشريع ٢٢٨
سرعة الضوء ٢٢٩
الحياة والموت ٢٣٠
التلقيح الصناعي ٢٣١
قانون الموت ٢٣٢
قانون الجاذبية ٢٣٢
كتاب التشريع ٢٣٣
العدل ٢٣٣
قتل النفس ٢٣٤
الخمر والميسر ٢٣٥
حرمة الزنا ٢٣٧

فهرس الموضوعات ٢٥٥

الزنا بالعنف ٢٣٨
المسائل المستحدثة وفتاوى الفقهاء ٢٤١
شبهة حول صلاحية الإسلام ٢٤٢
قوانين التكوين والتشريع الثابتة ٢٤٢
مصادر الكتاب ٢٤٥
فهرس الموضوعات ٢٤٩